

التراث والعلوم الاسلامية لكل الشعب

الهيئة العامة لكتبة الأسكندرية رقم التصنيف



All Legil

شيح العسارف بالله الشيخ زروق

تحقين الإمام عَبِدالحسل بمرمحمو

م ۱۹۸۰ م م ۱۶۰۵ غ

مدايع والليشج بتبا العتامة

تصميم الفلاف:
🗌 حسن احمد خليل
🗖 الاعداد الفني:
🗆 أنور عبد الدايم

□□ النساشر: مؤسسة دار الشعب ٩٢ ش قصر العيني القاهرة ت: ١٨١٠/٥٥١٨١٧/٥٥٤٥٠٥

بسهار الرحمن الرحسيم تقت يم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة ، محمد بن عبد الله ، عليه وعلى من والاه أفضل صلاة وأتم تسلم .

وبعد :

فقد ذلَّل الله الكون لعباده ، ووجههم إلى تعميره كما وجههم إلى السيطرة على الطبيعة بالعلم ، والمعرفة . وعبر سبحانه عن كل ذلك بعديد من الأساليب :

فأخبرنا م مُمّتنًا ما بأنه سخّر لنا الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وسخّر لنا الأرض والساء ، وما بين الأرض والساء ، لقد سخر لنا الكون كله لنستخدمه : نغوص بحاره ، ونجوب فضاءه ، ونجول خلال دياره ، ونجول في أرجائه .

. ~,

بقول سبمحانه:

«الله الله الذى خلق السَّموات والأرض ، وأنزلَ من السَّماء مَاءً ، فأخرجَ به مِنَ الشَّمرات رزَّقًا لكم ، وسَخْر لكم الأنهارَ * وسَخْر لكم الشَّمس لكم ، وسَخْر لكم الأنهارَ * وسَخْر لكم الشَّمس والقمر دَائبين ، وسَخْر لكم اللَّيل والنهارَ » .

(من سورة ابراهيم : ٣٢ - ٣٣)

ويقول سبحانه:

« هُو الَّذِى أَنْزِل مِن السَّماء مَاءً لكُم مِنْه شراب ، ومِنْه شجَرْ فيه تُسيمُون ، يُنْبت لكُمْ بِه الزَّرعَ والزَّيتون وَالنَّخيل والأَعْناب ، ومِنْ كُلُ الشَّمرات ، إِنَّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون . وسَخْر لكم اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقمرَ والنجومُ مُسَخْرات بِأَمْرِه ، إِنْ في ذلك لآيات لِقوم بِعقلون ، وماذرًا لكم في الأرضِ مُختلفًا ألوانه ، إِنْ في ذلك لآية لقوم يَذُكَّرون . وهُو الَّذي

سَخَّر البحْرَ لِتَأْكُلُوا منه لحْمًا طرِيَّا ، وتسْتخْرِجُوا منه حِلْية تلْبَسُونها وتَرى الفَلكَ مَوَاخِرَ فيه، ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه ، وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُون . وأَلْقَى فى الأَرضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَميدَ بكم ، وأَنهارًا وسُبُلاً لعلَّكُم تَهْتَدُون * وعَلَامات ، وبِالنجْم هُم يَهْتَدُون » .

(الآيات : ١٠ ــ ١٦ من سورة النحل)

لقد هيأ الله لنا عالم الطبيعة ، ووضع فيه من الأسرار والقوانين مايفيدنا لوسرنا بها إلى الخير الذى أحبه الله سبحانه وتعالى ، ثم تركنا وجها لوجه أمام الكون ، دون أن يقيدنا فيا يتعلق بالبحث فيه _ بقيد ، اللهم إلا قيد إرادة الخير في كل ما نأتى وما ندع .

وإذا كان الله عزَّ وجلَّ ، قد جعلنا خلفاء في الأَرض مصداقًا لقوله : «إني جاعل في الأَرض خليفة » . .

وإذا كان الله قد ترك لعقولنا مجال البحث ، فإنه قد أنزل مع ذلك دستوراً هاديًا لعقولنا ، مبينًا المنهج الذي عليه يقوم تعاملنا في المجتمع .

لقد بين ، سبحانه ، المبادى التى تقوم عليها صلة الأَفراد بعضهم ببعض . فيا يُسمى ف « الفقه » بالأَحوال الشخصية .

وبين الأُصول التي تقوم عليها صلة الأَفراد بعضهم ببعض في مجتمعهم ؛ كالتجارة . والرهن ، وكتابة «الدين» ، وغير ذلك.

وأَفاض ، سبحانه ، فبما يتعلَّق بالخلق الشخصى ، من : صدق ، وورع ، وتقوى ، وحلم ، وحياء ، وغيرها ، وقد حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه «إنما بُعث ليتمم مكارم الأُخلاق».

ئم بين ، جلت قدرته ، في استفاضة قواعد الإيمان ، وأنها تتبلور في :

«أَشهد أَن لا إِله إِلاالله ، وأشهد أَن محمدًا رسول الله ، مع إقامة الدين على الوضع الذي بينه أَ كتابه الحكيم وعلى لسان رسوله الكريم ».

وحدثنا _ تبارك وتعالى _ بأن قانونه الذى لايتخلَّف «أنه كاف عبده الذى حقق له العبودية كما أحب سبحانه

ولقد عقل قوم عن الله ذلك ، وتأملوه ، وتدبروه ، ورأوا ببصيرتهم المستنيرة ، وببصرهم

To: www.al-mostafa.com

التفَّاذ أَن الخير كلُّ الخير في أَن يستجيبوا لله ورسوله حتى يستجيب لهم الله ورسوله . وأَن يكونوا لله فيكون الله لهم ، يقول سبحانه :

« أَلَيْسَ اللهُ بكَاف عَبْدَه ٥ .

ويقول عز وعلا:

«وكَفَى برَبك هَادياً وَنَصِيرا».

ويقول عز من قائل:

« إِن تنصُروا اللهُ يَنصُرْ كُم » .

ويقول تعالى :

« ومَن يَتْق الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، ويَرْزقه مِن حيث لا يَحْتَسِب ، ومَنْ يَتَوَكَلْ عَلَى الله فهو

ويقول سبحانه :

« أَلَا إِن أَوْلياءَ اللهِ لَاخوْف عليهم ولا هم يحْزنُون ، الذين آمنوا وكانوا يَتقون لَهم البشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخِرة ، لَا تبديلَ لكلِماتِ اللهِ ، ذلك هُو الفوز العظيمُ ، .

وفي حديث قدسي يقول تبارك وتعالى :

«مَن عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرّب إلى عبدى بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرّب إلى بالنوافل حتى أُحبه . . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ، وإن سألني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه ».

هذه الأنباء ، وكثير غيرها عن الله سبحانه ، تبين أنه تكفَّل بمنج الحياة الطيّبة لمن استجاب له . والمؤمنون موقنون بأن وعد الله لايتخلف .

فلما رأى أصحاب القلوب المشرقة _ كما قلنا _ استجابوا لله ورسوله ، وشمروا عن ساعد الحجد في العمل على ما يرضى الله ورسوله ، وطبقوا قوانين الله في الكون وفي المجتمع ، فسعدوا السعادة الكاملة ، وأعلنوا أنهم في للة لو عرفها الملوك لجالدوهم عليها بالسيوف.

لقد رضوا عن الله فرضي الله عنهم ومنحهم الرضي .

ولقد آمنوا واتقو ففنح الله عليهم بركات من السماء والأَرض.

ولقد آمنوا وعملوا العسالحات فأُحياهم الله حياة طيبة.

ومع ذلك ، فإن العاملين لله تنفاوت درجاتهم ومنازلهم بتفاوت هممهم في العمل الله سبحانه : فمنهم أصحاب اليمين :

و وَأَصْحاب ليمين ما أَصْحاب اليمين في سِدر مخضود وَطَلْح منْضُود وَظِلْ مَّمْدود ومَاءٍ مسكوب وَفاكهة كثيرة لامقطوعة وَلَا مَمْنوعة وفرُش مَرْفوعة إنا أَنشأناهن إنشاء فجعلْناهن أبكارًا عُرُبًا أَترَابًا لأَصْحَاب اليمين ، ثُلَة من الأولينَ وَثلة من الآخِرينَ».

ومنهم الابرار :

وإن الأبرار يشربون مِنْ كأس كان مِزاجُها كافورًا ، عَيْنًا يَشرَبُ بها عبَاد اللهِ يُفجُرُونها تفجيرا ، يوفون بالنفر ويَخافون يوْما كان شره مستطيرًا ويطْعِمون الطعّامَ على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نُطعمُكمْ لوجه الله لا نُريد منكم جزاة ولاشكورا إنا نخاف مِن رَبِّنا يومًا عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهمْ نضرة وسرورا وجزاهم بيما صبروا جنة وحريرا ، متكثين فيها على الأرائك لايرَوْن فيها شمسا ولازمهريرا ودانية عليهمْ ظلالها وذللت فطوفها تذليلا ، ويُطاف عليهم بآنية مِنْ فِضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا مِنْ فِضة قدرُوها تقديرا ، ويُطاف عليهم بآنية مِنْ فِضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا مِنْ فِضة عليهم ولدان مخلون إذا رَأَيْتهمْ حسبتهمْ لُولؤا مَنثورا ، وإذا رَأَيْت ثمّ رأَيْت نعيما وملكا عليهم ولدان مخلون إذا رَأَيْتهمْ حسبتهمْ لُولؤا مَنثورا ، وإذا رَأَيْت ثمّ رأَيْت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهمْ ثيابُ سُندُس خضر وإستَبْرق وحُلوا أساور من فِضة وسَقاهم ربهمْ شَرابا طهورا ، فان هذا كان لكم جزاء وكان سعْبُكمْ مشكورا » .

(من سورة الإنسان : ٥ – ٢٢)

ومنهم السابقون ، أو المقربون ، وهم في الذروة من أولياء الله ، يقول الله عنهم :

«والسابقون السابقُون أُولئِك المقربون في جَناتِ النعيم ، ثلة مِن الأَولينَ وقليل من الآخرِينَ ، مرر موْضونة مُتكئينَ عليها منقابلين ، يطوف عَليهم ولدانٌ مُخلدون بأكواب وأباريق

وكأس مِن معين ، لايُصدعُون عنها ولا يُنزفون ، وفاكهة ثما يَتخيرون ولحْم طيْر مما يشتَهون ، وَحُور عين كأَمْثالِ اللُّولُةِ المكنونِ ، جَزآءً بما كانوا يعملون ، لا يسْمَعُون فِيها لغوا ولا تأثيمًا إلَّا قيلا سلامًا سَلامًا ».

(الآيات من ١٠ - ٢٦ من سورة الواقِعة)

إن هذه الدرجات التي أعدها الله لهم في الآخرة لهم معها في الدنيا مايتناسب من الرضاء والسكينة ، وطمأنينة النفس ، والحفظ ، والسعادة .

لقد تدبر هؤلاء المقربون الغايات والأهداف ، ووازنوا ، وقارنوا واستقرت بهم الامال عند قوله تعالى :

« وأن إلى رَبك المُنتهى » .

وليس دون الله منتهى للمسلم الصادق .

إن إليه النتهى في الأُسباب والعلل ، وإليه المنتهى في الحكم وانتصريف ، وإليه المنتهى في الغايات والأُها.اف ، وإليه المنتهى في الآمال والمقاصا.

وسمت الهمم بقوم فأحبوا أن يحققو هذا «المنتهى» شهادة كما حققو، إنانا واعتقادا ، لقد، أرادوا أن بحققوا :

را أشهد الله إلا الله و

أرادوا أن يحققوها في صورة صادقة ، يحققوها واقعيا كما - ققوها إيمانا .

تمد أرادوا أن «يشهدوا» شهادة صادقة ، فأخلوا في الطريق إليها .

القمد أخلوا يجتازوه منازل الأرواح ومدارج السالكين ، ومنازل السائرين ومعارج الندس.

نقد ساروا في المقامات مبتدئين بالنوبة الخالصة النصوح ، تتفجر في قلوبهم أنوار الأحوال . ستدرجة بهم من مقام إلى مقام ، ومن منزلة سامية إلى منزلة أسمى ، ومن مقام شريف إلى مقام أشرف حتى أصبحوا بقلوبهم ، وبأرواحهم في رحاب الحبيب ، مع الحبيب .

وكان منهم الصدِّيق ، وكان منهم «المحدّث» ، وكان منهم «ذو النورين» وكان منهم «باب مدينة العلم» ، وكان منهم من قيل له : «عرفت قالزم» .

وكان منهم القادة في القديم والحديث . . والهداة في الماضي والحاضر ، والأسوة الحسنة على مدى العصور والأجيال .

وكلَّما مكنهم الله في الأَرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . وكلّما رفعهم الله ازدادوا له تواضعا ، وازدادوا له خشية .

ودانت لهم الدنيا سيطرة وامتلاكا لأنهم دانوا الله خضوعا وطاعة.

لقد دانت لهم : قادة للحرب والنضال .

ودانت لهم دعاة مبشرين ومنذرين .

ودانت لهم في جميع مجالا بها لمَّا اكتفوا بالله عنها .

* * *

وباب الله مفتوح ، ورحابه لم يضق يوما بطارق ، ومغفرته تنتظر اللاجيء إلى فضله ، ورحمته وسعت كل شيء : إنه ، سبحانه ، ينادى كل ليلة :

ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه ، ألا هل من سائل فأعطيه ، ويده سبحانه مبسوطة بالليل ؛ ليتوب مسيء النهار ، ومبسوطة بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويده سبحانه : «يا عبادى كلكم ضال إلّا من هديته فاستهدوني أهدكم » فإنه يقول : «يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم »، وإذا ما تخلي الانسان مرحلة التوبة الصادقة النصوح التي تخرج من القلب فتفتح لها أبواب السماء ، فإن الله ، تبارك وتعالى ، يتجلّى عليه بالرعاية ، بالحنان وهو الحنان ، وعن عليه بالفضل ، وهو المنان ، ويوفقه ، وهو صاحب الفضل والتوفيق ، وعده ومدده دائم لايغيض ... حي يصبح من أرليائه ... ومن أصفيائه ، ... ومن أحبائه .

ولله أولياء وأصفياء وأحباء لايتخلى عنهم ، ولايخزيهم ، ولا يُسلمهم ، وعنايته مم تنأى بهم عن الخللان .

والطريق مفتوح : وهذا الطريق رسمه أولياؤه عن تجربة ، ووصفوه عن خبرة . لقد ساروا فيه ، واستقاموا على جادته ، ونعموا برياضه ، وسعدوا في جناته ، واستقروا عند الحبيب ثم وصفوه . . وصفوه للحياري . . لطالبي الحق والخبر ، للبعيدين عن الله ، للذين تتطلّع نفوسهم

إلى القرب منه ، لقد وصفوه لكل مستهد ، لكل مستشرف ، للنفوس التي لايزال فيها شعاع من نور وبقية من خير.

وآثار الهداة المهديين الذي رسموا الطريق عن خبرة ودعوا إليه على بصيرة ، كثيرة ، ومن أنفسها كتاب «الحكم العطائية» ، ألفه الامام الجليل ابن عطاء الله السكندري ، الذي جمع بين رئاسة علوم السريعة وعلماء الشريعة وعلماء الشريعة ، فكان عالماً مستشرعاً متحققا ، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق .

أخذ العهد على الإمام الكبير أبي العباس المرسى ذلك القطب الذي قال عنه أبو الحسن الشاذلى:
«إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض» وقال فيه : «هذا أبو العباس، منذ عرف الله لم يُحجب عنه ، ولو طلب الحجاب لم يجده ».

ويقص ابن عطاء الله ، كتابه اللطيف القيم : «الطائف المنن » قصة صلته بأني العباس فيقول : كنت الأمره (أي : الأمر الشيخ أبي العباس) من المفكرين ، وعليه من المعترضين ، الالشيء سمعته منه ، والالشيء صبح نقله ، ولكن جرت المخاصمة بببي وبين أصحابه ، فقلت فيهم قولا عظيماً ثم قلت في نفسي : دعى أذهب أنظر هدا الرجل ، فصاحب الحق له أمارات الايخي شأنه .. فأتيت إلى مجلسه .. فوجدته يتكلم في الأنفاس ومسألة درجات السالكين إلى الله ، ومدى معرفتهم به ، وقربهم منه ، فقال : الأول إسلام : وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام عراسيم الشريمة . وثانيها : الإمان ، وهو : مقام حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية ، وثالثها : الإحسان ، وهو : مقام شهود الحق تعالى في القلب . وإن شئت قلت : الأول عبادة ، والثانى عبودية ، والثالث ، تحقق عبودية ، والثالث عبودة ، وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت ، إلى أن بهر عقلى فما ذال يقول ؛ وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت ، إلى أن بهر عقلى عندى .. ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيئا يقبل الاجماع بالأهل على عادق ، ووجدت عمني غريبًا الاأدرى ماهو ؟! فانفردت في مكان أنظر إلى الساء وكواكبها وماخلق الله فيها من عبائب قدرته ، فلمس قلي أشياء لم أعرفها من قبل ، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى ، عجائب مرة أنورى ، فلمس قلي أشياء لم أعرفها من قبل ، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى ، عجائب قدرته ، فلمس قلي أشياء لم أعرفها من قبل ، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى ، عجائب قدرته ، فلمس قلى أشياء لم أعرفها من قبل ، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى ،

فأتيت إليه ، فاستؤذن لى عليه ، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً ، واستصغرت نفسى أن أكون أهلاً لذلك ، فكان أول ماقلت له : ياسيدى ، أنا والله أحبك ، فقال : أحبك الله كما أحببتنى .

ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان ، فقال : أحوال العبد أربع لاخامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك شهود منته عليك ، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك ، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار . فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته .

ثم سألى بعد ذلك بمدة : كيف حالك ؟ فقلت : أفتش عن الهم فلا أجده ، فقال :
ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

الْزَم ، فوالله لثن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين . في علوم الظاهر ، وحقائق الباطن» . ولازم ابن عطاء الله أستاذه ، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلية .

وابن عطاء الله ، في الواقع ، هو الذي كان له الفضل الكبير في بيان ما نعرفه الآن من آثار أبي العباس المرسى ، وفي بيان الكثير أيضاً مما نعرفه عن القطب الكبير الحجة أبي الحسن الشاذلى . وابن عطاء الله ، هو الذي جند قلمه للدعوة إلى طريق الله ، فكتب هذه الدرر التي تركها أنجماً ومعالم تهدى طريق السائرين إلى الله .

وكتابه والحكم» مجموعة من «الحكم» صُفيت من ناحية الأُسلوب والصياغة فكانت مثلا عاليا للأَدب الرفيع يضع ابن عطاء الله في مصاف أعلام الأَدب الفصيح البليغ.

وَصُفيت من ناحية الفكرة ؛ فكانت مثلا عاليا للفكر الصوفى ، أو للنور الصوفى ، أو لمعراج الروح فى مستوى يضع ابن عطاء الله فى الصف الأول من صفوف المقربين .

وأغرم بالحكم كثيرون ، أغرموا بها قراءة .. وأغرموا بها تدريسا .. وأغرموا بها شرحًا .. لقد شرحها «ابن عبيبة» شرحا كله نور ، وشرحها الشيخ الشرقاوى ، وشرحها الشيخ الشرنوبي .

أما الشيخ «أحمد زروق» ؛ فإنه قد افتتن بها افتتانا ، لقد استولت عليه جاذبيتها فكانت لاتفارقه فى سفر ولا فى إقامة . . وكان يشرحها فإذا ما انتهى من شرحها بدأ يشرحها من جديد، وتفاوتت شروحه بين الإيجاز والتطويل .

أما عدد هذه الشروح فلم يتيسر إحصاؤها فى دقة دقيقة ، والمؤكد أنها وصلت إلى أكثر من ثلاثين شرحاً . وهذا الشرح الذى بين أيدينا هو شرحها السابع عشر ، لقد أعلن ذلك الشيخ أحمد زروق نفسه فى مقدمة هذا الشرح ، وعد الشروح التى سبقته مبيناً الأمكنه التى كتبت فيها على الترتيب ، يقول الشيخ «زروق» :

«وقد كتبنا عليه مراراً عديدة ، كمل منها سبعة عشر ، فكان الأول منها بمدينة «قاس» سنة سبعين (يقصد: سنة سبعين وثمان مائة هجرية) ثم سُرق ، فكتبت الثانى بها وكمَّلته بتونس، ثم الثالث . . » ويستمر يعد شروحه ثم يقول في النهاية : «. . ثم هذا هو السابع عشر» . ويتحدث الشيخ « زروق» عن شروح الآخرين ويبين مزيّة شروحه هو وتعليقاته ، ولا نريد أن نثبت هنا ماسيقرؤه القارىء في مطلع هذا الشرح بقلم الشارح .

* * *

أما عن الشيخ « زرُّوق » نفسه ، فإنه : أحمد بن أحمد بن محمد الفاسى المعروف بـ « زروق » ، قمة من قمم التصوف أيضاً ، وهو حينا يكتب عن « الحكم » فإنما يكتب كتابة عالم ، ويكتب كتابة مؤرخ لرواد التصوف ، ولكنه ، من قبل ذلك ومن بعد ذلك ، يكتب كتابة «متذّوق » . . لقد سار في الطريق الذي سار فيه ابن عطاء .

يقول «المناوى» عنه في «طبقات الشاذلية»: «عابد من بحر العبر يغترف، وعالم بالولاية متصف، تنحلّى بعقود القناعة والعفاف، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلافة، خطبته الدنيا فخاطب سواها، وعرضت عليه المناصب فردّها وأباها».

ويـذكر «السخاوى» في كتابه «الضوء اللامع» عن الشيخ زرُوق:

أنه ولد في يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة : ست وأربعين وثمان مائة ، ومات أبوه قبل تمام أسبوعه ، فنشأ يتيماً » .

ولد في «فاس» ، وحفظ بها القرآن ، وتعلم بها ما يتعلمه أترابه من المباديء الأولى للعلوم الدينية والعربية ,

ثم كانت حياته بعد ذلك دراسة ، وسياحة ، وتجردا .

یقول عنه السخاوی : «وقد تجرد ، وساح».

أما التجرد ، فإنه يعني : أنه استخلص نفسه لله تعالى .

وأما السياحة فإنها تعبى في لغة ذلك العصر: الأسفار المتلاحقة في طلب العلم ، وللخلوة في العدادة .

وقد كانت حياته طلباً للعلم .. وكانت عبادة .

لقد أخذ التصوف عن أثمة عصره ، ومنهم : «القورى».

ي كما أخذ الحديث عن « السخاوى » .

و أخذ العربية على يد « الجوجري » .

ويتحدث صاحب كتاب «شذرات الذهب» عن كتب الشيخ وتواليفه ، فمما يذكره أنه : كتب على «الحكم» نيفا وثلاثين شرحاً ، وعلى «القرطبية» وعلى «رسالة ابن زيدون القيروانى» عدة شروح كلها مفيدة نافعة ، وشرح «حزب البحر » للشاذلى ، وألف كتاب «قواعد التصوف» وأجاده جدا ، وكانت وفاته سنة ٨٩٩ه».

* * *

وهذا الشرح الذى بين أيدينا اعتمدنا فيه أولا على مخطوطة قديمة يرجع الفضل في التوجيه إليها للسيد الفاضل صاحب مكتبة النجاح بطرابلس الغرب الأستاذ محمد نور الدين.

إنه رجل صالح يحب الخير ، ويحب نشر العلم ، وهو الذي قدّم انا مخطوطة للكتاب كانت عنده بخط مغربي قديم ، ولقد وجدنا مخطوطتين بدار الكتب المصرية ، إحداهما بالمكتبة التيمورية ، وهي ذات خط جميع وتنسيق وتنميق ، وعناية فائقة ، والأخرى عكتبة الدار بخط قديم أقرب إلى الخط الكوفي منه إلى الخط الحديث .

ولما نوفرت لدينا المخطوطات الثلاث بدأنا التحقيق راجعين إليها جميعا ، ولم نرد أن نثبت كل الاختلافات ، فالكثير منها كان يبدو في بعضه الخطأ الصريح ، ولم نرد إثباته ، وما أثبتنا إلا ما كان له احمال من الصحة .

وأحياناً ما أشرنا في الهامش عند النقل عن المخطوطة التيمورية بحرف : «ت ، ، ·

ولقد كنا نرجع كثيراً إلى شرح ابن عبَّاد ، فأَفادنا في تصحيح بعض النصرص ، خصوصاً ما كان قصصاً .

وإننا في النهاية إذ نقدم الشكر لكل من عاوننا على نشر هذا الكتاب اقيم لنردد هذا الرجاء الذي سجله الشيخ زرُّوق في مقدمة كتابه هذا عندما توجّه إلى الله مبتهلا قائلا: «أرجو الله أن يكون نفعه عامًا ، وأن يجعله حيث ماحلَّ رحمة لعباده وبركة في بلاده ، وأن يحميه من كل جاهل يتحامل ، أو حاسد بعرف الحق ويتجاهل . إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

عبد الحليم محمود

		,

بسيم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

يقول العبد الفقير المعترف بالذنب الراجى بكل حال فضل ربه الشيخ الفقيه العارف المحقق ، فريد عصره ، ونسيج وحده أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى عُرف «بزروق» أصلح الله حاله وبلغه فيما لديه آماله ، بمنّه وسعته إنه على ما يشاء قدير :

الحمد الله ، الذى فجر ينابيع الحِكمة من قلوب الصادقين فَجَرَت ، وفتح لها أساع المحبين والراغبين فَسَرت ، ونور بها بصائر المتوجهين والطالبين فأبصرت ، أحمده حمد معترف بمنته في حمده (۱) ، وأشكره شكر عارف بإحسانه ورفده (۲) ، وأستغفره من كل ذنب في هزل العمل وجده ، وأستعينه استعانة من علم أنَّ كل شيء من عنده ، وأصلي على سيدنا محمد نبيه الكريسم وعبده ، وعلى آله وأصحابه و ذريته وكافة أهل وده ، صلاة نُؤدى بها ما وجب من تعظيم قدره ومجده ، وأسلم عليه وعليهم تسليماً كثيراً والحمد الله على ذلك .

[أما قبل كل شيء ، ومعه ، وبعده ، دليس على الحقيقة إلا الله وحده (٣) ، من وقف ببايه الكريم أنجح وملك ، ومن استند لجنابه العظيم أفلح وسلك ، ومن حاد عن منهجه النويم حسر وهلك . وخير العباد من وقف بكنه همته عليه ، وأانضلهم حالا من توجّ ، فى كل أمره إليه ، وأعلاهم قصدا من طرح نفسه دائماً بين يديه ، فقام للحق على بساط التحقيق ، وجمع بين فلاهر الشرع وباطن الطريق ، ووقف للخدمة وهيرها موقف أهل الصدق والتصدين، مقدياً باقمة الهدى والتوفيق ، كالسادة الشاذلية ومن فى معناهم ، والجماعة الوفائية (٤) ومن جرى مجراهم ؛ وأحوال عظيمة سنية ، وأحلاق حسنة زكية ، وهمم رفيعة علية وحقائق ظاهرة جلية ، وقد قربوا الطريقة أتم تقريب ، وهذبرا الحقيقة أحسن

⁽۱) إن الله سبحانه و تعالى هو الذي يوفق العبد للحمد ، فقيام العبد بالحمد منة من الله سبحانه تستدعي شكره و حمده من جديد و هكذا

⁽٢) رفده ؛ عطائه .

^{ُ (}٣) ليس إلا الله وحده مقصداً الطالبيين وهدفاً السائرين ، ويقول في ذلك الإمام أبو ستيد الحراز : « كل ما فاتلك من الله ، سوى الله ، قليل » .

⁽٤) وعلى رأسهم سيدى عميد وقا وسيدي على وفا ، وقد أقرد لهما الشيخ القنراني دراسات مستفيضة مستقلة في طبقاته .

مديب ؛ فوصلوا الاىمان بالاسلام وأُجْروا الاحسان فى الأعمال والأَحكام ، ولذلك لايصح إنكارها من فقيه محقق ، ولا اعتراضها من أصولى مدقق ، بل يكاد يرى سلوكها واجبا ، ومُجانبها خائبا وسالكها طالبا ، بل كما قيل :

على مِثلِ ليلى يقتل المرمُ نفسَه ويَحْلو له مُرُّ الغرام ويعذَبُ

وإن من أجل كتاب وقع لهم فى ذلك ، وأنفعه لكل مريد صادق سالك ، كتاب و الحكم العطائية الشاذلة التوحيدية العرفانية الوهبية » . عباراته رائقة جامعة ، وإشاراته فائقة نافعة ، تشليخ الصدر وتبهيج الخاطر ، وتُحرك السامع لها والناظر ، مع تداخل علومه وحكمه ، وتناسب حروفه وكلمه ، إذ كله داخل فى كله ، وأوّله مرتبط بالأنير من قوله ، بل كل مسألة منه تكملة لما قبلها وتوطئة لما بعدها ، وكل باب منه كالشرح للذى قبله والذى قبله أيضاً كأنه شرح له فكل حكمة أو كلمة إنما هى كالتكملة أو كالمقدمة ، فأوسطه طرفاه (١) ، وآخره مبتداه وأوله منتهاه ، بعرف ذلك من اعتى بتحصيله وسنشير له فى جمله وتفاصيله إذ قصدنا بهذا المسطور المختصر ، وضع شيء عليه يشبه الحواشي والطرز ، وعلى الله المعتمد فى بلوغ التكميل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تنبيه :

قد ذكل الناس على هذا الكتاب وراموه بالشرح كيرا ، فلم يتفق لأحد عن أينا أكمال شيء إلا ما لسيدنا الشيخ الفقيه العارف المحقق الخطيب البليغ ، نسيج وحده ومقدم من أن من يعده ، ميدى أني عبد الله محمد بن أيراهيم بن مالك بن أبراهيم بن يحيى بن عباد النامزيء نسبا ، المالكي ، فهذا ، فهند أكميل كتابه وإعدمد فيه على النقل وتحصيل الفواللد المحتاج إليها ، فأنى بالعجاب من ذلك . وآثر السلامة فاقتصر على التقرير .

⁽۱) يريد الشيخ رحمه الله تعالى أن يقول : إن الحكم وحدة واحدة وذلك على خلاف ما يظن بعقن الناس من أنها متناثر ات الأوليط أبينها والمستخدمة ولا تربطها والمبتغلظة الشكامل ولفقه عليت عليت عليه المؤتلة مفله على الله تحقور والمحل المطائبة وباط وثيق ، فهي بمجموعة من الاقوال نظمت في أو تات المختلفة من به والمد أن أمر أحده الوحدة هو من اللهقة بهذا به على ذلك المبتغ فيقول أنه بدرات ذلك من أحتى وتتخلطها به به الله المنابع على ذلك المبتغ فيقول أنه بدرات ذلك من أحتى وتتخلطها به به الله

وقد كان ، رحمه الله ورضى عنه ، ذا سمة وهمة (١) وتجمل وزهد وعفاف وصيانة ، وعظيم علم وكبير ديانة (٢) .

مولده ، برندة : سنة سبع مائة وثلاثين ، وبها نشأً على أحسن حال وأكمله .

حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، ثم ارتحل لفاس وتلمسان فقراً بها العربية والأصول والفقه ، ككتاب : «الإرشاد» ومختصر ابن الحاجب الأصلى والفرعى ، وتسهيل ابن مالك . ومن مشايخه : «الأبلى » والشريف أبو عبد الله التلمسانى والأستاذ المجاصى وآخرون . سكن ملينة «سلا» وصحب بها أوحد أهل زمانه علماً وعبادة وأفضلهم ورعا وزهادة سيدى الحاج أحمد ابن عمر بن عاشر المرسى ، فانتفع به كثيرا ، ثم انتقل بعد وفاته فجعل خطيباً بجامع القرويين من حمدينة فاس - وبتى بها خمس عشرة سنة على ذلك ، ثم توفى يوم الجمعة الرابع لشهر رجب الفرد سنة اثنين وتسعين (٣) وسبع مائة ، عن ثلاث وستين سنة أو نحوها ، ودفن به كبدة رسائل معروفة ، أكثرها كان لسبدى يحبى السراج . وله كتاب الشرح مع سبدى سليان بن عمر رسائل معروفة ، أكثرها كان لسبدى يحبى السراج . وله كتاب الشرح مع سبدى سليان بن عمر اللهى قال فيه إنه ولى لاشك فيه بطلبهما (٥) لذلك ورأيت كتاباً في الإمامة قد سماه «تحقيق العلامة في أحكام الإمامة » فذكرته لشيخنا أبي عبد الله القدرى (١) رحمه الله ، وكان مُعتنياً بكتبه العلامة في غالب حاله ، فقال أظنه لوالله سيدى ابراهم وقد كان خطيباً بالقصبة ، إذ كانت علمرة ، وله خطب عظيمة الفصاحة حسنة الموقع والله أعلم .

فصل : وممن علق على هذا الكتاب سيدى أبو القاسم الرماح أحد عدول «طرابلس» رحمة الله عليه ؛ إذ كان رجلا صالحاً ، حسن النيَّة ، جميل الحالة ، وحاصل كتابه : أنه أوقع لكل حكمة خطبة وجمع كثيراً من كلام ابن الفارض ، والحاتمى ، وغيرهماعلى غير مناسبة ، فالله ينفعه بنيَّة .

⁽١) في التيمورية : ذا صمت وسمت والسمت : الوقار والسكينة .

 ⁽۲) شرح ابن عباد الرندى على الحكم معروف مشهور ، طبع في القاهرة . يقول في أوله « ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب ، وما تضمنه من لباب اللباب ؛ لأن كلام الأولياء والعلماء بالله : منطو على أسرار مصونة وجواهر حكم مكنونة لا يكشفها إلا هم » .

⁽٣) في التيمورية سنة خمس . وقسمين وسبع مائة .

^(؛) في التيمورية : كدية البرامل

⁽ه) في التيمورية : فطلبهها .

⁽٦) في التيمورية : القروى .

وممن علق عليه أيضاً الشيخ أبو المواهب محمد المعروف بر «ابن زغوان» قديماً ، تونسى الدار ، توطّن مصر ، وأخذ عن بيت الوفائية ، وبشر به بعضهم قبل قدومه ، ولقبه بره أبى المواهب » وكان حسن الأخلاق متجملا جدا ، ذالسان عظيم فى كلام القوم ، يرى أن ليس فى المغاربة من يفهم الطريقة . وقد نحا بشرحه نحو شقاشق الفلاسفة ودقائقهم فالله أعلم بمراده . ولم يكمل كتابه هذا ، بل انتهى لنحو ربعه . والله أعلم .

وممن علَّق عليه أيضاً الشيخ أبو عبد الله القراً ، وصنَّف ، فما قام ، ولا قعد ، ولا كمل ، ولا ومن على الله عليه وسلم ، فامتحن ولا وصل ، وكان يدعى على مرأى (١) خارجة عن الأخبار بنبينا النبي صلى الله عليه وسلم ، فامتحن لذلك ومات مرفوضًا والعياذ بالله في سنة ثمان مائة واثنين وثمانين ، وكذا الشيخ أبو المواهب مات في هذه السنة ، وأما الرمَّاح فمات في وباء سنة ثمان مائة وسبع وثمانين عن نحو مائة سنة وزيادة.

وذكر لى أن رجلا بالشام يقال له « ابن الصابونى » علَّق عليه شيئًا مال فيه لعلم الكلام ونحوه وهى طريقة غير مفيدة ، ولا مُخْلِصَة قى ذلك . والله أُعلم .

[]] فصل : وقد كنا كتبنا عليه مراراً عديدة ، كمل منها سبعة عشر ؛ فكان الأول منها عدينة فاس سنة سبعين (٢) ، ثم سرق ، فكتبت الثانى بها وكمّلته بتونس ، ثم الثالث بتونس ثم الرابع بالقاهرة ، ثم الخامس بالمدينة المشرفة ، ثم السادس بالقاهرة أيضاً ، ثم السابع بطرابلس ، ثم الثامن بتونس أيضاً ، ثم التاسع ببجاية ، ثم العاشر والحادى عشر والثانى عشر عدينة فاس ثم الثالث عشر كذلك ، وكذلك الرابع عشر ، ثم الخامس عشر ببجاية أيضاً ، ثم السادس عشر بالقاهرة أيضاً ، ثم هذا هو السابع عشر ، وأرجو الله أن يكون نفعه عاماً ، وأن يجعله حيث ماحل ، رحمة لعباده وبركة فى بلاده ، وأن يحميه من كل جاهل يتحامل أو حاسد يعرف الحق ويتجاهل ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

⁽١) في بعض النسخ : « كان يدعي مرآى خارجة عن الإضهار في جنب النهي » .

وفى نسخ أخرى هَذه العبارة من أول قوله « وكان يدعى . . . إلى وكذا الشيخ أبو المواهب » .

وسجلت العبارة هكذا . . فما قام ولا تعدولاكمل ولا وصل . مات هو وأبو المواهب كلاهما سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ، ومات الرماح سنة سبع وثمانين وثمانمائة . . . إلخ » .

ويبدو أن مراد الكاتب أن أبا عبد الله كان يدعى ويزعم أنه تلق أشياء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست فى الأخبار والأحاديث المروية عنه فى كتب السنة .

⁽٢) يقصه : سنة سبعين و نمان مائة .

فصل : وقد اختصت هذه التعاليق بثلاث خصال : إظهار المناسبة في الكلام ، والاختصار في التقرير ، والتسهيل في البيان ، مع زيادات أخر تخص بعضها وتعمّ كلّها ، من ذلك : أن الكتاب محتو على أربعة أنواع :

التذكير ، والوعظ : وهو حظ العوام وللخواص منه نصيب .

والكلام على الأَّحكام : وهو حق المتوجهين من كل فريق ولكل طريق.

والكلام على الأحوال : وهو نصيب المريدين ، وربما كان تنبيها وتشويقا لغيرهم .

والكلام على الحقائق : وهو نصيب العارفين والمحققين .

وقد علم كل أناس مَشربهم ومايجرى به حالهم ومايليق بهم وبالله التوفيق.

فصل : وقد ذكرنا فى بعضها مقدمة تحتوى على تعريف الطريقة وماتبنى عليه (١) من حق وحقيقة وذكرنا فيها عشرة أشياء :

أحدها : أن حقيقة التصوّف ترجع لصدق التوجّه إلى الله تعالى من حيث يرضى عا يرضى الله يرضى الله يرضى الله يرضى الله على ال

الثان : أن مداره (٣) على إفراد القلب والقالب لله وحده .

الثالث : أنه من الدين بمنزلة الروح من الجسد ، والفقه جسده ؛ إذ لاظهور له إلَّا فيه ، كما كما كما لاقيام له إلَّا به .

⁽١) في التبمورية : « وما يبتني عليهما » وكلا النسختين صحيح .

⁽٢) يريد بهذا : أن التصوف مبنى أساساً وغاية على التعاليم الإلهية ، وهذا رأى جميع الصوفية الصادقين ، قال أبو الميزيد البسطامى لأحمد جلسائه : « قم بنا حتى نظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية . وكان رجلا مشهوراً بالزهد فعضينا إليه ، علما خرج من بيته و دخل المسجد رمى بيصاقه بجاه القبلة ، فاقصر ف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : « هذا غير مأمون على أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟ » .

ومن كلام أبى بزيد : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرفى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف نجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة » .

يبقول مبل التسترى معبراً عن أصول التصوف : « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، ونجنب المماسى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » . ويقول الجنيد ، سيد هذه الطريقة وإمامهم على حد تمبير القشيرى : « من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » . رقال : « علمنا هذا مشيد محديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

رقال : الطريق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتنى أثر الرسول عليه السلام واتبع سنته و لزم طريقته ٥ .

⁽٣) مدار التصوف

الرابع : أن نظر الصوفى فى وجوه الكمال والنقص ، والفقيه فيا يسقط به الحرج ، والأصولى(١) فيا يصح به الإيمان ويثبت .

الخامس ؛ أن نظر الصوفى أخص من نظر الفقيه والأُصولى ؛ فلذلك صح إنكارهما عليه ، ولا يصح إنكارهما عليه ،

السادس : إظهار شرف التصوف ودليله برهانا ونصا .

السابع : أن الفقه شرط في صحة التصوف ؛ فلذلك قدم عليه ، والعمل ليس شرط صحة ، بل كمال لايترك لأَجل فقده (٢).

الشمامن : ذكر الاصطلاح واختصاصه بكل فن على حسبه .

التاسع : مفاتيح الفتح فيه أربعة : إحكام العبادة (٣) ، وصدق الرغبة في الوصول ، والتشوف للحقائق ، وعدم التقيد بالتقول ، مع التحقيق (٤) .

العاشرة : أنه طريق غريب عجيب ، ومبناه على اتباع الأحسن أبدا ، فمن العقائد على اتباع السلف ، ومن الأحكام على الفقه ، ومن الفضائل على مذهب المحدثين ، ومن الآداب على مابه صلاح قلوبهم عزيمة أو رخصة ، مباحاً صريحاً أو شبهة ما لم تقو جدا أو تكون مائلة لجانب الظلمة ، ولذا قالوا بأشياء أنكرها عليهم من لم يعرف قصدهم ، وآثرها من دخل الطريقة بالجهل فهلك فيها فنسأل الله العافية بمنه .

فصل : ومما قدمناه أيضاً التعريف بالمؤلف والكتاب ، وإسناده الموصل للصواب ، فأما المُؤلف فهو الشيخ الإمام العالم العامل العارف المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عبدي بن الحسيني بن عطاء الله الجذامي نسبا ، المالكي مذهباً ، الاسكندري دارا ، القاهري

⁽١) الأصولى : الناظر في أصول الدين ، أي : عقائد عقائده الأساسية .

⁽۲) يقول السادة العبوفية : من دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد أراحك وأرسلك . ويقول ابن عطاء الله : من علامات الاعتماد على العمل فقدان الرجاء عند الزلل ، والعمل الذي يتحدثون عنه هو كثرة العبادة النافلة ، لا تترك ستى ولو لم ير الإنسان يارقة الوصول إلى الله ، وذلك حسبا يرى الشيخ زروق الذي يقول عن العمل إنه لا يترك لأجل فقد التصوف أي لا يترك على أية حالة ، لأنه في جميع الأحوال كمال يحمن أن يستمر .

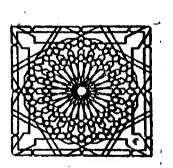
⁽٣) ف التيمودية : أحكام المبادئ .

⁽٤) يبريد أن يقول : إن التقول لا يغي من الحق شيئاً ، والتقول هو الظن ، وطريق الله لا ظن فيه ، بل كله تحقيق .

مزارا ؛ توفى بالقاهرة سنة سبعمائة وتسعة ، فى جمادى الآخرة ، وكان أُعجوبة زمانه فى التصوف وغيره . كما قيل :

حلف الزمان ليأتين عثله حنِثت عينك يازمان فكفر

وأما كتابه فقد مر تعريفه ، وأما الإسناد فقد أخبرنا به إجازة شفاها الشيخ شمس الدين السخاوى سنة ثمان مائة وستة وسيعين بداره بالقاهرة ، قال : أخبرنا به إجازة من بيت المقدس الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عمر القبابي قال : أخبرنا به في جملة كتب ابن عطاء الله شيخ الإسلام تقى الدين (۱) أبو الحسن على بن عبد الكافي السبكي عن مؤلفها ، وهي : «التنوير في إسقاط التدبير» و «لطائف المنز» ، وتاج العروس ، «ومفتاح الفلاح» ، و «القول المجرد في الإسم المفرد»



⁽۱) تولى التدريس فى المنصورية ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وكانت ا، مواقف مشهورة فى الرد على ابن تيميه خصوصاً فى زيارة تبر الذي صلى الله عليه وسلم ، وكانت شهرته وكفايته سبباً فى أن رتع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ ه ليكون قاضى القضاة فى الشام ولقد ألف عشرات الكتب و هو والد تاج الدين السبكى مؤلف طبقات شافعية .

ر من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل



** شبه المارف بالشموس ٠٠ لانها تذهب بكل ظلمة ونور ٠٠ وتكشف عن حقائق الأمور مع علوها وارتفاعها وعموم النفع بها ٠٠ واخذ كل احد منها على قدره **

قلت: الاعتاد: حصر القوة في الشيء ، وهو باعث النفس لما تريد في تحصيل المقصود منه . وعلامة حصوله إيثار المعتمد والنظر إليه في الإقبال والإدبار . والناس ثلاثة : معتمد على عمله ، وموقفه التقصير ، وغايته التشمير ، ومقامه الإسلام : لدورانه مع العمل رجاء أو خوفا ، وبساطه قوله تعالى (ولتنظر نفس ماقدمت لِغد(١)) وعلامته ماذكر في النص ، ومعتمد على فضل الله تعالى ، وموقفه شهود المنة ، وغايته التبرى من الحول والقوة ، ومقامه الإيمان ؛ لدورانه مع القدرة في إقباله وإدباره ، وبساطه قوله تعالى (وَمَابِكمْ مِنْ نِعْمة فمنَ الله ثم إذا مسكمُ الضر فإليه تجارًون (١)) وعلامته الرجوع إلى مولاه في السراء بالحمد والشكر ، وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر .

ومعتمد على سابق القسمة وماضى الحكم ، وموقفه شهود التصريف ، وغايته الفناء فى التوحيد، ومقامه الإحسان لما شهد به حاله من المشاهدة والعيان ، وبساطه قوله تعالى (قل الله ثم ذَرْهُمْ فى خوْضهم يلعبون) (٣) وعلامته الاستسلام والسكوت تحت جريان الأحكام . فلا يزيد رجاؤه لعلة ولا ينقص لسبب فلو وزنا لتعادلا فى كل حال من أحواله ، بل هو دائم البشر متواصل الأحزان، كما جاء فى صفة نبينا عليه الصلاة والسلام .

وقد قال بعض المحققين رضى الله عنهم: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى . انتهى .

وإنما كان الأمر على ماذكر ؛ لأن الاعتماد على الشيء فى حصول قصده يُوجب استشعار فواته لوجود ضده ويوجب الحرص عليه اعتبارا بقصده ، ومن مظاهر ذلك ماذكره فى التجريد والأسباب إذ قال :

⁽١) آية ١٨ من سورة الحشر .

⁽٢) آية ٣٥ من سورة النجل.

⁽٣) آية ٩١ من سورة الأنعام.

إرادتك التجريد مع إدامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية . وإرادتك الأسباب، مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية .

قلت : وإيثار كل واحد منهما بدلا من مقابله ، المقام فيه من الاعتماد عليه في حاسول مقصوده ؛ إذ لو لم يعتمد ما آثره بدلا من مقابله ، فافهم.

والناس ثلاثة : مُقام في الأسباب، ، وحكمه : الرضى والصبر والاستسلام ، وعلامت، : استقامتها له بحصول غوائدها العادية ، واستقامته فيها بالقيام بالحقوق الشرعية .

ومة ام في التجريد ، وحكمه : الشكر والتشمير وعدم الفترة والتقصير ، وعلامته : القيام بالحقوق والاعراض عن كل مخلوق . ومن خرج (١) عما هو فيه من أحدهما ، وحكمه التثبت في الامور بالانتقال للمثل (٢) حتى لا يستقيم بوجه فيصح انتقاله للمقابل والضد ؛ لأن الاقامه علامتها الاستقامة ، وتخلفها إذن في الانتقال ؛ إذ حُكم العبد أن يقيم حيث أقامه مولاه ولا يختار شيمًا غير ما به تولاه .

قال فى التنوير : والذى يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك ، حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولَّى إخراجك كما تولَّى إدخالك ، وليس الشأن أن تترك السبب ، بل الشأن أن يتركك السبب .

قال بعضهم : تركت السبب كذا كذا مرة ، فعدت إليه فتركني السبب فلم أعد إليه ، انتهى .

فترك السبب إياه عدم استقامته له أو استقامته فيه كما تقدم: والتجريد تنرك الأسباب، والسبب العمل فيما يتوصل به إلى غرض دنيوى .

والشهوة انبعاث النفس لطلب الملائيم طبعاً من حيث هو ، وإنما كانت هنا خفية لأن صورة المطلوب وهو التجريد مؤلم بظاهره إذ هو مفارقة المعتاد ومخالفة المراد لكن في طبه استعجال الراحة والشهوة والفرار من الكلفة والتكاليف .

والانحطاط النزول من علو إلى أسفل ، .

والهمة : قوة انبعاث في النفس إلى مقصود ما ، تعلو بعلوه وتسفل بتسفله . وإنما كان

⁽١) وفي نسخة : من عرج به عما هو فيه . . . » والتعبير هنا أصح .

⁽٢) أى بالانتقال مثلا من سبب إلى سبب إلى سبب حَى إذا وأى أن الأسباب لا تستقيم معه بوجه من الوجوه صح انتقال إلى التجريد .

تسبب المتجرد انحطاطا لاستبداله الراحة بالتعب ، والسلوة بالشغب وتعرضه لأسباب العطب مخالطته للاغيار ومفارقته الأنوار ، ولذلك قيل : من لم يأبق (١) من مشاركة الأضداد في الأسباب فهو خسيس الهمة .

ثم إرادة العبد لانساوى شيئاً لتوقفها على إرادة الحق ، فاشتغاله بإرادة غير ما أُقيم فيه إساعة أُدب بدون فائدة ، وبيان ذلك فما بينه المؤلف إذ قال :

سوابق الهمم لاتخرق أسوار الأُقدار

قلت : بل تدور مع القدر كيفما دار ، حسما دلت عليه العقول وقضايا الشرع والنقول ، فقد قال الله تعالى :

(وكان الله على كل شيء مقتدرا).

وقال صلى الله عليه وسلم : كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس (٢).

وأنواع الهمم ثلاثة : الهمم القواصر : وهي التي تقتضي العزم والحزم (٣) من غير فعل ولا انفعال .

والهمم المتوسطة : وهى التى توجب مع العزم فعلا ومع العزم كمالا⁽³⁾ ، سواء وقع انفعال أم لا ، والهمم السوابق^(٥)، وهى قوى النفس الفعالة^(٢) فى الرجود بلا توقف كما يكون من العائن^(٧) عن خبثة ، رمن الساحر عن عقده ونفته ، ومن المتريّض عن تحريد قوى ننسه ومن الولى عن نحققه فى يقينه ، إذ لا يتوقه الانفعال فى كل عن حركة وذلك بقضاء الله وقادره ، كما عو . وقا الله فى حق السحرة :

(وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِنِ مِن أَحَد إِلَّا بِإِذْنِ الله)(^).

أنم سبق هذه الهمم إنما هو في الرتبة باعتبار - جلالها لافي المرتبة باعتبار تقدم أزمنتها ، وجلالها بسرعة نفوذها وقوة تأثيرها وعدم احتياجها في نفوذها لسبب مُعين ، وإذا كانت مع

⁽١) في نسخة ؛ يانف ومنى يابق ؛ يفر ويهرب .

⁽٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسئده عن ابن عمر رضي الله صهما وذلك بلفظ : كل شي. بقدر حتى العجز والكيس .

 ⁽ع) وفي نسخة : ومع الجزم إقبالا .

⁽ه) خيرة أر شريرة (١) في نسخة : الفاعلة .

^{. (}٧) يقول صابعب المبتتار ٤. (عانه) من بات ياع ؛ أصابه بقينه ، فهو (عالن) ،

⁽٨) أية ١٠٣ من سورة اليقرة .

ذلك لاتخرق أسوار الأقدار فكيف بالتدبير والاختيار ، ومالا فائدة فيه : فيه تعب عاجل يتعين تركه على كل عاقل فلذلك عقب المسألة بأن قال :

أرح نفسك من التدبير

قلت : أفاد ذكره للاراحة وجود التعب في تطلب الاستراحة منه وهو التدبير ، وذلك لل تضمنه من وجود التكدير ، ومنازعته الحكم والتقدير ، فقد قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : «ذَرُوا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم» .

وقال عليه السلام: «إن الله جعل الروح والراحة في الرضا واليقين . . الحديث » .

وقال عليه السلام : «التدبير نصف العيش » قيل : فترك التدبير العيش كله ؛ لأن من لم يُدبر دُبِّر له ، وهذا وإن كان بعيدا عن السياق بالقوة ، فهو حسن في المعنى ؛ إذ التدبير تقدير شئون تكون عليها في المستقبل مما يخاف أو يرجى ، بالحكم لابالتفويض ، فإذا كان مصحوباً بالتفويض لم يكن تدبيراً عند التحقيق وإن أطلق عليه فمجاز للتقريب ، والله أعلم.

ثم ذكر ما يعين على قرك التدبير وهو النظر لسابق الحكم والتقدير فقال:

فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك

قلت ؛ لأن ذلك تكلُّف فى غير فائدة ، وعمل فى غير معمل ، وتعب فى غير حاصل ، وفى مفهوم الكلام بالقوة : إن ما وكل إلى قيامك بة لايصح أن تتركه لغيرك ، فهما إذا أمران أشار إليها إبراهيم الخواص(١) رضى الله عنه حيث قال :

العلم كله في كلمتين : لاتتكلف ماكفيت ، ولاتضيع ما استكفيت .

وقال سهل بن (٢) عبد الله رضى الله عنه ، للعباد على الله ثلاثة أشياء ؛ تكليفهم ، و آجالهم ، و القيام بأمرهم ، ولله على العباد ثلاثة أشياء : اتباع نبيه ، والتوكّلُ عليه ، والصبر على ذلك إلى الموت . انتهى .

⁽١) هو : أبو أسحق إبراهيم بن أحمد الحواص . من أقران المجتيد ، والنورى . مات بالرى سنة: إحدى وتسعين ومائتين هجرية .

 ⁽۲) هو : أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم ، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وكان يسأله السائلون عن دقائق الزهد والورع والفقه وهو ابن عشر فيحسن الإجابة . له كتاب في تفسير القرآن الكريم . توفي سنة ثلاث و عانين بر الحجرة .

وبه يتفسر قوله : ماقام به غيرك عنك وما وُكل إلى قيامك به ومعنى كون الأولى على الله : هو أنه لاسبب للعبد فيها ، إذ لايجب عليه تعالى شيء : ومعنى كون الثانية على العباد هو أنهم مأمورون بها ، فمن لم يتبع فمبتدع ، ومن لم يتوكّل فهو مُدبر ، ومن لم يصبر فمنازع ، ومن قام بكلّ فى محله كان سالم البصيرة ، منوّز السريرة ، وإلا فعلى العكس ، كمّا نبه عليه المؤلف وبينه بأن قال :

اجتهادك فيا ضمن لك وتقصيرك فيا طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك

قلت : لأَنك أتيت بالشيء على غير وجهه ووضعته فى غير محله ؛ إذ عكست ماحقك أن لاتعكسه ، فتركت ما أمرت بالقيام به وقمت بما كفيت أمره وهو المضمون .

قال فى التنوير : فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك فيما طلب منك ، حتى قال بعضهم : إن الله ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا ، انتهى .

وعبر بالاجتهاد لأن الطلب دونه لايقدح بل ربما كان مطلوباً ، بالضان ليشعر بسبق القسمة وبالتقصير لأن الترك أعظم ، وبالطلب ليشمل الواجب والمندوب . ولو كان بدل الاجتهاد استغراقا ، وبدل التقصير تركاً لكان بدل الطمس عمى لأن الدنيا كنهر طالوت لاينجو منه شارب إلا من اغترف غرفة بيده . والبصيره : ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر العين .

ثم علامة الاجتهاد في المضمون ثلاثة :التأسف (١) على الفائت، وفقد التقوى في التحصيل، والغفلة عن الحقوق المتأكدة في التسبب . وعلامة العكس ثلاثة : الرضا بالواقع ، والتقوى في الطلب ، وحفظ الآداب في الأسباب ، ومن الاجتهاد في المضمون : اليأس من العطاء عند تأخر إجابة الدعاء فلذلك اتبعه المؤلف ناهيا عنه ، فقال :

لايكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء مُوجبا ليأسك.

قلت: الإلحاح: التكرر (٢) في الدعاء لحاجة من وجه واحد على سبيل الطلب ، وهو مطلوب في الدعاء ، والإجابة مضمونة بمطلق الدعاء فإذا قمت بما طلب منك من الدعاء والإلحاح فيه فلا تيأس من الإجابة ، لأن يأسك ناشيءٌ عن رؤية السببية بدعائك واجتهادك في حاجتك:

⁽١) في النسخة : التلهف على الفائدة .

⁽٢) وفي تسمخة ؛ التكرار في طلب الحاجة من وجه واحد .

إذ صرفك فأخرها عن باب مولاك ، فقصّرت في المطلوب بالدعاء الذي هو إظهار الفاقة ودوام الحضور بالمناجاة ، فافهم .

وانناس ثلاثة : رجل قصد مولاه بالتفويض فحصل له الرضا عنه ودوام التعلق به فى الوجود والعدم ، فهذا لاينصرف لطول تأخر ولا لغيره ، ورجل وقف بباب مولاه واثقا بوعده وناظرا لحكمه فهو يرجع على نفسه برؤية التقصير وفقد الشروط عند التأخر فيؤديه ذلك إلى اليشس تارة وإلى الرجاء أخرى وإن تيسر مراده عظمت الشريعة فى قلبه . ورجل وقف بالباب مصحوبا بالعلل منوطاً بالتعذر (١) ملفوفاً (١) بالغفلة طالباً للغرض دون تعريج على حكم ولاحكمة ، وهذا ورعا تشكك فى الوعد أو وقع فى الحيرة أو دان باليأس لالسبب ، نسأل الله العافية . وقد قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : «من لم يكن فى دعائه تاركاً لاختياره راضيا باختيار الحق تعلى له فهو مستدرج ، وهو ممن قيل فيه : اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته ، فإن كان مع اختيار الله تعلى لامع اختياره لنفسه كان مجاباً وإن لم يعط والأعمال بخوانها ، انتهى . وإنما ينفى (٣) الجهل المؤدى لليأس بالعلم باتساع الوعد وأن وقوعه غير محصور .

فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لافيما تختار لنفسك وفى الوقت الذي يريد لاف الوقت الذي تريد .

قلت : وذلك كله مضمَّن فى قوله تعالى (ادْعُونِى أَسْتجبْ لكم (٤) فضمن الإجابة بوعده، وجعلها مطلقة إذ لم يقل بعين ماطلبتم ، ولا متى شئتم ، ولا كيف شئتم ، وأكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

مامن داع إلا وهو يين إحدى ثلاث : إما أن تعجل له طلبته ، أو يؤخر له ثوامها ، أو يصرف عنه من السوء عثلها(٥)

⁽١) أي متعلقاً ياعتذار لنفسه والاحتجاج لها ه وفي نسخة : متورطاً بالتغرر . .

⁽٢) وفي نسخة : مكفوفا بالغفلة .

⁽٣) و إنما ينتي في نسخة ، وفي أخرى : فانما ينتي . `

 ^(؛) من أية ٦٠ من سورة فاقر .

⁽ه) روى الإمام أحمد باسناد جيد ، والحاكم وقال صحيح الإسناد: عن أبي سعيد الخدرى وضي الله عند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من مسلم يدعو يدعوة ، ليس فيها إنم و لا قطيعة رحم ، إلا أعطاء الله بها إحدى الدث : إما أن يعجل له دعوقه ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا : إذن نكثر ، قال ؛ الله أكثر . وقد وردت أحاديث أخرى بهذا المعنى .

وقال عليه السلام: يستجاب لأحدكم مالم يعجّل ، يقول دعوت فلم يستجب لى (١) ، وروى أنه كان بين إجابة موسى وهارون عليهما السلام بقوله تعالى (قد أجيبت دعوتكما) أربدون سنة ، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى (٢) رضى الله عنه في قوله تعالى (فاستقيما) أى : على عدم الاستعجال (ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) أى الذين يستعجلون في الدعاء.

وإنما جعل الإجابة فيما اختاره تعالى عيناً ووقتاً لوجوه ثلاثة : أحدها : رفقاً بعبده وعناية لأنه كريم رحيم عليم ، والكريم إذا سأله من يعز عليه أعطاه أفضل ما علمه له ، والعبد جاهل بالصلاح والأصلح ؛ فقد يحب الشيء وهو شر له ، ويكره الشيء وهو خير له ، فافهم.

الثانى : لأن ذلك أبتى لأحكام العبودية فى نظر العبد وأقوى فى ظهور سطوة الربوبية إذ لو دائت الإجابة بالدعاء على وفق المراد ضمنا لكان نفس دعائه تحكماً على الله وذلك باطل . فافهم .

الثالث : لأن الدعاء عبودية سرّها إظهار الفاقة ، ولو كانت الإجابة بعين المراد حتما لما صحت فاقة في عين الطلب ، فبطل سرّ التكليف به ومعنى الاضطرار المطلوب فيه ، فافهم .

وقد قال بعضهم : فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه ، وإلّا فالرب يفعل مايشاء . انتهى . ثم ذكر مسأَلة هي أَبلغ من التي قبلها في نفي اليأس والثقة بالوعد وإن تعين الزمان فقال : لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه .

قلت : التشكك : التردد بين إيقاع الشك ونفيه لاضطراب النفس في موجبه ، بحيث يقول الوعد صدق والزمان متعين والموعود مفقود فيتحير في ذلك ويشك ، وهذا من ضيق المعرفة، والوقوف مع ظاهر الوعد دون نظر إلى باطن الأوصاف ؛ إذ لو اتسعت دائرته علم أن ظاهر الوعد لا يقضى على باطن الصفة فجزم بالوعد وراعى باطن الوصف بتقدير تعلق الأمر بشرط ستره

⁽١) رواه الشيخان وغيرهما .

⁽٢) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار ينهى نسبه إلى سيدناا لحسنبن على بن أبي طالب رضى الله عهم أجمعين . ولا ببلاد المغرب سنة ٩٢ ه ه بقرية «عمارة» وأخذ يدرس بها العلوم الدينية ، وتنقلت به الرحلات من قطر إلى قطر إلى أن أستقر في مصر ، يقول ابن عطاء الله عنه : لم يختلف في قطبانيته ذو قلب مستثير ولا عارف بسير » . ويقول تني الدين محمد بن على « ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذل » رضى الله عنه . وتوفى رضى الله عنه في شهر شوال سنة ١٥٦ ه . وكان من آخر ما أوصى به حزب البحر . وقال لمريديه حفظوه لأولادكم فإن فيه اسم الله الأسطم .

ويرجع في حياته بالتفصيل إلى كتاب (المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي) تأليف الدكتور عبد الحليم محمود .

الحق عنه ؛ إذ لايجب عليه بيان ما يريد اشتراطه ، بل يصح في الحكمة ستره إبقاء لسمو⁽¹⁾ الربوبية في نظر العبد واستبقاء ⁽¹⁾ لأحكام العبودية عليه ، فقد وعد الحق سبحانه نبيه عليه السلام بالنصر في «أحد» و «الأحزاب» ، ودخول مكة وستر شرط ذلك وهو الذلة التي اقتضت حكمته ترتب النصر عليها دائماً حتى أظهرها في معرض المنة والتنبيه إذ قال عز من قائل (واقد نصر كم الله ببدر وأنتم أذلة) وقال عز وعلا (ويوم حُنيْن إذ أعْجبتكم كثرتكُم ((1)). الاية وقال عليه السلام لابن عباس في وصيته : واعلم أن النصر مع اللل ، وهو سر الإضطرار المشروط في الإجابة بعين المقصد ((3)) ، إذ قال (ويكشف السّوء ويَجعلكُم خلفاء الأرْضِ) ((0) فافهم . وإنما ذكر تعيين الزمان مبالغة ، أو في حق من يصح التعيين ((1)) في حقه ، ثم ذكر علّة نهيه عن التشكك «لما ذكر كيف ذكر)(()) فقال :

لئتلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك .

قلت : أما كونه قدحاً في البصيرة فلرؤيتها الأمر على غير الوجه المطلوب فيه ، من النظر لاتساع العلم ، واعتياد ذلك حتى تقوى دائرة الوهم فينتني التحقق ، وأما كونه إخماداً لنور السريرة فلأن نور السريرة مستفاد من اتساع النظر . والوقوف مع ظاهر الوعد مناف لذلك . والبصيرة كالبصر أدنى شيء يقع فيه يمنع النظر ويشوش الفكر وإن كان لايفضى إلى العمى فالمخطرة من الشر تشوش النظر وتكدر الفكر والإرادة تذهب بالخير رأسا ، والعمل به يذهب عن ماحبه سهماً من الإسلام فيا هو فيه ويأتى بضده ، فإن استمر على الشر تفلت منه الإسلام سهماً صاحبه سهماً ، فإذا انتهى إلى الوقيعة في الأثمة وموالاة الظلمة حبا في الجاه والمنزلة ، وحباً للدنيا على الآخرة فقد تفلت منه الإسلام كله ، ولا يغرنك ماتوسم به ظاهرا فإنه لاروح له ، وروح

⁽١) في نسخة : لسطوة .

⁽٢) وفي نسخة : واستيفاء .

⁽٣) التوبة : ٢٥ والآية الكريمة : لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تنن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

⁽٤) وفي نسخة : بعين القصد .

⁽٥) والآية الكريمة تبتدى. بقوله تعالى : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . . . فنبهت على الاضطرار مقصوداً بعينه .

⁽٦) وفي نسخة : من يصلح اليقين في حقه .

⁽٧) لعل ما بين الأقواس زيادة من الناسخ ، والمعنى على كل حال يستقيم بدونه .

الإسلام حب الله ورسوله وحب الخيرة وحب الصالحين من عباده . وقال بعضهم : ادفع (١) ردى الإسلام حب الله ورسوله وحب الخيرة وحب الصالحين من عباده . وقال بعضهم : الفرا أن يتمكن الهم (٢) لثلا يصيبك . وقيل : أول الذنب الخطرة كما أن أول السيل القطرة . وكما وجب أن لايتوهم (٣) في فعله بل يظن به الجميل في هذا كله . وهذا ماتوجه له المؤلف وذكره بأن قال :

إذا فتح لك وجهةً من التعرف فلا تبال معها أن قل عملك.

قلت : بل حقّك أن تفرح بها لما تضمنته من التعرف الموجّه فيها الذى لايكاد يتحصل بغيرها ، ثم وجهة التعريف هى ما يعرفك بجلالة مولاك وحقارة نفسك ، وتعرف بها اللينا وما فيها ، والخلق بحقيقة ماهم عليه على وجه ينطبع في سويداء قلبك انطباعاً ينصبغ به حتى يكون الإقدام والإحجام على حكمه دون توقف ، وليس ذلك إلّا لأمور قهرية وغاية أمرها أنها مانعة من إكثار العمل ، فإذا قلّ لأجلها وجب أن لا تبالى ؛ لأن الذي أمرك هو الذي قهرك ، والكل منه وإليه ، فكما وجب امتثال أمره وجب الاستسلام لقهره ، وإنما على العبد أن لا يعزم على محظور ولا يفرط في مأمور فإن قصر به الحال فلا يبالى ، وبذلك جرى أمر السّنة ، ألا تراه عليه السلام في حديث الوادي حيث ناموا عن الصلاة بعد توكيل بلال الذي شأنه عدم النوم في ذلك الوقت ، قال : «لن تراعوا إن الله قبض أرواحنا» ، فأحالهم على القدر ، لمّا لم يتنبهوا(ف).

ولمّا سأَل عليا وفاطمة : مالكما لم تصليا الليل؟ أَجابه على بأَن الله قبض أَرواحنا ، فضرب فخذه وقال : وكان الانسان أكثر شيء جدلا . قال علماؤنا : وإنما كان هذا جدلا لأَنهم تسببوا بوجود الجنابة وأَجابوا بالقدر في محل السبب(٥) ، وإنما حملهم على ذلك وجود الحياء. فافهم .

. .

ثم قال :

فإنه ما فتمحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك . قلت : وذلك مشاهد من حالها إذ لم تأت إلا بالتعريف وهو بساط المعرفة التي لاتصل (٦)

إليها إلابه والاتبلغها إلَّا بمنَّته قال:

⁽۱) في نسخة ارقع رداء الحواطر (۲) الحم بالشر (۳) وفي نسخة « يتهم » .

⁽٤) وفي نسخة : لما لم يتسببوا .

⁽٦) لا تعمل إلى المعرفة إلا بالله .

ألم تعلم أن التعريف هو مورده عليك .

قلت : يقول أليس في علمك أن التعريف من عنده ، وهو أورده والوجهة بساطه فإذا وجهها الله فقد وجّه الله التعريف الذي تتضمنه وبه تصل المعرفة التي (هي) غاية المطالب ونهاية الأمال والمآرب .

والأعمال أنت مهدمها إليه لتنقرب وتنال مما لديه وأين ماتهديه إليه من أفعالك المدخولة وصفائك الذاقصة المعلولة مماهو مورده عليك .

من معارفه الجليلة وأفعاله الجميلة وعطاياه الجزيلة ، بينهما فى الحكم ما بينكما فى الوصف : رب وعبد ، كيف يشتبهان (أفمن يخلق كمن لايخلق أفلًا نذكرون)(١) وفى تلك الحكاية مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من (قلة) المعرفة بالكريم المتفضل وفى الحكاية الأخرى ، فشتان بين مافعله بك لتنجو وبين فعلك لتنجو .

قلت : فعلك يحتاج إلى التخليص والإخلاص ، وفعله بك لا يلحقه شرك ولاانتقاص ، ويرحم الله وخير النساج»(٢) حيث قال : «ميراث أعمالك مايليق بأفعالك ، فاطلب ميراث فضله وكرمه فهو أولى بك» . انتهى ثم أخذ المؤلف فى تقوية ماطلبه من عدم المبالاة فقال :

تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال.

قلت : التنوع - التلون ، والاعمال : عبارة عن الحركات الجسمانية ، والأحوال : عبارة عن الحركات القلبية ، فحركات الأجسام تبع لأحوال القلوب ، وإذا كانت كذلك فينبغى ألّا تبائى بفقد الفرع لوجود أصله عند تعذر الفرع ، هذا مقتضى ما فى التنبيه .

والذى أفهمه أن الأعمال عبارة عن الحركات الجسمانية والقلبية ، والأحوال عبارة عن التقلبات إلى الوجودية كالغنى والفقر ، والعز والدل ، والعافية والبلية . . إلى غير ذلك مما ترتب عليه الأحكام فتختلف باختلافه فلكل حال عمل يخصه ويختص به ، فيكون عوضاً عن مقابله ، فما فات مثلا في الشكر على العافية استدرك بالصبر على البلية ، وبالعكس ، وما نقص من الأعمال البدنية إن تحصل بالأعمال القلبية ؛ ولذلك قال الفاروق رضى الله عنه : «الصبر والشكر مطيتان ما باليت

⁽١) آية ١٧ من سورة النحل .

 ⁽۲) هو : محمد بن إسماعيل ، من أهل « سامرة » ثم سكن بغداد . وصحب أبا حمزة البغدادى ، وكان من أقران أبي الحسن التووى ، وعمر همراً طويلاً حتى عاش – كما قيل – مائة وعشرين سنة . انظر كتاب « الرسالة القشيرية » ج ۱ ,

أسهما أركب». وأثنى الحق سبحانه وتعالى على الصابر والشاكر ثناءً واحداً فقال عز من قائل فى كل من سلمان وأبّوب (نعْمَ العبْدُ إِنه أَواب)(١).

ولما خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً قال : بارب أجوع بوماً وأشبع يوماً ، فإذا جعت نضرعت إليك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك ، فلم يُؤثر واحداً منهما على الآخر ، بل نظر إلى العبودية في الجميع ، لأنها المقصود ، وبالله التوفيق .

ثم كمال الأعمال إنما هو بالإخلاص وهو قلبي ، وذلك يقتضى عدم المبالاة بها إذا عدمت لأجله ، وهو ما أشار إليه المؤلف إذقال :

الأعمال صُور قائمة وأرواحُها وجودُ سر الاخلاص فيها.

قلت : ولا عبرة بصورة لا روح فيها ، كما أنه لا قيام لروح دون صورتها . ويحتمل قوله «سر الاخلاص » أن يكون من إضافة الشيء إلى نفسه ؛ فالمراد : السر الذي هو الاخلاص ، ويحتمل أن يكون ما هو أخص منه ، وهو الصدق المعبر عنه بالتبرى من الحول والقوة ، وكلاهما ويحتمل أن يكون ما هو أخص منه ، وهو الصدق المعبر ، وكلاهما لا كمال للعمل إلّا به ، فلذلك مطلوب : الاخلاص لذي الرياء ، والصدق لذي العجب ، وكلاهما لا كمال للعمل إلّا به ، فلذلك قال بعص المشايخ رحمه الله «صحح عملك بالاخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة» .

قال الشيخ أبوطالب المكى رضى الله عنه: والاخلاص عند المخلصين (٢) إخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس . والاخلاص عند المحبين أنلايعمل عملا لأجل النفس (٣) وإلا دخل عليه مطالعة (٤) عوض أو ميل إلى حظ النفس . والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من معاملة (٥) الحق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون إليهم والاسنراحة بهم في الأحوال، انتهى .

وكما أن الاخلاص حصن الأعمال فالخمول حصن الإخلاص ، وهو طرح النفس فيا يليق بها من النقص والدناءة ، وبحسب هذا فهو دفن لها ، كما نبّه عليه إذ قال :

⁽١) من آية ٤٤ من سورة ص.

⁽٢) في تسخة : عند المحققين .

⁽٣) وفي تسخة : وأن لا تدخل على مطالعة غرض .

⁽٤) تحتلف هذا النسخ بين ; مطالبة موض ، ومطالعة غرض ، ومطالعة عوض ، وكلها مثقاربة المعنى .

⁽٥) وفى نسخة ؛ خروج الحلق من النظر إليهم فى الأفعال وعدم . . . وفى نسخة ؛ إخراج بدل خروج .

ادمن وجودك في أرض الخمول.

قلت : يقول : غيب ماتذكر به من علم وعمل وحال وغيره فيما ينفى عنك شهوة الرفعة عن عيوبك الاصلية والفرعية والعارضة . والناس ثلاثة : رجل غلب عليه التحقيق فغاب عن رفعته برؤيته نقصه فى الأصل ، إعتباراً بأن الكمال كله للحق سبحانه وتعالى ، وأن العبد لايليق به من حيث ذاته إلا النقص ، فرجع بالكل لمولاه عملا بقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى مِنكم مِنْ أحد أبدا)(١).

الثانى : رجل ساعده التوفيق فغاب عن محاسن نفسه بعيوبها المنطوية فيها ، بحيث شاهد محاسنه مساوى، ورأى حقائقه دعاوى ، فسقطت نفسه من عينه بوجه لايرجع فيه لنظر غيره.

الثالث: رجل اتسعت عليه نفسه فغلبه الوهم عن الفهم حتى رأى حظها وشاهد لحظها فاحتاج لنفى ذلك بما ينافيه من مباح مستبشع أو مكروه لم يمنع دفعا لدعواها وفراراً من بلواها ، لاتستراً من الخلق ، لأن التستر منهم تعظيم لهم ، وهو يكر على أصله بالنقص . وقد قال الشيخ أبو العباس (٢) المرسى رضى الله عنه : من أراد الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أراد الحفاء فهو عبد الخفاء ، وعبد الله سواء عليه أظهره أو أخفاه . انتهى .

شم أبان المؤلف عن فائدة الدفن المذكورة فقال :

فما نبت مماً لم يدفن لا يتم نتاجُهُ .

قلت : هذا هو المشاهد في الزرع وما في معناه فإنه لاينتج منه إلّا ما دفن ، وما لم يدفن لاينبت ، وإن نبت فلاينتج وإن أنتج فلايتم نتاجه وإن ظهر نوره وابتهاجُه ؛ وكذا ما ظهر من الأَعمال وما بطن منها فالتغير هوى (٣) مسرع لكل ظاهر حسا في الحسيات ومعنى في المعنويات

⁽١) آية ٢١ من سورة النوو

⁽٢) هو العارف بالله الشيخ ثهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر . ويتصل نسبه بالصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج . وقد ولد في بلدة من بلاد الأندلس هي ٥ مرسية ٥ سنة ٢١٦ هـ . ولما بلغ من العمر ٢٤ عاما ذهب مع والده ووالدته وأخيه إلى الحبح فلما كانوا بالقرب من شاطئ ه بونه ٥ غرقت بهم السفينة ونجاه الله ونجى معه أخاه فقصد تونس واتصل هناك بأبي الحسن الشاذلي ولازمه ملازمة تامة ورافقه إلى مصر ورشحه أبو الحسن الشاذلي للخلافة في أثناء حياته . فلما أنتقل أبو الحسن إلى الدار الآخيرة كان أبو العباس هو الحليفة بعده واستمر يدعو إلى الله إلى أن أختاره الله لجواره في الخامس والعشرين من في القعدة سنة ٢٥٥ هـ . (انفر كتاب العارف بالله أبو العباس المرسي تأليف الدكتور عبد الحليم محمود . سلسلة أعلام العرب مايو سنة ١٩٦٩) .

ولذلك أشار شيخنا أبو العباس أحمد بن عقبة الحضرى (١) حيث أنشد _ لا أدرى له أو لغيره _ فقال :

عش خامل الذكر بين الناس وارض به فذاك أسلم للدنيا وللدين من عاشر الناس لم نسلم ديانته ولم يزل بين تحريك وتسكين

وكما لايصح دفن الزرع فى أرض رديئة لايصح الخمول بحالة غير مرضية ، وهو ماكان محرماً متفقاً عليه ، لأن ماكان ظلمة بالذات لايصح أن يكون نوراً بالعرض ، فقياس الخمول بالمحرم بمن غص بلقمة لا يجد لها مساعاً إلّا بجرعة خمر لا يصح : لأن المحرم لايباح لنهى مكروه ، وقوله إن هذا (٢) نقوية حياة فانية وذلك (٣) حياة باقية مردود (٤) ، فإن ذلك (٥) معين على قتل نفسه : فالحياة الباقية تفوته بفعله ، والأخرى إنما يفوته كما لها (٢) ، فافهم .

ثم إن الموصل للاخلاص وتحقيق الخمول إنما هو العلم الوافى عن الفكر الصافى ، ومقدمته إنما هى العُزلة ثم الخلوة فلذلك اتبعها به فقال :

ما ينفع القلب شيء مثل عزلةبدخل بها مبدان فكرة .

قلت ؛ لأنه بالعزلة يسلم من الأغيار وبالفكرة يستجلى الأنوار ، وكل عزلة لاتصحبها فكرة فإلى المحتق (٧) مآلها ، والفكرة لاتصح بدون العزلة ؛ فالعزلة منزل الفكرة ، «وفى بيته يُؤتى الحكم» ، شم العزلة بالانفراد بالحال حقيقة ، وبالانفراد بالشخص مجاز . والله أعلم .

والناس ثلاثة : منفرد بقلبه لابشخصه ، وهذا كائن بائن ، راحل قاطن ، وحاله حال الأقوياء وأهل الكمال . (^) ومنفرد بالشخص دون القلب ، وهذا سالم إن توفرت شروطه ، متعرض

⁽۱) يقول عنه صاحب طبقات الشاذلية : «حجة الهارفين وشبيخ الواصلين ، إمام الإرشاد وشبيخ العباد والرهاد القطب المفوث المتصرف صاحب الدائرة الكبرى إمام الأتمة وغوث الأمة الولى الكبير والعالم الشهير سيدى تاج الدين أبو الغباس أحمد بن عقبة الحضرى الهي الشاذل الوقائى . . . مولده – رضى الله عنه ببلاد «حضر موت » وقدم مصر فاستوطنها وأخذ العهد بها على شيخه و مرتبة الشريف ابى السادات يحيى القادرى بن وفا وفتح عليه فأقبلت الناس إليه وتبركوا بالجلوس بين يديه . وتوفى رضى الله عنه بمصر بمد الباعانة ودفن بالقرافة الشاذلية الكبرى » .

⁽٢) الضمير يرجم إلى من شرب جرعة من خمر إزالة الغصة .

 ⁽٣) من اتخا إلى الحمول وسيلة محرمة كالمنحرفين من الملامنية .

⁽٤) ي نول من قال ذلك مردود .

 ⁽a) ممل المحرم كوسيلة للخمول .

⁽٦) الحياة بدون أن يدفن نفسه في أرض الحمول .

⁽٧) وق نسخة ؛ الحمق .

⁽٨) وهولاء هم اللين يقال عنهم ، خلونهم في جلونهم ، فيكونون مع الناس في الظاهر رمع الله في الباطن ,

لنفحات الرحمة فى ذلك وإن كان لاعبرة فيه فى الحال (١) ومنفرد بهما وهو المتخلّى (٢) وأنواعه ثلاثة : معتزل ليسلم ، ومعتزل ليغنم ، ومعتزل لينعم ، فشرط الأول بعد علم حاله القيام بواجبات وقته وسلامة الناس من سوء ظنه ، وشرط الثانى التحفظ فى السنة مع الجد فى العمل ، وشرط الثالث تحقيق الأحوال والتبرى من المقال . والله أعلم .

والميدان في الأصل: المجال للخيل ، فشبّه جولان الخيل في ميادينها بجولان الفكر في مجاريه ، ومجارى الفكر أربعة : وجود الأكوان لتحقيق مادلت عليه والتحقق به «فينني ويشبت» (٣) ووجود الشهوات المانعة من المقصد حتى ترجع فلا تعوق (٤) . ووقوع الغفلات الصارفة عن المراد حتى تنتني فلا تدفع عن بساط الحق ، وحصول الهفوات في التصرف حتى لاتصرف عن الفهم . وأول ذلك أن بعلم أن الأربعة حائلة دون المقصود وقاطعة دونه على مراتبها . وهذا ما توجه المؤلف لبيانه فقال :

كيف يُشرق قلب صُورُ الأكوان منطبعة في مِرآته .

قلت: حتى منعه انطباعها عن شهود (٥) تجلياته وذلك على ثلاثة أوجه: الأول: انطباع وجودها من حيث النفع والضر وذلك يوجب (٦) الاعتماد عليها والاستناد إليها. الثانى: انطباعها من حيث الجمال الاستحسان الموجب للحب، وذلك يقتضى العبودية لها. الثالث: انطباعها من حيث الشهوة وذلك يقتضى الغفلة بها.

ومعنى انطباعها فى مرآة القلب ارتسامها فيه على وجه لايقبل غيرها . وسور الأكوان : أعيان الموجودات ، ومرآة القلب : بصيرتُه ، وإنما لايشرق القلب مع ماذكر الآن القلب ليس له إلا وجه واحد إذا توجه لشىء انقطع عما سواه . وعلامة انطباع الكون فى المرآة إيثاره من غير توقف . والميل إليه ولو مع التعلل وشغل النفس بالأغراض والعوارض ردا وقبولا وهذا دليل الشهوة وهى من موانع النهوض كما قال :

أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته .

⁽١) أي في الوقت .

⁽٢) وفي نسخة : المختل . (٣) هذه العبارة ساقطة في بعض النسخ .

⁽٤) وفى بعض النسخ : عن المقصود حتى تدقع فلا تفوت .

⁽⁹⁾ وفي نسخة ؛ من رجود . (٦) وفي نسخة ؛ بوجود .

قلت: كلما أراد النهوض أخلدته (١) ، وإن نهض له أمسكته عن السير ، وإن سار منعته من الاسراع ، وإن أسرع لببطته في الطريق ، فكلما اجتمعت له رغبة بكرة فرقتها جنود الشهوة عنية ، فلا يصبح رحيله عن عوالم طبعه إلى بساط الحق وإن أشركه نوره حتى رأى الحقيقة وعرف الحق ، ولكونها منبطة مانعة من الاسراع في انسير لزم تركها لذوى الارادة لالذاتها إن كان حكمها الاباحة ، ومن هنا قالوا : لذع الزنابير على الأجسام المقرحة أيسر من لذغ الشهوات على القلوب المتوجهة . وبذكر أن الله نعالى أوحى إلى داود عليه السلام : «أن حذر قومك كل لشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنى » . انتهى .

ثم الشهوات داعية الغفلة ، وقد تكون (٢) بدونها ، وهي مانعة بعد المرحلة من الدخول كما قال: أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته .

قلت : حضرة الله دائرة ولايته ومقام اختصاصه بخواص عباده ، وهو مقام مطهر لايدخله إلا مطهر من جنابة الغفلة ، كما لايدخل المسجد إلا طاهر منها ، بل سر وجوب الطهارة من الجنابة الحسيه ؛ ليكون العبد لمولاه بالكل كما كان لنفسه بالكل ، وليشمله الحضور بالغسل كما شملته الغيبة باللذة وجوداً وقصداً ، والتطهر من هذه الجنابة المعنوية يكون بالطهارة المعنوية : الذكر والفكر . وهما عبارة عن الغيب المذكور في قول القائل :

تطهر عاء الغيب إن كنت ذا سر وإلَّا تيمَّم بالصعيد أو الصخر

والصعيد إشارة للعبادة لأن أثرها يظهر على وجه العبد كالتراب عند استعماله ، والصخر إشارة للزهد والتبرى لأنه لايظهر أثره ، وهما بدل من الأصل فطهارتهما بالعرض لابالأصل تم قال :

وقدم إماماً كنت أنت إمامَه .

يعنى اتبع الشرع لأنه إمام كنت أنت إمامه في إثباته حتى إذا أثبتًه وجب عزلك باتباعك (٤) . فافهم ثم قال :

وصل صلاة الظهر في أول العصر .

⁽١) أخلدته : أي مالت به إلى الأرض . يقال ؛ أخلد الرجل بالمكان وإلى المكان دام فيه وبقي .

⁽٢) قد تكون النفلات بدوى الشهوات .

^(؛) وفى نسخة : وجب عزلك باتباعه .

⁽٣) والأصل هو ۽ الذكر والفكر .

يعنى : اجمع ظهر الشريعة بعصر الحقيقة (١) لتجد في سيرك ، ولتقف بعرفات المعرفة . وبالله التوفيق .

ثم من لوازم الغفلة وجود الهفوة ، وهو الوقوع في الزلل من غير قصد ، وهي مانعة من فهم الأُسرار بعد دخول الحضرة لوجود الران الناشيء عنها . وهذا ما نبُّه عليه المؤلف إذ قال :

أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأُسرار وهو لم يثب من هفواته.

قلت : التي غمره رانها فأعمى قلبه عن مفهوماته . قال تعالى (كلُّا بل ران علَى قلوبهم ما كانوا يكسبُون (٢) وقال تعالى : (واتقوا الله ويُعلمكم الله)(٣) فجعل التقوى بساط العلم . قال أبو سلمان الداراني رضي الله عنه (٤): « إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى إليها عالم علما». فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فصدقه وذكر الحديث : «من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم ٥٥٠).

وفى وصية مالك للشافعي ــ رحمهما الله ــ «اتـق الله ولا تـطفيْء هذا النـور الذي آتـاك الله بالمعاصي ، وأنشدوا في ذلك المعي :

> وما رمت الدخول عليه حتى حللت محلة العبد الذليسل وأغضيت الجفون على قذاها وصُنت النفس عن قال وقيل

وإنما تنتنى هذه الأربع بشهود الحق سبحانه ، فمن شهده في الأكوان فاعلا ومدبراً نسيها به فلم تنطيع في مرآته ، ومن شهده عندها قائماً لها بما يجب وقائماً عليها بما يجب لم يتعلق بشهواته، " • قبلها مقدراً لها ومخصصاً لم يتعلق بغفلاته ، ومن شهده بعدها رجع منها إليه فتاب ه ومن شهد الكون كلَّه ظلمة وأن الحق هو الذي أناره فقد فتحت له أبواب تجلياته،

⁽١) ظهر الشريعة هو ازدهارها ويلوغ أوجها فاذا بلغ الإنسان في الشريعة مرحلة السنام التي هبر عها بالظهر أسلمته إلى الحقيقة ونهاية أو انالظهر هو أول أران العصر .

⁽٢) آية ١٤ من سورة المطففين . (٣) من آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

⁽٤) هو : أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدار انى . من أهل « دار ان » قرية من قرى دمشق . كان من كبار الزهاد المتصوفين . توفى سنة ٢١٥ هـ) (٨٣٠ م) انظر : طبقات الصوفية ، ووقيات الأعيان . والمجزء الثانى من كتاب الأعلام للزركلي ص ٤٨٤ ، - التُّهُ. ية الجزء الأول ص ٨٦ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف .

الحلية من حديث أنس باسناد ضعيف و لكن شو اهد الشرع و تجارب الصالحين تويده .

لأنه بصير بقلب مغرد (١) فيه توحيد مجرد . وقد قبل للجنيد رحمة الله (٢) : «كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى ؟ : (قال) بنوبة تزيل الإصرار ، وخوف يزيل التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة النفس بقربها من الأَجل ، وبعدها من الأَمل . قبل له : فها يصل العهد إلى هذا ؟ قال : بقلب مغرد ، فيه توحيد مجرد » . انتهى

وهذه الأربع المذكورة هي التي تنفى الأربع التي ذكرها المؤلف ، وأصلها الأُخيره وأصل ذلك النظر إلى الوجود بعين العدم والظلمة ، كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

الكون كله ظلمة .

قلت : والظلمة لاتهدى إلى شيء بل تكف عنه ، فوجب رفضه فضلا عن أن ينطبع فى مرآة القلب وبذلك ينتبى الاعتماد على العمل (٣) وغيره ، وإنما كان ظلمة لأنه عدم فى جميع أحواله : في الماضى بحقيقة حاله ، وفى الحال بعدم استقلاله ، وفى المستقبل على حكم ذلك : فإن كان باقياً فله حكم الماضى ، ثم ما هو به فى الوجود الذى هو نوره إنما هو من الحق سبحانه كما بينه إذ قال :

i

وإيما أناره ظهور الحق فيه .

قلت ؛ أناره بالوجود الجائز بدلا من العدم المجوّز فظهر فيه بعلمه من حيث إتقانه ، وإرادته من حيث تخصيصه ، وقدرته من حيث إبرازه ظهور دلالة وتعريف ، لاظهور حلول وتكييف ، فعرفت به ذاته وصفاته وأساؤه إذ هو فعله ، وبهذا يفهم قوله تعلى (الله نور السموات والأرض) وأن الكون مشكاة فيها زجاجة الأفعال الجامعة لزيت النسب المعتصر من زيتونة الأوصاف الكمالية ، لا شرقية جمالية ولا غربية جلالية يكاد زيتها بضيء ولولم تمسسه نار التأثير الظاهر

⁽۱) عن أبى هريرة رضى الله عنه – فيها رواه الإمام مسلم – قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة ، فسر على جبل يقال له : جمدان ، فقال : سيروا ، هذا جمدان ، سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات .

⁽۲) هو أبو القاسم البعنيد بن محمد بن البعنيد البغدادى الخزاز ، مولده ووفاته ببغداد (۲۹۷ هـ - ۹۱۰ م) قال أحد معاصريه ; ما رأت عيناى مثله ؛ الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه ، وقال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه . وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ، ولكونه مصوفاً من العقائد اللميمة ، محمى الأساس من شبه الغلاة . (انظر في ترجمته كتاب الكامل لابن الأثير ، وطبقات الصوفية ، والأعلام للزركلي ج ١ س ه ١٩٥ والرسالة القشيرية ج ١) تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف .

 ⁽٣) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد ، والبزار عن شريك ، والطيراني في الكبير عن أبي موسى رضى الله عنهم أن الرسول
 صلى الله عليه وسلم قال ؛ لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله ، ولا أنما إلا أن يتغمدني الله يرحمته .

من مصداح الصفات . نور على نور الأفعال على نور النسب على نور الأسهاء على نور الصفات ، وهى الني ظهر به الكل . يهدى الله لنوره من يشاء في أى مقام كان ، فيشهد الحق على قدر ما حصل له من الحداية . فافهم .

ووجود الشهود مختلفة ، من حصل على شيءٍ منها كان كمالا له ، ومن لم يحصل على شيء فهو في دائرة النقص كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

فمن , أى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعْوزه وجودُ الأُنوار .

قلت: ومن شهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فهو الكامل الأنوار المظهر الأسرار وإن تفاوتت الرتب. والمراد برؤية الكون اعتبار وجوده من حيث ماظهر فيه وبه من التصرفات العادية وغيرها. وشهود الحتى فيه النظر لوجود تصريف الحتى له بوجه لاينفك وتجرى الأفعال على حكمه بأن لايبتى للعبد على غيره اعتاد ، ولا لمن سواه استناد ، بل يبتى شاخص القلب لما يرد منه في كل دقيقة وحقيقة ؛ رجوعاً لقوله تعلى (الله خالق كل شيء) وعملا بخالص التوحيد، في باط التجريد(۱) فافهم . وعدم ذلك بالرجوع إلى الأسباب والعمل على أن النيل والمنح (۲) بالاكتساب ، وشهوده عنده هو النظر إلى أنه القائم له بما يحب والقائم عليه عما يجب فيقم بذلك ظل في الصدور يقتضي مراقبته بالشكر على ما أسدى من محبوب ، وبالقيام بما وجب من مطلوب ، فتنتفي شهواته إذ يشغله الثناءً على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً وتشغله حقوق الله عن أن يكون لنفسه شاكراً وتشغله حقوق الله عن أن يكون لعظرظه ذاكراً عملا بقوله تعلى : (وهو على كل شيء وكيل) : (من آية ٢٣ من سورة الزمر) وقوله سبحانه (إن ربك لبالمرصاد) : (آية : ١٤ من سورة الفجر) وقوله عز وجل (ووجد الله عنده فوفاه حسابه): (من آية ٣٩ سورة النور) وقوله جل وعلا فيا يرويه الصادق الصدوق صلى الله عليه وسلم: «أنا عند ظن عبدى بي (٣) ... إن الله عند كل عمل وعامل حي يوفيه عمله ، أنا عند اللنكسرة قلوبهم من أجلي) فافهم .

وعدم ذلك بالغفلة وترك الحتموق والله أعلم . وشهوده قبله أن يسبق إلى قلبه أن مراده لايكون

⁽١) وق سخة : التفريد .

⁽٢) وفي نسخة : والعمل على النيل والدفع ، وفي أخرى : والعمل على النيل والمنع .

⁽٦) روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : أنا عند ظن عدى و ، ، أن عنه إذا ذكرى في الهسم ذكرته في الهسم ، وإن تقرب إلى شهر أ تقرب بل شهر أ تقرب بل شهر أ يدراء ، وإن تقرب بلى ذراءا تقرب بلى جاء ، وإن أتابى يمشى أتيته هرولة .

إلاً بإرادة الحق وقدرته فينتج له ذلك التوكل عليه فيه علماً منه أن وجود كل شيء منه سبحانه (له مقاليد السموات والأرض) أى مفاتيحها التى يفتح بها وجودها وموجدها فينتنى عنه الغفلة بهذه الرؤية لاشتغاله بالشكر عن المساعدة وبالرضا والاستسلام عن المباعدة ، وعدم ذلك برؤية النفس في التحصيل وعدمه . فافهم . وشهوده بعده هو أن يغفل عن التصريف والقيام بالامور والإبرام للأحكام حتى يقع في أمر يريده فيذكر منة الحق تعالى بتيسيره أو في ضده فيذكر قهره سبحانه في تعسيره . وهذا حال عوام الخلق من المتوجهين ونحوهم ، وإليه الإشارة بحديث (أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به (١) ... الحديث) .

وليس وراء هذه المرتبة إلَّا الاسترسال في الغفلة المؤدى لوقوع الهفوة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) : (آية ٥٢ من سورة العنكبوت وذلك لأَنهم غفلوا واسترسلوا ، ولو رجعوا ماخسروا . فافهم . ثم من حصل على الشهود الاول كان بالله أو على الثاني كانالله أو على الثالث رأى الأَمر من الله أو على الرابع رجع فيه إلى الله ، ومن فاته ذلك كله فهو مُعوز أى محتاج لوجود الأنوار إذ غلبه النظر إلى الأَغيار .

وحُجبت عنه شموس المعارف بسُحُب الآثار .

قلت : شبه المعارف بالشموس لأنها تذهب بكل ظلمة ونور ، وتكشف عن حقائق الأمور مع علوها وارتفاعها وعموم النفع بها ، وأخذ كل أحد منها على قدره . واستعار السحب للاثار لأنها تغطى الحقيقة ولا تذهب بها ، وتضعف النور ولا تذهبه ، وتعرض له ولا تدوم عليه . وبالجملة فمعرفة الحق أصل لكل أصل ، وما سوى الحق حجاب عنه ، ولا يخرجك عن الوصف إلا شهود الموصوف . ومن ذكر الحق نسى نفسه ومن ذكر نفسه نسى الحق ، وأعظم باب في معرفته شهود قهره من بساط توحيده لأنه يشعر بعظيم عظمته وقد توجه المؤلف للكلام في ذلك إذقال :

⁽۱) هذا الحديث رواه الإمام مسلم رضى الله عنه ؛ أذنب عبدى ذنباً فقال اللهم أغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى ؛ أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ باللذب ، ثم عاد فاذنب ، فقال : أى رب أغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : عبدى أذنباً فعلم أن له رباً يغفر اللذب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال ؛ أى رب أغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً ، فعلم أن له رباً يغفر اللذب ويأخذ باللذب ، إعمل ما شئت فقد غفرت لك ، قال عبد الأعلى : لا أدرى أقال فى الثالثة أو الرابعة : أعمل ما شئت . ورواه الإمام البخارى على النحو التالى :

إن عبداً أصاب ذنباً ، فقال : رب أذنبت ذنباً فاغفر لى ، فقال ربه : علم عبدى أن له رباً ينفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لمبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً فقال : رب أذنبت ذنباً آخر فاغفر لى ، فقال : علم عبدى أن له رباً ينفر الذنب ويأخذ به غفرت لمبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً فقال : رب ، أذنبت آخر ، فاغفر لى ، فقال : علم عبدى أن له ويأخذ به غفرت لعبدى ثلاثاً فليعمل ما شاءه » . رواه البخارى ، مسلم ، والنسائل .

مما يدلك على وجود قهره ، سبحانه ، أن حَجبك عنه بما ليس بموجود معه :

قلت: استدلال القوم مراد لتمكين الحقيقة من النفس ، لا لمطلق الاثبات ؛ لأن مقاصدهم دائرة على طلب الكمال بعد إثبات الأصل الذى هو شأن الاصولى . وقد تقرر فى النقول (١) أن الله خالق كل شيءٍ فالكل منه وإليه ، فوجود كل شيءٍ به وله لامعه ؛ لأن الكل عدم لوجوده ، كما مر .

ثم الخلائق محجوبون عنه بهم ، وهم عدم ، فالعدم حجب العدم ، وذلك عجيب من الصنع . ثم احتجاب العدم بالعدم دليل على ظهور الوجود بالموجود (٢) بلا حجب أليتة ، وذلك من أكبر شواهد العظمة .

وإنما قلنا إن احتجاب الخلق بهم ، لأن الحق - سبحانه - لايصح أن يكون حجاباً ولامحجوباً ، وقد ذكر المؤلف في ذلك عشرة أوجه فقال في أولها : (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء). قلت أظهره من العدم إلى الوجود فكان دليلا عليه لكل موجود إذ خصصه بإرادته وأبرزه بقدرته وأتقنه بحكمته وتجلّ فيه برحمته.

كيف يتصور أن يحجهه شيءٌ وهو الذي ظهر بكل شيء .

قلت : ظهر به من حيث التعريف إذ أظهره من العدم فدل على أنه المنفرد بالكمال والبقاء والقدم :

وفى كل شيء له آيـة تدل على أنــه الواحد كيف يتصور أن يحجبه شيءٌ وهو الذي ظهر في كل شيء.

قلت : ظهر فيه بما أظهر عليه من آثار قدرته وتخصيص إرادته ودلائل حكمته وشواهد رحمته فكان مرآة لمعرفته .

كيف يتصور أن يحجبه شيءٌ وهو الذي ظهر لكل شيءٍ.

قلت : ظهر له مما ظهر فيه فكان عارفاً به على قدره حسب تعريفه ولذا قيل : «ماثم إلَّا عارف به على قدره» ؛ فلذلك لايعذر الكافر بجحده .

⁽١) ڻ نسخة ۽ المعقول .

⁽٢) رُق حَدَّةً : بالوجود .

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء .

لأَنه أَظهر الأَشياء فكان قبل وجودها ؛ إذ هو الأَول الذي لامُفتتح لوجوده ، ولا ظهور لشيء إلا بإظهاره إياه ، فافهم .

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو ظهر من كل شيء .

قلت : لأَنه الواجب الوجود لذاته وكل شيء إنما وجد بإيجاده وواجب الوجود أظهر للمناط العقلي أبدا ولاعبرة بوهم فيه ، فاقهم .

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء .

قلت، : ليس معه شيء أبدا كما لم يكن معه شيء أزلا ؛ لأن الكل فعله وهو المنفرد بالكمال. كان الله ولا شيء معه (١) وهو الآن على ما عليه كان.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء.

قلت : لأنه المتصرف فيك بكل شيء وتصريفه سابق لك قبل وجود ذلك الشيء ، فهو أقرب إليك حتى من نَفَسِك ونفسك قال الله تعالى (وَنحْنُ أَقرَبُ إِليه مِنكم)(٢).

كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ماكان وجود كل شيء .

قلت : وذلك الافتقار كل شيء له ، وغناه عن كل شيءٍ وعلَّة كل شيء صنعه ، والاعلَّة الله كان وما لم يشأ لم يكن .

ياعجباً ، كيف يظهرُ الوجودُ في العدم .

مع أَن العدم ظلمة ، والوجود نور ، وقد كان ذلك .

أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم.

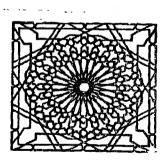
⁽۱) روى الإمام البخارى فى بدء الحلق ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ؛ كان الله ولم يكن شى ء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شى ، ، وخلق السماوات والأرض . ويقول الإمام ابن حجر فى الفتح شرحاً وتعليقاً على الحديث الشريف فى الرواية الآتية فى التوحيد: « ولم يكن شىء قبله » وفى رواية غير البخارى « ولم يكن شىء معه» ، والقصة متحدة ، فاقتضى ذلك أن الرواية وقعت بالمعنى ، ولعل راويها أخذها من قوله صلى الله عليه وسلم فى دعاته فى صلاة الليل كما تقدم من حديث أبن عباس : « أنت الأول فليس قبلك شىء ، لكن رواية الباب أصرح فى العدم ، وفيه دلالة على أنه لم يكن شى ، غير ، لا الماء ولا ألمرش ولا غير هما لأن كل ذلك غير الله تعالى ، ويكون قوله ؛ وكان عرشه على الماء ، أنه محلق الماء سابقاً ثم خلق العرش على الماء وقد وقد فى قصة نافع بن زيد الحميرى بلفظ : كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال اكتب ما هو كائن ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن فسرح بتر تيب المخلوقات بعد الماء والعرش .

وما ديمن مصرح يعربيب مصود عليه منكم ولكن لا تبصرون . الواقعة : ٨٥ . ويقول سبحانه ؛ ولقد خلقنا الإنسان ، (٢) يقول الله تعالى : ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . الواقعة : ٨٥ . ويقول سبحانه ؛ ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوديه . ق : ١٦ ،

قلت : مع أن الحادث لا وجود له من ذاته ولا في صفاته ، والقديم لاثبوت لشيء مع ظهور صفاته وقد كان ذلك فدل على أن الظاهر والثابت إنما هو القديم وحده ، وتلاشى الحادث وفناؤه فيه (١) ، يحكى أن رجلا كان بين يدى الجنيد ، فقال الحمد لله ، ولم يقل رب العالمين ، فقال الجنيد , حمه الله : كمله يا أخى ، فقال الرجل : وأى قدر للعالمين حتى يذكروا معه !! فقال الجبد ، قله يا أخى فإن الحادث إذا قرن بالقديم نلاشى الحادث وبنى القديم .

قال و «ااتسویر»: فما سوى الحق نعالى لا یوصف بففد ولاوجود لأنه لا یوجد معه غیره ولأنه لایففد إلا ما وُجد، ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العیان علی فقد الأعیان ولأشرف نور الایمان فغطی وجود الأكوان. انتهی ، وسیأتی من نوعه كثیر ، وهو نخبة الكتاب ولب اللباب (۲) ، كم من خانه الجهل به وَظَلَ (۳) وأنكر علی أهله فزل ، فهو معدن غرور الجهال ومزلة أقدام الرجال ، ولا أجهل ممن يتعصب بالباطل وأنكر لما هو به جاهل ، فإن عرفت فاتبع ، وإن جهلت فسلم ، فعليكم بكمال التنزیه ونفی التشبیه والتمسك بقوله تعالى (لیس كمثله شيء وهو السمیع البصیر) : (آیة ۱۱ من سورة الشوری).

تنبيه : تكلَّم فى هذا الهاب على بداية الهدايات وأشار فى آخره إلى نهاية النهايات وجمع فى ذلك بين الشريعة والحقيقة والإشارة والبيان ، وكذا فى كل كلامه .



⁽۱) وفى نسخة : وفنى به نيه ، وكل ذلك لا يقصد به أكثر من أن ما ليس له الوجود من ذاته فهو عدم ، وهو مع ذلك موجود بايجاد الله إياه ، ومستمر فى الوجود لأن الله يمسكه : « إن الله يمسك الساوات والأرض أن تزولا » . وإ15 لم يمسكه الله رجع إلى أصله وهو العدم .

^{. (}۲) و في نسخة و لباب الألباب

⁽٣) و نسبغة : كم من خانة فغمل أو أنكر على أصله بدير الحق فزل ,

* التفويض في المراد • والتوكل في التوجه في التوجه



** من أشرقت بدايته بالرجوع الى الله أشرقت نهايته بالوصسول الى الله ٠٠

من أشرقت بدايته باحكام أصولها أشرقت بالعثور على محصولها ..

· .		
	-	

ثم افتتح بالمعاملات(١) والكلام فيها بأن قال :

وقال رضي الله عنه .

قلت : جعل هذه الترجمة فى كل فصل من كتابه وفيها نوع من التعظيم ، فيحتمل أن يكون ملغى فى نظره حين وضعها ، ويحتمل أن الواضع لذلك غيره بإشارته أو بغير إشارته ، ويحتمل أن يكون أملاه إملاء على الكاتب فترجمه لنفسه بحسب المجالس والفصول والله أعلم . ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يُحْدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه .

قلت : الوقت هنا الزمان الذى لايقبل غير ما أظهره الله فيه بحكم التصريف وإرادة غير ما أظهره الله فيه بالتلهف على عدم موافقته للغرض النفساني ونحوه . والسلامة من ذلك بوجود الاستسلام وقال الاستاذ أبو القاسم القشيرى(٢) رضى الله عنه : ومن كلامهم «الوقت سيف» . أى كما أن السيف قاطع فالوقت بما يقتضيه الحق تعالى ويجريه : حاكم . وقيل : «السيف ليّن مسه قاطع حدّه ، فمن لاينه سكم ومن خاشنه اصطلم(٣) ، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى ، كما قيل . .

وكالسيف إن لاينته لان مسه وحدًاه إن خاشنته خشنان

الله وقد يريدون بالوقت غير هذا ، مثل : طيبة القلب ، ومنه قولهم : فلان صاحب وقته ، وطاب لوقته . ومثل الاجتماع للسماع ، ومنه قولهم صنع فلان وقتاً وحضونا وقتاً ، ونحو ذلك . فأما قولهم فلان بحكم الوقت (٤) فمعناه ما تقدم أولا ، أى أنه يجرى مع التصريف بغير اختياد من نفسه .

⁽١) المعاملات مع الله أو المماملات في المجال الروحيي . ٠

⁽۲) هو ؛ أبو القاسم عبد الكريم القشيرى النيسابورى ، ولد سنة ٣٧٦ ه . وتوفى سنة ٤٦٥ ه بمدينة نيسابور التى كانت إقامته بها ، وهو من رواد الصوفية ، وله تواليف كثيرة فى النصوف والتفسير والأدب . (انظر ترجمته مفسلة فى مقدمة الجزء الأول لكتاب الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف .

و انظر كدلك كتاب « وفيات الأعيان » و « طبقات السبكي » = ٣ . وكتاب « الأعلام للزركلي » = ٢) •

⁽٣) المراد : انقطع . جاء في المصباح المنير : صلمت الأذن صلماً - من باب ضرب - استاصلتها قطعاً - واصطلمتها كذلك - وصلم الرجل صلماً - من باب تعب - استوصلت أذنه فهو أصلم .

⁽٤) و في تسمخة : بحكم الوقت ,

وإنما كانت معاندة الوقت غاية الجهل لانسداد أبواب العلم وطرقه في حق صاحب هذه الحالة.

وطرق العلم ثلاثة : العقليات والشرعيات والعاديات ، فدليل جهله بالمعقولات إرادته رفع الواقع وإيقاع الممتنع ، ودليل جهله بالشرعيات اعتراضه على مولاه وإساءة أدبه معه فيا قضاه له ، وإرادته غير ما أقامه فيه من تجريد وأسباب وغيرهما . ودليل جهله بالعاديات عدم مراعاته لحكمة الله في خلقه وسنة الله في عباده ، وأن من أراد موافقة أغراضه أبداً أتعب نفسه بغير فائدة ، إذ لايكون غالباً إلا غير مايريده الانسان ، وقد قيل : من طلب مالم يُخلق أتعب نفسه ولم بُرزق . يدى : الراحة في الدنيا . وكما أمرت بالاستسلام في الواقع حيث لا يمكن غيره أمرت بالقيام بالحقوق حسب الإمكان وإن كانت بمضايقه فترك الاستسلام في مجاله جهل وترك العمل في وقته حمق ، كما بينه المؤلف إذ قال :

احالتك الأَعمال وجود الفراغ من رعونات النفوس.

قلت : الرعونات : جمع رعونة ، بضم الراء والمهملة ، وهي ضرب من الحماقة فيُظن بصاحبها العقل وليس بعاقل في نفس الامر . والعبد في هذه الحالة كذلك ؛ لأن صورة فعله تقتضى عقله ، وفي حقيقة الأمر هو أحمق من ثلاثة أوجه :

أحدها : إحالته ما وجب عليه شرعاً وهو العمل على مُحال عادة وهو الفراغ في هذه الدر فهو يقول لاأعمل حتى أتفرغ ، ولسان الحال يانول له لاتتفرغ إلّا بالعمل .

الثانى : أنه وثوق بغير موثوق به وهى النفس فى عزماتها(١) التي غالبُ الأمر أنها لاتم

الثالث : أنه إهمال للحزم والعزم المقدمين (٣) عند العقلاءِ خوفاً من تقلبات الدهر ، ولكن إيثار الدنيا على الآخرة واجتهادُه فيما ضمن له دون ماطلب منه هو الموجب لذلك ، وقد قال

⁽١) وفي نسخة : نزعاتها .

⁽٣) وَفَى نَسْخَةً : المرادين عند العقلاء .

⁽٢) وفي نسبخة ؛ لا تنفذها .

رسول الله صلى الله عليه وسلم: ١١١ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحمق من اتبع نفسه هو اها وتمنى على الله الأماني ... الحديث ، .

والناس ثلاثة : رجل ساعده القدر فعمل في فراغه وشغله . وهذا من الموفقين المغبوطين .

ورجل : وجد الفراغ ولم يعمل وهذا من البطالين المغبونين ؛ إذجاء « خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

ورجل : لم يجد الفراغ وجعله علة في التسويف فأحال عليه العمل ، وهذا من المغترين ، إذ لاحقيقة له في وقته ولا فيها يؤول إليه أمره(١) ، ويرحم الله ابن الفارض(٢) حيث قال :

وعُد من قريب واستحب واجتنب غدا وشمر عن ساق اجتهاد بنهضة وكن صارماً كالوقت فالمقت في عسى وإياك «عَلَى فهي أخطـــر علة

وجُذَّ بسيف العزم «سوف» فإن تجد نفسا فالنفس إن جُدت جدَّت

شم إذا قمت بالاستسلام في محل القهر وبالإمتثال في محل الأمر ، قلا تخير حالة تكون بها من تجريد أو أسباب ، عجز أو اكتساب : تشوقًا لما يرجى في ذلك ، بل كن بحكم الوقت كما سنه المؤلف إذ قال:

لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها .

قلت : بل قم فما أقامك الله فيه طالباً الاستفامة معه من غير زائد على ذلك وإنما أمرت بذلك لثلاثة أوجه:

أحدها : القيام بحق العبودية فيما أنت فيه بالرضا (به).

الثانى : لتنجد الراحة بالاستسلام فتسلم من نكد التدبير وإكدار التغيير(١) .

⁽١) وفي تسخة : ولا لما يوُمانه في أمره .

⁽٢) هو : ابو حفص عمر بن على بن مرشد : أشعر المتصوفين ويلقب بسلطان العاشقين ، أصله من حماة . و لد في القاهرة سنة ٧٦٥ ه - ١١٨١ م ، وتوفى بها سنة ٦٣٢ ه – ١٢٣٥ م . النظر وفيات الأعيان ، ص ٧١٩ ج ٢ من كتاب الأعلام للزركلي.

⁽٣) رقى نسخة : قحظك .

^(؛) ر في نسخة ؛ التقدير .

الثالث : لئلا تعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه ، فقد حكى أن رجلا كان يسأل الله تعالى كل يوم رغيفين ويتفرغ للعبادة ، فسُجن ، وكان يؤتى كل يوم برغيفيين ، ففكِّر في أمره ، فقيل له : إنك سأَّلت الرغيفين والعبادة ولم تسأَّل العافية . فاستغفَرَ وأُخْرِجَ لوقته .

قال في «التنوير»: «فتأدّب مها أمها المؤمن ولاتطلب منه أن يخرجك من أمر ويستعملك فيها سواه إذا كان ما أُقمت فيه مما يوافق لسان العلم(١) ؛ فإن ذلك من سوءِ الأَدب مع الله تعالى ، فاصبر لئلا^(٢) تطلب الخروجَ نفسُك ، فتعطى ماطلبت وتُمنع الراحة فيه . فرب تارك شيثاً وداخل في غيره ليجد (٢) الراحة فتعب وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار». انتهى ثم ما يريده العبد من الأسباب وغيرها يتحول إلى ضده ووجود الحجمع غير ممتنع (٤) فإرادة. الانتقال من عدم اتساع دائرة الفهم وإلَّا فالأمر كما بينه المؤلف إذ قال :

فلو أرادك لاستعملك من غير اخراج .

قلت : وذلك بأن يحصل لك فوائد التجريد مع الأسباب وفوائد الأسباب مع التعجريد، وذلك عليه سبحانه يسير لاامتناع فيه ولاعسر ، فكم من متجرد أُوسَعَ عليه الرزق حتى أستعف وأوسعَ ، وكم من متسبب بُسِط له الزمان ووسعَ عليه وقته حتى جمع بين العبادة والتسبب ؛ فقد روى أن سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه قال : لما أسلمونى إلى المكتب كنت إذا اشتغلت بمراقبة قلبي ضاعت وظيفتي في اللوح ، وإن اشتغلت باللوح ضاع قلبي ، فسألت الله فجمع لى بينهما ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه للمؤلف(٥) لما رام الخروبج مما هو فيه من الاشتغال بالعلم الظاهر قائلًا إن الوصول مع ذلك بعيد إذ قال له : اقعد فيما أنت فيه وماقدر لك على أيدينا يصلك . ثم نظر إليه وقال : هذا شأن الصديقين لايمخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولُّ إخراجهم كما تولُّ إدخالهم ، فإذن أنت بين إحدى ثلاث : إما أن تقام فيما أنت فيه من غير فقل ولازيادة ولا نقص وهذه سلامة ورحمة ، وإما أن يستعملك فيه من غير إخراج فيكون لك غنيمة العبودية منوطة بغنيمة الفائدة المطلوبة

⁽١) وفي نسخة : موافقاً للسان العلم ، وفي أخرى لشأن العلم .

⁽٢) وفي نسخة : فاصير ولا تطلب الحروج لنفسك .

⁽٣) وفي نسخة : فرب تارك شيئًا و دخل في غير ، ليجد الراحة فتعَب وقويل بوجود النفس عقوبة لوجود الاختيار .

⁽٤) بأن يريد بالأسباب وجه الله فيكون متسبباً متجرداً في آن و احد ما دامت نيته قد أصبحت متحمضة لوجه الله .

⁽٥) أى لابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم .

مع زياد ما أنت فيه ، وإما أن يُهيئك للخروج عما أنت فيه بتخلف شرط الاقامة الذي هو استقامته والاستقامة فيه فإن التخلف إذن في التخلف كما تقدم .

ثم إذا قمت ما عليك من الاستسلام أو الامتثال سيث أقمت فلا تقف بهمتك عند شيء دون الحق ؛ لأن ماسواه حجاب عنه وقاطع دونه ، وإن كان من فوائده وكراماته . وهذا مابينه المؤلف إذ قال :

ما أرادت همةُ سالِك أن تقف عندما ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذي تطلبه أمامك .

قلت: يقول متى أراد المريد أن يقف بهمته عندما كشف له من العلوم والمعارف ونحوها نودى من بساط الحقيقة بلسان حال ما كشف له: الذى تطلبه من معرفة الحق أمامك، ولايزال أمامك أبداً فجد في الطلب ولا تعود نفسك الكسل؛ لأن ما كشف لك إن كان من علوم الأفعال ومعانى النسب الظاهرة فيها فقد فاتك موقف الأسهاء والتحقق بمعانيها على ما يليق بك وما يبدو لك منها ، وإن كان ما كشف لك من معانى الصفات وحقائقها فقد فاتك كشف عظمة الذات وجلالتها ، شم كذلك في كن مرتبة إلى مالانهاية له ؛ لأن المعروف لايتناهى ، فالمعرفة به لا تتناهى في دار الا خرة الابدية فضلا عن الدار الدنيوية .

ثم الوقوف على ثلاثة أوجه : وقوف قنوع ، ووقوف رؤية الانتهاء ، ووقوف استئناس . وقد قال بعض المشايخ : وقفة المريد شرّ من فترته ؛ لأن الفترة تُجبر بالتشمير والوقفة نقطع عن التوجّه بالتقصير ، وهو رأس الحرمان والعياذ بالله ، وقد يدعوه للوقوف ما يظهرُ له من الكرامات قنوعاً واستئناساً أو اعتقاداً بأنها النهاية فلذلك قال :

ولاتَبرُجَتْ له ظواهر المكنونات إلَّا ونادته حقائقها إنَّما نحن فتنة فلا تكفر.

قلت : تهرجت ؛ ظهرت بالزينة لقصد الاسهالة ، وليس ذلك إلّا بخرق العوائد وتحصيل الفوائد ، فإذا ظهر شيءٌ من ذلك أُولعت النفس به فأرادت الوقوف معه فيناديه لسان حالها (إنما تحن فتنة) أى اختبار لك ، هل تقف معنا فتحجب عن ربنا أَو تنظر لمنته ، فتشكر نعمة الله تعالى فينا (فلا تكفر) نعمة الله عليك فينا بوقوفك معنا وتَجاوزنا لرؤية الحق بنا أَو دوننا

شكرًا لله لما أنعم الحق عليك بنا واعمل على أبيات الششترى(١) حيث يقول :

سوى الله غير ، فاتخذ ذكره حصنا حجاب فجد السير واستجلب العونا عليك فحل عنها فعن مثلها حُلنا فلا صورة تُجلى ولا طَرفة تجنا سبيل ما عن فلا تترك اليُمنا.

فلا تلتفت فى السير غيراً فكلما وكل مقام لاتقم فيه إنَّه ومهما ترى كل المراتب تجتلى وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب وسر نحه أعلام اليمين فإنها

وبالجملة فالوقوف بالهمة على شيء دون الحق حرمان واشتغال النفس بالطلب له مفتاح كل خير ، لكن على وجه العبودية لا على غير ذلك الوجه ، فإن وجوه الطلب كلها معلومة إلا ما كان على وجه العبودية . وقد بيّن ذلك المؤلف في كل وجه منها ، فقال :

طلبك منه اتهام له ، وطلبك له غيبة منك عنه ، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه .

قلت : يقول طلبك منه ، أى : سؤالك ما تريده من الحوائج منه تعالى على جهة الاقتضاء والتسبب بالطلب من اتهامه تعالى فى علمه ورحمته ووعده ؛ لأنك لو وثقت بعلمه بحالك لم تحتج لسؤالك ، ولو وثقت برحمته كنت تكتنى بها عن طلبك ، ولو وثقت بوعده ما كنت تطلب منه شيئاً قسمه لك قبل وجودك ، ولذلك قيل : «لاتكونوا بطلب الرزق مهتمين فتكونوا للرازق متهمين » . انتهى .

وطلبك له معناه طلبك الوصلة به من وجود الغيبة عنه لأنه ليس بغائب والابعيد ، فطلبك له من وجود غيبتك وبعدك عنه ؛ إذ لو كنت قريباً منه شاهدت قربه منك حتى ترى أنه أقرب إلبك من نفسك ونَفَسك.

وطلبك لغيره معناه طلبك الوُصلة بغيره أى من أمر الدنيا والآخرة (٢) من قلة الحياء منه تعالى ؛ لأنك لو استحييت منه حق الحياء ما كنت تلتفت لغيره فضلا عن أن تراه أهلا لأن تطلب

⁽¹⁾ يقول عنه صاحب طبقات الشاذلية الكبرى : « إنه العالم والوزير والأستاذ الجليل الكبير وسلطان الواصلين سيدى ابو الحسن على بن عبد الله الششرى الأندلسي المغرب الشاذلي » كان أبوه أميراً بقرية « ششتر » ونشأ في عز ورفاهية ، ثم أتجه إلى الله سيجانه وتعالى ، وجاهد وإرتاض وكتب الشعر وكانت له سياحات كثيرة » وورد مصر واستوطن دمياط وصاد مرابطاً بها إلى أن توفى سنة ١٨٨ ه » ويقول صاحب الطبقات « وله مقام عظيم يزار ، عليه جلالة عظيمة ومهابة وانوار . وأهل تلك الناحية يتوسلون به إلى الله في قضاء مصالحهم » .

^{﴿ ﴿ ﴾} كَمَا لُو طَلَبِ الْجَنَّةِ ثُمَّنَّا لَعَمَلُهُ فِي الدَّنِيا قالهُ بِذَلْكُ لَا يَطْلُبُ اللَّهِ بَعَادَتُهُ وَإِنَّمَا يَطُلُبُ الْجَنَّةِ ،

الوُصلة به . وطلبك من غيره الحواثيج لوجود بُعدك عنه لأنك لو شاهدت قربه منك عرفت أن الأُمور كلها بيده فوقفت بكنه الهمة عليه .

وبالجملة فالطلب كله معلول إلا ما كان على وجه العبودية والقيام بحق الربوبية ؟ لأن الحق تعالى أقرب إلى العبيد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، فلا محل للطلب إذن ، وبرهان ذلك فها ذكره المؤلف إذ قال :

مامن نفس نبديه إلَّا وله فيك قدر يُمضيه.

قلت : النفس بالتحريك أدق الحركات النفسانية في عالم الملك والشهادة ، ومرجعه لأزمنة دقيقة يجرى بها وجود الانسان فتبدو أى تظهر على وجوده ، ويبدو معها ما يقضيه الحق للعبد من الأُمور العادية وغيرها ، فهى مراتب للاحكام الجارية على العباد ، وبحسب هذا ، فكل نفس يقتضى تجلياً جلالياً أو جمالياً أو خارجاً عنهما ، وذلك التجلّي يقتضى عبودية ، وتلك العبودية تقتضى تجل ، ولا يزال ذلك متجدداً على عمر الدهور والأوقات بعدد الأنفاس فيكون المريد في كل نفس سالكاً طريقاً إلى الله تعالى ، وعلى هذا يتنزل قولهم : الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ؛ لا ما يسمبه بعض الناس اختلاف الحق ومخالفته (١) فما ثَمَّ إلَّا طريق واحد وهو طريق محمد صلى الله عليه وسلم . ومسالكه ثلاثة : عبادة ، وإرادة ، وزهادة .

وإن كان ما من نفس نبديه إلا وله قدر فيك بمضيه لم يصح لك اتهامه ولايصح أن يكون عنك غائباً ، فيجب أن تستحى منه بأن لاتطلب غيره ، ولا تطلب من غيره وتَدَع التدبير معه فتنهض الهمة إليه من غير توقف ولا تردد ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

لاتترقب فروغ الأغيار فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه .

قلت : لاتنتظر بعملك فراغاً من الأغيار والأفكار فإن ذلك التوقف قاطع لك عن عبودية الوقت وحكمه ، ولكن قم له مما تقدر عليه كما أنت من غير التفات إلى فراغ ولا غيره (٢) ، فقد قيل : «سيروا إلى الله عُرْجاً ومكاسير ولا تنتظروا الصحة ؛ فإن انتظار الصحة بطالة » . انتهى .

ومترقب الفراغ للعمل كمن يقول لا أتداوى حتى أجد الشفاء ، فيقال له : لاتجد الشفاء حتى تتداوى ، فلا هو يتداوى ولا يجد الشفاء ، كذلك هذا : يقول لا أعمل حتى أتفرغ ، ولا يتفرع

⁽١) وفي نسخة ؛ لا ما يسميه بعض الناس من اختلا ف الحق و نحالفته .

⁽٢) وفي نسخة ۽ من غير التفات لغيره ـ

حتى يعمل ، فهو لايعمل ولا يجد الفراغ ، ثم الذي ينتظره من الفراغ محال عادة لأن الدنيا دار الشغل والفكر ، كما قيل :

فما قضى أحد منها لبانته ولاانتهى أرب منها إِلَّا إِلَى أُرب

فإذا أردت أن يكون شغلك فراغاً فاجعل عملك من جملة أشغالك ، وليس ذلك (١) إلا بتحقيق العلم عا هي عليه كما نبّه عليه إذ قال :

لاتستغرب وقوع الأكدار مادمت في هذه الدار فإنها ما أبرزت إلاما هو مُسْتَحَقَّ وصفها وواجب نعْتها .

قلت : وذلك أنها موصوفة بالدناءة ، أى : الخساسة . والدنو أى : قرب المرام (٢) وقرب المسافة . عمرُها قصير ومتاعها قليل وآفاتها غزيرة ، ومن وطن نفسه على ذلك منها وعمل عليه وجد الراحة وكان دهره كله عافية ، ومن نظر إلى العكس أتعب نفسه من غير حاصل ولذلك ، قال جعفر الصادق (٣) رضى الله عنه : من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه . ولم يرزق . يعنى الراحة في الدنيا وأنشدوا في معناه :

تطلب الراحة في دار الفناء خاب من يطلب شيئاً لا يكون

وقال الجنيد رضى الله عنه: لست أستبشع ما يرد على من العالم لأنى قد أصلت أصلاوهو أن الدنيا دار هم وغم ، والعالم كله شر ، ومن حَكمه أن يتلقانى بكل ما أكره ، فإن تلقانى بما أحب فهو فضل ، وإلا فالأصل هو الأول ».

وقال ابن مسعود⁽⁴⁾ رضى الله عنه : الدنيا دار هم وغم فما كان منها من سرور فهو ربح . انتهى .

⁽١) وفى بعض النسخ « وليس ذلك إلا بتوطن النفس على عدم ما تؤمله من الفراغ وليس ذلك إلا بتحقيق العلم » .

 ⁽٢) أى قرب المهاية و الحاتمة و في بعض النسخ : قرب الحرام .

⁽٣) هو : أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر زين العابدين بن الحسين الهاشمى القرشى ، سادس الأنمة الإثنى عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء التابعين ، وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة مهم ؛ أبو حنيفة ، ومالك ، وجابر بن حيان . ولد بالمدينة المنورة سنة ١٨٠ م ، وتوفى بها سنة ١٤٨ ه – ٧٦٥ م . انظر وفيات الأعيان . ونزهة الجليس الموسوى - - ٢ و الأعلام. الزركلي - ١ ص ١٨٨) .

⁽¹⁾ هو : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلى : من أكابر الصحابة علماً وعقلاً وقرباً من رسول الله صلى الله عليه ==

ثم الأشغال والأكدار وغيرها بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وتتضاعف بالرجوع إلى النفس . وهذا ما نبه عليه وبينه بأن قال :

ما نوقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك :

قلت : الطلب بالله تعالى هو الاستناد إليه في تيسير المطلب .

وعلامته ثلاثة : التفويض في المراد ، والتوكل في التحصيل ، والاستقامة في التوجه ، فإذا تمت هذه فالمطلب متيسر ، سواء وجد المراد أو لم يوجد ؛ لأن المقصود تبريد حرقة الاحتياج ولا بقاء انها مع التفويض لأن عاقبته الرضا في الوجود والعدم ، والطاب بالنفس هو الاستناد إليها في تحصيل المراد ، وعلاماته ثلاثة : حب الموافقة من غير تفويض ، واعتماد الاسباب من غير توكل ، والتهور في وجه التحصيل دون تقوى ولا استقامة ، وكلها عائدة بالضرر في الوجود والعدم ؛ فالمطلب وإن تيسر بها صورة ، فهو حرمان في الحقيقة ؛ لما فيه من نسيان الشكر ومفارقة الحق والاعتماد على الخلق .

قال فى التنوير . « وما أدخلك الله فيه تولَّى إعانتك عليه ، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه (وقل رب أَدْخلنى مُدْخل صدق (١)) فالمدخل الصدق أن ندخل لا بنفسك ، والمخرج الصدق أيضاً كذلك . » انتهى . وبحسب هذا فالرجوع إلى الله علامة الربح ، والرجوع إلى الله علامة المخسران كما قال :

من علامة النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات.

قلت : من علامة المخسران في النهايات الرجوع إلى النفس في البدايات ؛ لأنها إذا كانت البداية بالله كانت النهاية إلى الله ، وإذا فَوَّض (٢) له شكر في العطاء ورضاء في المنع ، وكان ناظرا لما عنده أولا وآخرا ، فهذا غاية الفوز والنجيح ، والعكس للعكس . هذا مع أنه موكول لما رجع إليه ، مخذول فيما وقف معه ، كما قبل :

جوسلم . وهر من السابقين إلى الإسلام ، وكان خادم رسول الله صلى الله عليه رسلم ورفيقه في حله وترحال وغزواته . كان عمر وضي الله عنه يقول عنه : إنه وعاء ملى علما . له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً . توفي بالمدينة المنورة في خلافة عيان رضي الله عنه عن نعو ستين عاماً . (أنظر في ترجمته كتاب الإصابة ح ٢ ص ٣٦٨ ، وكتاب الأعلام للزركلي ج ٢ ص ٥٨٦) .

⁽١) من آية ٨٠ من سورة الإسراء.

⁽٢) وفي نسخة ؟ : فاذن قوض له شكراً في العطاء ورضاء في المنع .

إذا لم يُعننكَ الله فيما تريده فليس لمخلوق إليه سبيل فإن هو لم يُرشِدُكَ في كل مَسْلَك صَلَلْتَ ولو أَن السماك دليل

وقد قال النهر جوری (١) ، رضی الله عنه : « من كان شِبعه بالطعام لم يزل جائعا ، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيرا ، ومن قصد بحاجته غير الله لم يزل محروما ، ومن استعان على أمره بغير الله لم يزل مخذولا » . ١ ه ، وهو عجيب .

ثم العوايد على حسب الفوائد ، والفوائدعلى حسب المقاصد ، فالأمر كما قال :

من أشرقت بدايته أشرقت نهايته .

قلت : يقول : من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله أشرقت نهايته بالوصول إلى الله . من أشرقت بدايته بالتزام أشرقت بدايته بالتزام الطريقة أشرقت نهايته بكشف الحقيقة . من أشرقت بدايته بتلفه في الله أشرقت نهايته بخلفه من الله ، من أشرقت نهايته برفع الهمة عن الأكوان أشرقت نهايته بالكشف والعيان من الله لان البدايات مجلى النهايات ، ومن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته ، وقد قال ابن الجلاء(٢) رحمه الله : « من عَلَّت همته عن الأكوان وصل إلى «كونها ، ومن وقف بهمته على شيء دون الدن فاته الحق ؛ لأنه أعز من أن يرضي معه بشريك » ا ه .

ثم ما يوجد في البداية والنهاية إنها هو سر الحقيقة والغاية ، كما قال :

ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر .

ما استودع في غيب السرائر من معرفة الله ظهر في شهادة الظوادير (٣) بالعمل على مقتضي

⁽۱) هو ؛ أبو يعقوب اسحق بن محمد النهرجورى من علماء الصوفية الذين صحبوا أبا عمرو المكى رأبا يعقوب السوءي والجنيد وغيرهم . والنبرجورى نسبة إلى «نهر جور» قربة بالنمرب من الأهواز . أقام مجاوراً بالحرم سنين كنيرة ومات بمكة سنة ٣٣٠هـ - ٩٤١م . (انظر طبقات الصوفية . و الأعلام ، و ص ١٥٦ من الجزء الأول من الرسالة لقشيرية) .

 ⁽۲) هو: أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ، أصله .ن بغداد ، وأقام بدمشق ، ويعد من أكنبر علماء الشام . صحب ذا النون المصرى ، وأبا عبيد البسرى ، كما صحب أباه يحيى الجلاء (انظر الرسالة القشيرية ج ١ ص ١١٤) .

 ⁽٣) وفى نسخة : فى شهادة الظواهر بالانحباس إلى اند ما استودع ير غيب انسر اثر من الجهل بجناب الله ظهر فى شهادة الظواهر
 بالاستناد لغير الله ، ما أستودع فى غيب السر اثر من المعرفة واليقين ضد ذلك ، ظهر فى شهادة الظواهر بالعمل على مقتضى ما
 هنانك . . . إلخ .

ما هناك ، فمن كان غيب سره أتم كان ظاهره أحكم ؛ لأن ظواهر الأمور تدل على حقائق الصدور والاسرة تدل على السريرة ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره يلوح ، والكلام صفة المتكلم ، وما فيك يظهر على فيك ، وأدب الظاهر عنوان أدب الباطن (لو خشع قلب هذا خشعت جرارحه ، سياهم فى وجوههم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ، وخصلتان لا يتجتمعان فى منافق : حسن سَمْت ، وفقه فى دين ، قال بعضهم :

دلائل الحب لا تخفي على أحد كحامل المسك لا يخفي إذا عبقا

ثم مما أُودع فى غيب السرائر روية الخلق بالحق لقوم ، وروَّية الحق بالخلق لقوم ، ولكل مرتبة حكْمها فلذلك قال :

شتان بین من یستدل به أو یستدل علیه .

قلت : يعنى بعُدان وفرْقان ما بينهما وإن اجتمعا في طلب الحق ومعرفته ، فكثير (١) بين من ينظر بنور الأكوان وبين من ينظر بنور المكوّن .

المستدل به عرف الحق

قلت الحق الذي هو النظر لواجب الوجود قبل جائز الوجود لأَهله .

الذى هو واجب الوجود لذاته فإنه أظهر فى الجائز لدلالة العقل عليه أولا مقتضى الإطلاق إذ إنما يُعرف وجود ثم يُحمل عليه موجود لا يفهم فى وجوده إلا أنه مطلق غير مقيد ، وذلك يقتضى كماله بكل وجه ومَن لازم كماله وجوب اتصافه بالكمالات ، ثم من كمال الأوصاف ظهور آثارها : فعرف الموجود فى وجود ، وعرف الأوصاف من ذلك الموجود ، ثم عرف الأفعال من الأوصاف ، فنظر (٢) الأمر على وجهه

وأثبت الأمر .

الذى هو وجود الكون وما يجرى عليه

⁽١) أي : فبعد كثير بين . . . وف نسخة : لا يستوى من ينظر .

⁽٢) وفي نسخة ؛ فظهر .

من وجود أصله

الذى هو إيجاد الخلق بكرم الحق وفضله ، وظهورهم على أثر وصفه بفعله ، وهذه طريقة أرباب التدلِّى فى البرهان ، وأنكرها قوم فما أتوا بتبيان .

وقال قوم: لا تكون المعرفة فى بدايتها إلا كسبية بالترقَّى ثم تعود ضرورية ، فيكون النظر على التدلِّى وهو الذى يفهمه أكثر الناس وعليها نبه فى « لطائف المنن » حسب ما يأتى . وقسم ثالث ، وهو أن يتجلَّى الحق تعالى لبعض عباده بالحقيقة فيكون له فى معدن العيان بحيث لا يشعر بدليل على التدلَّى ولا يفهم معناه على الترقى كما قال ذلك الصبى لخاله وهو ابن ثلاث سبن ، حيث قال : يابنى ، ثم فقد أشغلت سرى ، أرأيت من تجلَّى لقلبه شيء فسجد له ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى الأبد .

وكذلك وقع لإبراهيم عليه السلام إذ عرف حقيقة لا أفول لها ولا زوال ، ثم نظر بها في أعظم الموجودات حساً ، إذا قال في عقب كل اعتبار : لا أحب الآفلين ، فلو لم يكن عرف حقيقة لا أفول لها ما نفي كل آفل ، بل قد صرح آخرا بما ضمّنه أولا إذا قال : « إني وجهت وجهى » فتأمل ذلك عالماً أن الاستدلال عليه دليل البعد كما قال :

والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه .

قلت : لانه لا يستدلُ إلَّا على الأَمر الخنى أو الغائب ، ولا خفاء ولا غيبة مع الوصول ، قال في « لطائف المنن » : اعلم أن الدليل إنما نُصبُ لمن يطلب الحق لا لمن يشهده . فإن الشاهد غنى بوضوح المشهود عن أن يحتاج إلى دليل فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود في نهايتها ضرورية ، وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن الدليل فالحق تعالى أولى بغناه عن الدليل منها » انتهى ، ثم ذكر وجه الدليل في أن الاستدلال عليه من البعد فقال :

و إلاَّ فمنى غاب حنى يُستدل عليه ومتى بَعُد حتى تكون الآثار هي الموصلة إليه.

قلت : وإن لم يكن الاستدلال من عدم الوصول فليس إلا من البعد والغيبة ، والحق تعالى ليس بغائب ولا بعيد ، فتبيَّن أن الاستدلال عليه دليل الغيبة والبعد . قال في «لطائف المنن » :

« ومن أُعجب العجب أَن تكون الكائنات موصلة إليه ، فليت شعرى ، هل لها وجود معه حتى توصل إليه ؟ ! أم هل لها من الظهور ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له وإن كانت الكائنات

موصلة إليه فليس لها ذلك من حيث ذاتها ، لكن هو الذى ولّاها رتبة التوصيل فوصّلت فما وَصّل إليه غير إلآهيته ، ولكن الحكيم هو واضع للاّسباب ، وهى لن وقف معها ولم ينفذ إلى قدرته : عين الحجاب ا ه . ثم يتعين على كلّ من المستدل به أو عليه (أن ينتهج ما فتح عليه إذ لا مكنه انتقال عنه ، بل كما نبه عليه (١) با لآية التي فرّع بها إذ قال :

لينفق ذو سعة من سعته : الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه : السائرون إليه .

قلت : يقول : العارفون وسعت عليهم أرزاق العلوم والمعارف فانفقوا على مقدار (ما وصل إليهم إذ استدلوا به (۲) . وذلك حكم وقتهم والسالكون ضيفت عليهم أرزاق العلوم فأنفقوا على قدر ما عندهم) ولذلك استدلوا عليه وذلك حكمهم ؛ إذ لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها ، وفضل الله مرجو للجميع (سَيَجْعلُ الله بَعْد عسر يسرا (۳)) ، وإنما صح توقيع الآية في الواصل والسائر لاحتمالها ما هو أعم ، ثم ذلك لا يرفع حكم الأصل الذي هو كونها في نفقات الزوجات ولا يدفعه ، بل يو كده (٤) ، لدخوله في النفقة الواقعة على ما هو أعم من المال ، والله أعلم . ثم ذكر توجه كل من الواصل والسائر فقال :

اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم بأنوارِ المواجهة .

قلت : فانوار التوجه أنوار : العمل ، والمعاملة . وأنوار المواجهة : مايرد من حقائق المواصلة .

فمظاهر الأولى ثلاثة : الاستدلال للتوصل ، والعمل للتوسل ، والتعلق للتقرب .

ومظاهر الأُخرى ثلاثة : التوفيق للهداية ، والإِلهام للعناية ، والتحقق للولاية (ومن لمَّ يجعل الله له نورا فماله مِن نور^(ه)).

ومعنى الرحلة من هؤلاء انتقالهم من عوالم الحس والخيال بمفارقة الوهم والضلال والوصلة

⁽١) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ .

⁽٢) ما بين القوسين زائد في النسخة التيمورية وفي نسخ أخرى .

⁽٣) آية γ من سورة الطلاق .

⁽٤) إن التفسير الصوفي إشارات ، والإشارات لا تنني تفسير الآيات الكريمة بحسب مقتضى اللغة وأسياب النزول . وقد تكون موكدة أحياناً وعلى ذلك فلا وجه لمن يحاولون افتقاد التفسير الصوفي فما هو إلا بيان لحصوبة التعبير القرآني دون أن يكون فيه تمطيل لمعني شرعي .

⁽p) آية · إ من سورة النور ,

فى حق الآخرين تحقق العلم واليقين ، والتمكن فى منازل العارفين ، ثم اكل حال ؛ حقيقة وحكم ومرتبة تخصه أشار إليها بأن قال :

فالاولون للانوار ، وهؤلاءِ الأَنوار لهم .

قلت : فالاولون للانوار عبيد ومذّك إذ جعلوها من أعظم عددهم و أقوى معتمدهم فلا يقدرون على مفارقتها ، وإن فارقوها حزنرا وأيسوا من مرادهم لمفارقة المعتمد في تحصيل المقصود ، وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم مملوكة ؛ لأبا عدهم نابعة وإن كانت غير متروكة . قال شارح «محاسن المجالس» : «العارفون قائمون بالله ، قد تولّى الله أمرهم ، فإن ظهرت منهم طاعة لم يرجوا عليها توابأ ؛ لأبهم لايرون أنفسهم عمّالا ها(۱)، وإن صدرت منهم زلّة ، فالدية على الهاتل (۲) لم يشهدوا غيره في الشدة والرخاء ، قيامهم بالله ، ونظرهم إليه وخوفهم رهبسهم ، ورجاؤهم هببتهم» ، فيره في الشدة والرخاء ، قيامهم بالله ، ونظرهم إليه وخوفهم رهبسهم ، ورجاؤهم هببتهم» ، أن المقدر لها هو المجازى عليها ، إن شاء عاقب، وإن شاء غفر ؛ إذ لاحجر عليه آخراً ، كما لاحجر عليه أولا . فافهم ثم ذكر علة حال الواصلين فقال :

لأَنهم لله لالشيء دونه.

قلت : يعنى : وبالله لابشيء سواد فلا التفات لهم لغيره فى فقدان ولاوجدان ولاطاعة ولاعصيان ، إذ كان لهم فكانوا له بلا علة من نفوسهم ، فهم هم رضى الله عنهم ، كما قيل :

هم الرجال وغَبْنٌ أن ية ال لن لم يتصف عِعالى وصفهم رجل

ثم ذكر الاية التى تجمع حقائقهم على وجه الاستدلال لمقامهم (٣) (قل الله ثم ذرهُم في خوضهم يلعبون) (٤) قلت توقيع هذه الآية على هذا الموضع لايم بالقول ، إنها ليست بجواب لما قهلها وهو قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الله عائم عن كل شيء سواه ، وهو صريح في غير هذه بها ، فالتقدير : حسبي الله ، أي : اكتفيت به عن كل شيء سواه ، وهو صريح في غير هذه الاية ، ومعنى ذرهم : أتركهم ، في خوضهم يلعبون : يتشاغلون بكل شيء لاحقيقة له ؛ لأن اللهب التشاغل عا لاحقيقة له ، والوجود كله كذلك من حيث التحقيق .

(٢) وفي نسخة : على العاقلة .

⁽١) وفي نسخة : لأنهم لم يروا لأنفسهم عملا .

⁽٤) آية ٩١ من سورة الأنبام.

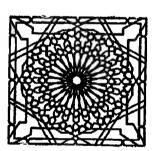
⁽٣) وفي نسخة ; لمقاصدهم .

أصدق كلمة قالها الشاعر «لبيد^(١)»:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهُ بَاطُلُ .

وسيئاني هذا المعنى في كلام المُؤلف متعددا(٢) ، وبالله التوفيق .

تنبيه : بساط المعرفة تزكية النفس وتطهييرها من العيوب ، فمن أَرادها فعليه بذلك ؛ لقوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فلا تشغل نفسك بطلب العرفان وغيره من العيوب، ولكن مما فيك من القبائح والعيوب ، وهذا ما افتتح به الباب الثالث إذ قال :



⁽١) هو ؛ ابيد بن ربيعة بن مالك العامري ؛ شاعر محضرم معمرعاش في الجاهلية وأدرك الإسلام . نم توفي سنة ٤١ ه – ٢٩١١م .

⁽٢) وفي نسخة ؛ بعد ، بدل : متعدداً .

** احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: القـــراء المداهنين ٠٠ والتصوفة الجـاهلين ٠٠ والجبابرة الفــافلين ٠٠



** كن طالب الاستقامة ٠٠ ولا تكن طالب الكرامة ٠٠ فان نفسك تهزك لطلب الكرامة ٠٠ ومولاك يطالبك بالاستقامة ٠٠



.

.

•

•

.

•

وقال رضى الله عنه تشوفك إلى مابطن فيك من العيوب خير لك من تشوفك إلى ماحُجب عنك من الغيوب .

قلت : العيوب جمع عيب ، وهو ما أوجب نقصاً فيمن نسب إليه معصية أو غيرها جارياً كان فى الأفعال أو فى الأخلاق أو فى الآداب متعلقا بالله أو بعباده ، ثم هى على قسمين : ظاهرة آز جلية ، وباطنة خفية ؛ فالنظر فى الجلية وإزالتها سهل قريب وإزالة الخفية والنظر فيها مشكل صعب ، وقد مر منها جملة كالاعتاد على العمل ، وإرادة غير ما أقيم فيه العبد ، والتدبير مع الله ، والاستعجال فى الدعاء ، والتشكك فى الوعد والاعتراض عند فوت المراد ، وفقد الاخلاص ، وحب الشهوات(۱) ، وإيثار الخلطة وانطباع الاكوان فى مرآة القلب وتعلقه بالشهوات واسترساله مع الغفلة ، وقلة المبالاة بالهفوة ، والاحتجاب عن الحق برؤية الاكوان وإرادة غير حكم الوقت ، وإحالة العمل عنى الفراغ وطلب حالة غير التي أنت فيها ، والوقوف عندما يبدوا من كشف ونحوه ، والطلب منه ، وطلبه ، والطلب من غيره ، ولغيره ، وترقب الفراغ ورؤية صفو الدنيا ، وطلب الاشياء بالنفس والرجوع لغير الله فى البداية ، إلى غير ذلك مما دخل فى طى ماذكرنا وما بأتى فى الكلام بعد مما فى معناه ، فافهم .

والغيوب جمع غيب ، وهو ما استتر عن الخلق ، وينقسم إلى حسى ومعنوى . وشأن النفس إهمال العيوب وطلب الغيوب ، والمطلوب العكس ؛ لوجوه ثلاثة :

أحدهما أن الاشتغال بالعيوب حق الأدب وطلب الغيوب قد يجر إلى العطب . .

الثاني : أن الاشتغال بالعيوب يجر لكمال وطلب الغيوب ربما وصل للضلال .

الثالث : أن الاشتغال بالعيوب أداء حق الربوبية وطلب الغيوب تفويت لحق العبودية ، وقد قالوا «كن طالب الاستقامة ولا تكن طالب الكرامة ، فإن نفسك تهزك لطلب الكرامة ، ولان تكون بحق ربك أولى مِن أن تكون بحظ نفسك » انتهى .

⁽١) وفي نسخة ؛ وحب الشهرة .

ثم حجاب الغيوب إنما هو وجود العيوب ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال : الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه .

قلت: أما أن الحق ليس تمحجوب فقد تقدم من براهينه مالا مزيد عليه ، وأما أنك المحجوب عن النظر إليه فلا يحتاج إلى دليل ، لكن حجابك على وجهين : حجاب بصر ، وحجاب بصيرة ، فحجاب البصر عيبك الأصلى الذى هو النقص والفناء ، ولا زوال لهما إلّا فى الآخرة ؛ فلا رؤية به إلّا هناك ، كما جاء به الخبر عن الصادق صلى الله عليه وسلم . وحجاب البصيرة : عيبك العارض ، فإذا زال كشفت لك الحقيقة ، قال فى «لطائف المنن» : «و إنما حجاب الغيوب وجود العيوب به ؛ فالتطهر من العيب يفتح باب الغيب ، ولا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولايطالب نفسه لربه ، فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله ، ولا واجههم المدد من الله ، والمؤمن ليس كذلك بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولايطالب ربه لنفسه ؛ فإن توقف عليه الحال الستبطأ أدبه ولا يستبطى عمطلبه » انتهى .

ثم ذكر برهاناً عجيباً في أن الحق ليس محجوب فقال :

إذ لوحجبه شيء لستره ١٠ حجبه ، ولو كان له ساتير لكان لوجوده حاصراً وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ، وهو القاهر فوق عباده .

قلت : جملة هذا البرهان : أن الحجاب ساتر ، والساتر حاصر ؛ لأنه يحصر المحجوب في جهة منه ، وكل حاصر قاهر والرب تعالى قاهر غير مقهور ، كما قال تعالى (وهو القاهر فوق عباده) فوقية معنوية ، كما يقال : السيد فوق عبده ، والسلطان فوق الوزير والآمر فوق المأمور ، يعنى أن جلالته ظاهرة ومزيّته أعلى من مزيّته ؛ فهو العلى في المنزلة أو المزية (١) أو المكانة ؛ إذ يعنى أن جلالته شيءٌ وهو السميع البصيرُ » ثم بين أصل العيوب وذكر وجه المخلص منها ، فقال : أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك .

قلت : أوصاف البشرية : مالا يكون البشر بشراً إلّا به من العوايد والأسباب والأخلاق وغيرها ، ثم هي قسمان : أوصاف موافقة للعبودية كالطاعة ، والعفة واليقظة ، وأوصاف مناقضة للعبودية كالمعصية والشهوة والغفلة ، فالخروج من المناقضة . بالعمل بالموافِقة ، وإنما أمرت بذلك لعلّة ذكرها بأن قال :

⁽١) وفي نسخة : فهو العلي في المنزلة والمزية ، والمكانة لا المكان ,

لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً.

قلت: أما نداء الحق فهو خطابه الجارى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله (يابى أدم. يأبها الناس . يأبها اللين أوتوا الكتاب . يأبها الذين آمنوا . .) وقد قال جعفر الصادق ، وضى الله عنه ، : «إذا سمعته يقول : يأبها الذين آمنوا . . فاصغ إلبه ، فإنما هو أمر أو نهى . وإجابة ذلك على الحقيقة ثلاث : تصديقه ، والعمل به ، وإرادة وجهه تعالى بالعمل ، وبذلك ينكون القرب من حضرته أى دائرة ولايته واختصاصه » . فقد قال ؛ الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : إذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب العبودية لله بين عينيه ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلّب فى عبوديته والحظوظ عنه مستورة مع جرى ما قدر له لايلتفت إليها كأنه فى معزل عنها ، وإذا أهان الله عبدا فى حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته فهو يتقلّب فى شهواته وعبودية الله عنه معزل وإن كان يجرى عليه شيء وستر عنه عبوديته فهو يتقلّب فى شهواته والصيانة في الله عنه عبول وإن كان يجرى عليه شيء فالحقوق والحظوظ سواء عند ذوى البصائر لأنه بالله فها يأخذ ويترك انتهى . وهو عجيب . فالحقوق والحظوظ سواء عند ذوى البصائر لأنه بالله فها يأخذ ويترك انتهى . وهو عجيب . ثم أصل العيوب ومقابلها ، وأصّل كل أصل منها ليثبت بالأصل وينبى به فيكون أتم فقال :

أصل كل معصية وشهوة وغفلة : الرضا عن النفس.

قلت: المعصية: مخالفة أمر الله الواجب، والشهوة: الاسترسال مع النفس في طلب المستلدات، والغفلة: إهمال الحقوق المندوبة والواجبة بالاسترسال مع دواعي الهوى. والرضا عن النفس، علامته ثلات: رؤية الحق لنفسه، والشفقة عليها، والإغضآء عن عيوما بتزكيتها من حيث إنه يرى قبيحها حسناً بالتأويل، لا أنه يعلم العيب ثم يغضى عنه وإن كان نوعاً منه، وأنشدوا في ذلك:

وعين الرضاعن كل عيب كليلة ولكنَّ عين السخط تُبدى المساويا وهذا الشطر الثانى يوافق المعنى الثانى الذى ذكره المؤلف إذ قال:

وأصل كل طاعة وعفَّة ويقظة عدم الرضا منك عنها .

قلت : وهو السخط عليها أو ماهو أعم منه ، وله علامات ثلاث : اتّهامها ، والحذر من آلها عنه : «من آله عنه : «من

لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها في جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه فهو مغرور ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ، والكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب يقول (وما أبرى عنفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلّا مارحم رنى) انتهى .

والطاعة : موافقة أمر الله ، واجباً كان أو مندوباً . والعفه : ترك الدناءة من كل شيء . والبقطة : الانتهاه لأمر الله سبحانه ثم لابد للانسان في تبصره عيبه من معين : أخ قاصح أو شيخ صالح لابتلائه بالاغضاء عن نفسه ، وشرط ذلك المعين أن يكون بريئاً عن الرضا عن نفسه ، فلذلك قال :

ولأن تصحب جاهلا لايرضي عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضي عن نفسه .

قلت : سواءً كان شيخاً أو قريناً أو تابعاً ؛ لأن الذى لايرضى عن نفسه قد جمع مناقب ثلاثاً وإن كان جاهلا ، وهي : الانصاف من نفسه ، والتواضع لعباد الله ، وطلب الحق بالصدق، وقد قال عمار رضى الله عنه : « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الانصاف من نفسه (۱) وبذل السلام للعالم ، والانفاق من الاقتار » انتهى .

فصحبة من هذه أوصافه نقتضى ثلاثاً: اكتساب هذه المحاسن منة ؟ لأن المرة على دين خليله ، وراحة القلب مع البدن من معاناته ، وسلامة الدنيا والدين من التكلّف ، والراضى عن نفسه قد باء بثلاث: الكبر ، وقلّة الإنصاف والتصرف بالرياسة ، فصحبته تورث ثلاثاً: العبودية له ، والتكلف والقطيعة أخر الأمر ؛ لأنه يرى لنفسه من الحق ماليس له ، فلا يُبالغ رضاه ، ثم لايغفر زلّة ، ولا يقيل عثرة ، ولا يرجع لربه (٢) . وذلك مالا يصح معه ألفة ، ثم إن كان عالماً فعلمه زيادة في شره ، وإن كان جاهلا فجهله بلاءً عليه وعلى صاحبه ، وإن كان رئيساً فلا يُنتفع بالدنيا ولا بالدين معه فلذلك قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : «احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس : القراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين ، والجبابرة الغافلين » انتهى .

ثم الصاحب إنما يراد لثلاثة : النصيحة ، والشفقة ، والاعانة . وكلها من الراضي عن نفسه مفقودة الجهله عقدار نفسه وغفلته بذلك عن حقوق صاحبه ، وإن أتى بشيء من ذلك أعجب به

⁽١) وفي نسخة ، النفس.

⁽٢) وفي نسخة ؛ لرأي .

حتى يود الإنسان أنه لم يره ، وذلك من جهله بنفسه ، وهو رأس الجهل ، كما أن عدم الرضا عنها من العلم بها ، ولا علم فوقه ، فلذلك انقلبت أحكامها كما قال :

فأًى علم لعالم يرضى عن نفسة ، وأَىّ جهل لجاهل لايرضي عن نفسه .

قلت : انقلبت حقائقها لانقلاب الأحكام عندها ؛ لأن من حقائق الجهل ثلاث : الفرار من الحق ، واتباع الباطل ، والحكم بما لايصح . وهذا حال الراضي عن نفسه . ومن حقائق العلم : العمل بالحق ، ومجانية الباطل ، وإعطاء كل شيء ما يليق به ، وهذه لاتوجد إلا بمن لا يرضي عن نفسه ، فالعلم بالصورة لاعبرة به ، إنما هو صناعة ، والجهل بالصورة لاضرر على صاحبه إذ يحصل ما يحتاج إليه بسؤاله مع سلامته في حاله . والآخر كلما ازداد مسألة ازداه جهلاً بربه ولنفسه ، وقد قال سفيان الدوري رضي الله عنه (١) : إنما يتعلم العلم ليتقى الله ، وإنما فضل العلم غيره لانه يتقى الله به ، وقال سفيان بن عينية (١) ، رضي الله عنه ، : إذا كان ليلي سفيه ونهاري جاهل فما أصنع بالعلم الذي اكتسب؟ » .

وقال مسروق رضى الله (٣) عنه: «كنى بخشية الله علماً وكنى بالاغترار بالله جهلا» انتهى . وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم لاينفع ، وقال : «أشد النا ، عذاباً عالم لم ينفعه الله بعلمه . . . الحديث » ثم الذى ينفى كل عيب ، ويذهب بكل ريد وريب ، إنما هو العلم بالله ؛ إذ به تتم الخشية لله . والناس فيه مراتب بحسب الأشهاد والشه د . ومرجع ذلك لمراتب ثلاث ، ذكر المؤلف أولها بأن قال :

شعاع البصيرة يُشهدُك قربه منك.

قلت : هو تعالى قريب أبداً وشهود العباد له على تر انوار بصائرهم ، وشعاع البصيرة :

⁽۱) هو : أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من مصر ، أمير المؤمنين في الحديث وكان أفضل أهل و ماقه علماً و تقوى . ولد في الكوفة سنة ٩٧ هـ - ٧١٦ م . عرض عليه المنصود العباسي أن يتولى الحكم فأبي . خرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ ١٤٤ هـ الكبير والمجامع الصغير وكلاهما في المدينة ثم مات بالبصرة سنة ١٦١ هـ ٧٧٨ م ، له من الكتب : الجامع الكبير والمجامع الصغير وكلاهما في الحديث . ولابن المجوزى كتاب في مناقبه وانظر ابن النديج جا ص ٢٧٠ . والأعلام ج ١ ص ٣٧٥ ، ودول الإسلام ج ١ ص ٨٤ (٢) هو : سغيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي . محدث الحرم . كان حافظاً ثقة واسع العلم كبير القدر قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ولد بالكوفة سنة ١٩٥ م ، ٧١٥ م ، ومات بمكة سنة ١٩٨ م ، له كتب كثيرة في التفسير والحديث . افظر تذكرة الحفاظ ط ج ١ ص ٢٤٢ .

 ⁽٣) أبو العباس أحمد بن محمد مسروق , من أهل طوس ، سكن بغداد وصحب الحاوث المحاسبي وأخذ الحديث عن كثيرين .
 تونى ببغداد سنة ٢٩٨ هـ .

هو نور العقل الهادى إلى الإيمان الذى غايته الاثبات فى محله والذى فى محله فمن اطلع فى أفق قلبه شاهد قُرب الحق منه فراقبه فى حركاته وسكناته حتى لايراه حيث نهاه ، ولايفقده حيث أمره ، حتى إذا تم الايمان وانفتح عين البصيرة لعين اليقين انطوى القرب فى عموم التعريف، فشهدت الحقيقة عدم كل شيء لوجود الحق كما قال :

وعينُ البصيرة تشهدك عدمك لوجوده .

قلت : وذلك نفس الحقيقة ؛ لأن كل شيء عدم لوجود الحق ؛ إذ لاوجود لشيء إلّا منه ، ولاقيام لشيء إلّا به ؛ لانه الغني عن الكل والكل مفتقر إليه ، فعين البصيرة : هو نور الإيمان الهادى إلى التحقيق ، وثمرتة : نرك التدبير والاستسلام لحكم المقادير . ثم إذا حصل التحقيق بذلك انتقل الحال فعاد يرى الخلق لاعبرة بهم في وجود ولاعدم ؛ لرجوع كل شيء له تعالى . وذلك حق البصيرة كما قال :

وحق البصيرة يُشهدُك وجوده لاعَدمك ولا وجودك.

قلت : نور الحقيقة القاضى بالتحقق بحقائق العلم بقرب الحق هو حق البصيرة . وبه يظهر أن الكون لانسبة له فى عدم ولا فى وجود ، وأن العبرة إنما هى بوجود الحق سبحانه وحده؛ لأن الحادث إذا قورن بالقديم تلاشى الحادث وبنى القديم .

ولهذه المواقف الثلاث أشار الشيخ محيى الدين حيث قال : «من شهد الخلق لافعل لهم فقد فاز ، ومن شهدهم لاحياة لهم فقد حاز ، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل» انتهى .

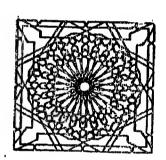
ثم استشهد المؤلف للمقام الأنحير بحديث ذكر لفظه بأن قال :

كان الله ولا شيء معه وهو الآن ما عليه كان .

قلت : يعنى : أنه لاشىء معه فى أبده ، كما لم يكن معه شىء فى أزله ؛ لانه الواحد الأَحد أزلا وأبداً . قيل لبعضهم ؛ أين الله ؟ قال ، حيث كان قبل أن ينخلق المكان . قيل : فأين كان ؟ قال : حيث هو الآن . يعنى إنه لايُعرف بالأَين ، ولابالكون. وشهود ذلك بجريانه فى عوالم القلب حتى لايبتى فيها متسع للغير كما قيل :

فلم يبق إلا الحق لم يبق كائن فما ثم مجموع ولاثم باين بذا جاء برهان العيان فما أرى بعينى شيئاً غيره اذا أعاين(١)

تنبيه ! إذا تحققت المعرفة بقرب الحق أو بعدم كل شيء لوجوده ، أو بانتفاء كل شيء لوجوده ، فني من لم يكن وبقى من لم يزل ، فعكفت الهمة عليه بنسيان غيره ، كما أشار إليه في افتتاح الباب الرابع :



⁽۱) وفی نسخة ; غیر ما أنا عاین ، وفی أخرى ۽ غیر من هو کائن .

		•

البصيرة ثلاثة: ارسال الجوارح في معاصى الله ٠٠ والطمع في خلق الله ٠٠ والتصنع بطاعة الله!



* الشيخ أبو العسن الشاذلى رضى الله عنه: رضى الله عنه: يست من نفع نفسى لنفسى ٠٠ ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى!!

	•		

وقال رضى الله عنه : لاتتعد نَّية همَّتك إلى غيره .

قلت: يقول: لاتتجاوز بقصد همتّك إلى غير مولاك بطلب ذلك الغير ولا الطلب منه ، بل اجعله مكان همتك اكتفاء به واقتصاراً على ما عنده ؛ اقتداء بنبى الله يوسف عليه السلام حيث قال عند خروجه من السّجن: «حسبى من دنياكم دينى ، وحسبى من دينى ربيّ ، وبخليل الله ابراهيم عليه السلام: إنه قال وهو في المنجنيق: حسبى من سؤالى علمه بحالى ». حتى لقد قال الشيخ ابو العباس المرسى رضى الله عنه في قوله تعالى (وابراهيم الذكى وفّى (١))

قال بمقتضى قوله «حسبى الله».

ثم ذكر المؤلف علة من يقتصر بهمته على المولى جلت قدرته فقال :

فالكريم لاتتخطاه الآمال.

قلت : يقول : فالكريم ذاتاً ووصفاً وفعلا لا تتخطاه آمال المؤمنين إلى غيره بطلب ذلك الغير ولا بالطلب منه ؛ لأن جماله يُغنى عن اختيار غيره ، وإحسانه يصرف الوجه له دون غيره ، لاسيّما ولاغيره إلّا به وله ، فالرجوع إليه أولى بكل حال لمن يعقل ؛ فقد جاء في بعض الآثار: «يقول الله تعالى : عبدى اجعلنى مكان همك أكفك كلّ همك ، ما كنت بي (٢) نمأنت في محل القرب ، وما كنت بك فأنت في محل البعد ، فاختر لنفسك » أو كما قال ، ثم ذكر رفع الحوائج لغيره ، وأنه لايصح فقال

لاترفعنَّ إلى غيره حاجة هو موردها عليك.

قلت : يقول : إنه هو الذي أورد عليك الاحتياج ، وقد عرفت أنه غنى ، قدير ، قوى ، ومن سواه لاغنى له ولاقوة ولاقدرة. وإذا كان الامر كذلك فرفعها للعاجز الفقير الضعيف لايصح ، وقال الله تعالى : (و إِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضِرٍ فَلَا كَاشِفَ لَه إِلا هُو و إِنْ يُردُكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادّ لِفَضْلِه (٣) وقال الله تعالى : (و إِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضِرٍ فَلَا كَاشِفَ لَه إِلا هُو و إِنْ يُردُكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادّ لِفَضْلِه (٣) وقال تعالى : «و إِنْ يمسلك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهُو القاهِرُ فوق عبادهِ وهو الحكيمُ

⁽١) آية ٣٧ من سورة النجم .

⁽٣) من آية ١٠٧ من سورة يونس

الخبير (۱) قال بعض العارفين المكاشفين ، رضى الله عنهم : «قيل لى فى يقظة كالنوم ، أو نوم كاليقظة : لاتُبدين فاقة إلى غيرى فأضاعفها عليك مكافأة بسوء أدبك وحروجك عن حديك فى عبوديتك ، وإنما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إلى ، وتتفرغ (۲) بها لدى ، وتتوكّل فيها على ، سبكتك بالفاقة لتصير ذهبا خالصاً فلا تزيف بعد السبك ، وسَمْتك بالفاقة ، وحكمت لنفسى بالغنى قإن وصلتها بي وصلتك بالغنى ، وإن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معوننى (۳) وحسمت أسبابك من أسبابي طرداً لك عن بابي ، فمن وكلته إلى ملك ، ومن وكلته إليه هلك ، انتهى .

وهو كلام عظيم النفع والموقع لمن تأمَّله ، وبالله التوفيق . ثم تعجب المؤلف من رفع غيره ماوضعه فقال :

أَ فكيف يرفع غَيرهُ ماكان له واضعاً .

قلت : ذلك مالايصح بوجه ولابحال ؛ لاتصافه تعالى بالعز والغنى والاقتدار ، واتصاف الغير بالعجز واللل والافتقار ، وهو مابيّنه ؛ إذ قال :

من لايستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً ؟

قلت : من كان عاجزاً عن الرفع والنفع في حواتجه فهو عن غيره أعجز ، ليت الكل يوجه نفسه لذلك قال بعضهم : استغاثة المخلوق كاستغاثة المسجون .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، رضى الله عنه ، : يئستُ من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى .

وسئل رضى الله عنه عن : الكيمياء؟ فقال : اقطع طمعك من الله أن يعطيك غير ماقسم لك ، ومن الخلق أن ينفعوك أو يضروك» انتهى .

ثم الاكتفاء بالله ، وأعلى أسبابه : النظر لكمال وصفه ، والجميل لايفعل إلا جميلا . وأدناه أن تنظر إلى إحسانه السابق فتسر به لافضاله اللاحق ، وقد أتى مهذا المؤلف كما ذكرنا فقال : إن لم تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه حسن ظنك به لوجود معاملته معك .

قلت : حُسن الظن به تعالى لاجل وصفه : أن تنظر لكماله في جلاله وجماله فتعلم أنه جميل

⁽١) من سورة الأنعام آية ١٧ ، ١٨ .

⁽٢) وفى نسخة : و تتفرع

⁽٣) و في نسخة : موانتي .

والجميل لايفعل إلا جميلا ، فتقطع الامال عن سوى فضله لما تحققته من كمال وصفه ، وحسن الظن به لمعاملته معك : هو أن تنظر إلى إحسانه السابق وإفضاله اللاحق فتجدك مغموساً و منته مغموراً في إكرامه ورحمته فيحملك ذلك على حسن الظنّ به قيا تؤمله منه ، وقطع النظر عن ، هل يكون أو لا يكون ، وتستعين على ذلك عاشاهدته من فعله الجميل ، كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

فهل عوّدك إلَّا حسَناً ، وهل أَسدى إليك إلا مننا .

قلت: يقول: تأمَّل تجدمامنه إليك إنما هو إحسان من أفضاله ، وعطاءٌ من امتنانه ، أو جدك من العدم ، وأمدك بالنعم وخصصك بالكرم ، وجعلك مؤمثاً من غير سائفة ولاقدم ، إنما هو جوده وكرمه ، وقال أبو حبيبة البدوى – رحمه الله – : «لم فر خيراً قطَّ إلَّا من ربنا فمالنا نكره لقاءً من لم نر خيراً قط إلَّا منه ؟ !

قال الشيخ أبو الحسن الشاذل ، رحمه الله تعالى ، : أنا لا تحب إلا الله فقال له رجل ؛ قد أبى ذلك جدك ياسيدى بقوله : جبلت القلوبُ على حبّ من أحسن إليها .

فقال : إثا لم نر محسناً إلا الله ، ولم نحب سواه .

وقال عليه الصلاة والسلام : (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى بحب الله ... الحديث) والناس ثلاثة أقسام : قسم حسن ظنه بالله تعالى لاجل وصفه ، وهو أعلى من الذى بعده ، وقسم أحب الله وحسن الظن به لأجل إحسانه ، وهو دون الذى قبله ، وقسم أحب مولاه وحسن الظن به لهما ، وهو أتم حالا منهما ، وعليه يدور كلام رابعة العدوية حيث قالت :

أحبُّك حُبيْن : حبّ الهوى وحبًا لأنك أهـل لذاكا فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا ولا حمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ثم العبد مفتقر إلى مولاه فى كل أحواله ؛ قلابد له منه ، ولاغنى له عنه ، وفراقه للخلائق لازم ومع ذا يركن إليهم دون مولاه !! وهذا عجيب من الأمر كما ثبه عليه المؤلف إذ قال ؛ العبجب كل العجب بمن يهرب بما لاانفكاك له عنه ، ويطلب مالا بقاء له معه .

قلت : مالاانفكاك له عنه : هو مولاه وما كان المرجع إليه بخير الصادق من الآخرة وما فيها.

ومالا بقاء له معه : هم الخلائق والدنيا التي إن لم يفارقها بالحياة فارقها بالممات . وإنما عجب منه لثلاث : نركه المهم مع اشتغاله بالباطل ، وإعراضه عن مولاه بما لاحقيقة له ، وعدوله بما لا يغنيه بدلا بما لا غنا له عنه . ثم ذلك إنما هو من عمى البصيرة ؛ إذ وضع الشيء في غير محله وأتى به على غير وجهه : فقدم ما شأنه التأخير ، وأخر ما حقه التقديم . وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال :

فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

قلت : وقع مهذه الآبة هذا الإشعار بأن ماذكره من عمى البصيرة أنه هو العمى الحقيق ، فالتقدير فإنها لاتعمى الأبصار عما يعود على صاحبها بالضرر ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، أو فإنها لاتعمى الأبصار على الحقيقة ، وإنما عماها من القلوب التى فى الصدور أو فإنها لا تعمى الأبصار عن درك الحقائق إذ ليست محل إدراكها ، ولكن العمى عمى القلب عن ذلك ؛ لأنه محل إدراكه . وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : عمى البصيرة فى ثلاثة أشياء : إرسال الجوارح فى معاصى الله ، والطمع فى خلق الله ، والتصنع بطاعة الله ، فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه فقلبه هدف لظنون النفس ووساوس الشيطان» .

ثم ذكر التوجه للمخلوقات عثال تقبيح في وجه من التحقيق فقال:

لاترحل من كوْن إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل عنه .

يقول : لاتنتقل عن نفسك لِمثلها لا في طلب ذلك المثل ولا في الطلب منه ، فإن فعلت كنت كحمار الطاحونة في سير دائم وتعب متصل من حيث خرج إلى ثم عاد ، لاهو استراح ولاقطع المافة ، وهو يرى أنه في عمل يعود عليه بالنفع ، وما هو إلّا كما قيل:

فما هو مقتول فنى الموت راحة ولاهو ممنون عليه فيعتــــق من فقير خرج ، وإلى فقير توجه . قال بعضهم فى قوله تعالى : (هَلْ يَسْتمعونَكُم إِذْ تَدْعُون . . . الآية(٢)

استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون، انتهى.

⁽١) وفى نسخة : رالتضييع لطاعة الله .

⁽٢) أبنة ٧٢ من سورة الشعراء _م

تُم قال :

ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون .

قلت : بأن لاتريد سواه ، ولا تعرف فى الدنيا والاخرة إلا إياه ، فلا تطلب إلا هو ، ولا تطلب إلا هو ، ولا تطلب إلا منه ، فقد قال ابن السَّماك ، رحمه الله : كتب إلى أخ لى أن لا تكون لعبد الله عبداً ما وجدت من العبودية له بدًا (١).

قال أبو الحسن الشاذلى، وضى الله عنه (٢) ، قف بباب واحد لالتفتح لك الأبواب ، تفتح لك الأبواب واختص للك أبواب واخضع للك واحد لالتخضع لك الرقاب . قال الله تعالى : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) . اه وهذا معنى ما أشار إليه بالآية إذ قال :

وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتهي .

قلت : يعنى : منتهى كل شيء بدأ ؛ لأنه المبدىء المعيد الفعال لما يريد ، فالذى ترجوه من الخلق لايتيسر إلا بتيسير الحق فدع كلاً جانباً واتخذ مولاك صاحباً ، رجوءاً لقوله عليه السلام : «أنت الصاحب في السفر والخليفة في الاهل» ولقوله عليه السلام : إليك انتهت الأماني ياصاحب العافية ». ويرحم الله القائل في معنى ذلك :

أيحسن أنى في داركم ونزيلكم أوجه يوماً للعباد رجائي ؟

لبيك اللهم وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، والرغبة والعمل منك وإليك . ثم وقع المؤلف بالحديث فيا هو بصدده فقال :

وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله

قلت : يعى : واعمل على ذلك بأن تهاجر إلى الله ورسوله ؛ فلا تتوجه إلى غيره ، إذ هو الله ورسوله ، إذ هو الله ورسوله (٣) ومن كان في الله تَلَفه كان على الله خَلَفه ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم بدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، حسب فقير ذليل يقع أجره على غنى عزيز كبير . ويرحم الله سيدى إبراهيم الداراني حيث قال :

 ⁽١) وزادت بعض النسخ العبارة الآتية (إن استطمت أن لا تكون لغير الله عبداً ما وجبدت من العبودية بدآ فافعل ، قال بعضهم : إياك أن تلاحظ مخلوقاً وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً) وفي نسخة أخرى يداً (بدل بداً) .

⁽٢) وفي نسخة قف ببات واحد تفتح لك الأبواب واخضع لمالك واحد تخضع لك الرقاب .

⁽٣) وَفَى نَسْمَعَةً ؛ فلا تَتُوجِه إلى غيرِه ، إذ الله ورسوله هو الله . ومن كان الخ -

كمال الله أكبر من كمالى فللَّة الكمال ولا مُمارِ وحب اللهِ أفضل كل شيء فلا تندى التخلق بالوقار وحب الله أفضل كل شيء وأروى من زلال للأوار (١) وذِكر الله مرهم كل جرح وأروى من زلال للأوار (١) ولا سوجود إلا الله حقا فدع عنك التعلق بالغيار

ئم ذكر المؤلف تمام الحديث فقال:

ومن كانت هجرته إلى ديا يصيبها أو اءرأة ينزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

قلت : قيل ذكر المرأة لأنها بين مراتب الدنيا والدين ، وقيل : لأنها أعظم فتن الدنيا . وقيل : ذكرها ليببه على المتصلات وقيل : لأنها المهم فى الوقت ؛ لأن الحديث وقع على سبب ، وقيل : ذكرها ليببه على المتصلات وغيرها المنفصلات ثم اكتبى بالاشارة عن إعادة ما ذكر من الدنيا والمرأة ، ولم يفعل ذلك فى ذكر الله ورسوله ، ولهذا أشار المؤلف بطلب الفهم والتفهم إذ قال :

فافهم قوله صلى الله عليه وسلم : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

فلت : يعنى مع قوله فهجرته إلى الله ورسوله كيف كرر فى الاول ولم يكرر فى الثانى ؟ نجد الدلك وجوها منها : أنه كرر ذكر الله ورسوله اعتناء بهما وأهمل ذكر الدنيا والمرأة احتقارا لهما ، ومنها : أنه كرر الاول تحقيقاً للثبوت والعظمة وترك الأخير تنبيها للنبي وعدم الجدوى (٢)، فإذا فهمت ذلك الفهم خرج منه « لا عبرة بشيء سوى الله ورسوله وهو الحق المبين والصراط المستقيم » . ثم قال :

وتدبر هذا الامر إن كنت ذا فهم والسلام .

قلت : الاشارة بهذا الأَمر لِما يقتضي الحق والحقيقة من نفي السوى والرجوع إلى المولى .

و إنما خص هذا الموضع بالسلام لأن المسألة قد أخذت به حقها أمرا ونهيأ وخبرا وبرهانا ودليلا شرعيا ومثلا مضروبا ، وأصلًا ، وفرعا وقرآنا وسنة واعتبارا . إلى غير ذلك . والله أعلم . تنبيه :

وكما يتعين أن لا تنظر إلا إلى الله في جميع أحوالك يتعين أن لا تصحب إلا من شأنه ذلك ، بن شأنه من لا هو على العكس .

⁽¹⁾ الأوار : المطش الشديد .

⁽٢) وفي تسخة : وأهمل الآخبر الاستثقال وذكر الأول الاستطابة .

** من دلك على الدنيا فقد غشك .ومن دلك على الله فقد نصحك . .



* ليس الزهد بتحريم العلال ٠٠ ولا باضــاعة المال ٠٠ انما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك!!

	· .		
		ı -	
,			

إذا قال :

وقال رضى الله عنه لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله .

قلت : الذى لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله هو الذى لم ينازل الحقائق ، ولا همته عن الخلائق ، بل هو الراضى عن نفسه المترفع على أبناء جنسه ، الذى يعتد بعلومه اله ويحمد نفسه في إدباره وإقباله ، وإن كثرت أعماله وعلومه ، واتسعت أنظاره وفهومه . ينهض حاله ويدل على الله مقاله : هو الذى رفع همته عن الخلائق ، وامتلاً قلبه بمشاهدة ائق ، فإذا نظرت إليه وجدته مشغولا بالله ، وإذا تكلم فإنما يدلن على الله .

وقال أيضا ، رضى الله عنه ، : « أوصانى خليلى فقال « لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو به الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا ، وقليل ما هم ، » .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : بابن عمران كن يقظان ، وارتد لنفسك النا ، وكل أخ أو صديق لا يؤازرك على مسرتى فهو لك عدو ، ويقسى قلبك ، ويباعدك ومن آفات صحبة من لا ينهض حاله ، ولا يدل على مقاله ، روية المرة نفسه بعين الكمال ، ا فبه عليه المؤلف إذا قال :

وربما كنت سيمًا فأراك الإحسان منك صُحبتك لن هو أسوأ حالا منك .

قلت ؛ يقول الله : إنك إذا صحبت من هو أسوأ حالا منك ربما رأبت بذلك الاحسان نفسك لما جبلت عليه النفوس من استشعار فضيلتها عند مشاهدة من هو دومها . والمعتبر في هذا المهمة والحال ، لا العلوم والاعمال ، قال سيدى أبو عبد الله بن عبّاد ، رضى الله عنه ، برجيز هذا الموضع في أرجوزته ما نصه :

إن التواخى فضله لا ينكر وإن خلا من شرطه لا يشكر والشرط فيه أن تؤاخى العارفا عن الحظوظ واللحوظ الصارفا مقاله وحاله سيّان ما يدعو إلا إلى الرحمن أنواره دائمة السراية فيك وقد حفت بك الرعاية وقاصد الفاقد هذا الشرطا بصحبة يعقدها قد أخطأ لكونه يرى بها محاسنه فنفسه ذات اغترار آمنة

وقال الشيخ أبو الحسن ، رضى الله عنه ، : سألت أستاذى عن قوله عليه السلام : د يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ، قال : يعنى دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره ، فإن من دلَّك على الدنيا فقد غشك ، ومن ذلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلَّك على الله فقد نصحك ، انتهى

ثم من علامة الحالة المنهضة إما هو الغِنا بالله ، والثقة به ، وعلامة ذلك إما هو الزهد في الدنيا ، لا كثرة الاعمال والعلوم ونحوها ، فلذلك قال :

ما قل عمل بوز من قلب زاهد ولا كثر عمل بوز من قلب راغب .

قلت : يقول : العمل القليل من الزاهد ليس بقليل ؛ لفراغ قلبه وسلامة وقته ، وحضوره في عبادته ، والعمل الكثير من غير الزاهد ليس بكثير ؛ لمزاحمته بالأضداد ، لأن حقيقة الزهد برودة الدنيا على القلب ، وذلك من أصل الثقة بالله ؛ فقد جاءً في الخبر : « ليس الزهد بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، إما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتان من عالم زاهد خير وأحب إلى الله تعالى من عبادة المتعبدين الراغبين أبدا سرمدًا . وقال الشيخ أبو الحسن ، رضى الله عنه ، : « رأيت الصديق في المنام ، فقال : أتدرى ما علامة خروج الدنيا من القلب ؟

قلت : لا ، قال : بذلُها عند الوجود ، ووجود الراحه منها عند الفقد ، انتهى .

شم برهن على ما ذكر بـأن قال :

حسن الأعمال نتائج حُسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقيق في مقامات الإنزال.

قلت : حسن الأَعمال : جمالها وكمالها ، وكذلك حسن الأَحوال . والأَعمال عبارة عن

الحركات الجسمانية ، والأحوال عبارة عن الحركات القلبية ، ومقامات الأنزال عبارة عما نازل القلب من المعارف ونحوها . فمن كانت معرفته أتم كان حاله أحكم ، ومن كان حاله أحكم كان عمله أكمل . وهي ثلاث مراتب ، بعضها على بعض يدور دورانا كما يقول الامام أبو حامد رحمه الله : لابد لكل مقام من علم وعمل وحال ؛ فالمقام يثمر علما ، والعلم يثمر عملا ، والعمل يشمر حالا ؛ لان حركات الاجسام تابعة لحركات القلوب وحركات القلوب جارية بحركات الإجسام.

قال في « التنوير » : « وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله ، ولا مداومته على ورده ، وإنما يدل على فهمه ونوره غناه بربه ، ورجوعه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع ، وتحليه بحلية الورع ، فبذلك تحسن الاعمال ، وتزكو الأحوال ، قال الله تعالى : (إنا جعلنا ما علَى الأرضِ زينة لها لنبلوهم أيُّهم أحْسنُ عملًا (١)) فحسن الأُعمال إنما هو بالفهم عن الله ، والفهم هو ما ذكرناه من الاكتفاء بالله والغنا به ، والاعتماد عليه ، ورفع الحوائج إليه ، والدوام بين يديه ، فكل ذلك ثمرة الفهم عن الله . انتهى .

وهو نتيجة الزهد والحالة المنهضة . والله أعلم .

ثم مدار الأعمال على الذكر وحسنه بالحضور فيه ، لكن ربَّما وُجد ، وربما فُقد ، ثم إذا فقد فلا ينبغي أن يترك الذكر لفقده كما نبه عليه المؤلف إذا قال :

لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه .

قلت : يعنى : بل اذكره في حال الحضور وفي حال الغفلة باذلا مجهودك في الأمر حسيا أمر الله تعالى به إذ قال تعالى : (كذِّكر كمْ آباءًكم أوْ أَشدُّ ذِكْرًا (٢)) ومن المعلوم أنه لا يتقيد يعضور ولا غيبة ، وقال عليه السلام للذي استوصاه : « لا يزال لسانك رطبا بذكر الله » (٣) _ فلم يدله إلا على ذكر اللسان ، وذلك لأمه مقدور العبد ابتداءً ودواما بخلات الحضور فإنسا مقدوره فيه السبب الذي هو الفكر والدوام عند الحضور بقدر الاستطاعة . والله أعلم ثم قال :

⁽١) آية ٧ من سورة الكهف.

⁽٧) آية ٢٠٠٠ من سورة البقرة .

⁽٣) عن عبد الله بن يسر رضي الله عنه أن رجلا فال يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت على فاعبرني بشيء أتشبث به 🗣 قال ۽ لا يزال لسائك رطباً من ذكر الله ۽ رواه الترمذي وابن ماجة وابن حباثٌ في صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

فإن غفائك عن وجود ذكره أَشد من غفلتك في وجود ذكره .

قلت : وذلك لثلاثة أوجه : أحدها أن في وجود ذكره إقبالا بوجه ما والغفلة عنه إعراض بالكلية . الثانى : أن في ذكره تزيين جارحة بالعبادة ، والغفلة عنه تفويت لذلك . الثالث : في وجود ذكره تعرف لنفحات رحمته أن يرفعك مما هو أدنى لما هو أعلى ، وفي الغفلة عن ذكره إهمال لذلك . ولا يشك عاقل في أن الاقبال ولو ضميفا خير من الادبار بالكلية . قيل لبعضهم : ما لنا نذكر الله باللسان والقلب غافل ! إ فقال : أشكروا الله على ما وفق من ذكر اللسان ، ولو أجرى مكانه الغيبة عنه ماذا كنم تصنعون ؟ ، ثم قال : والله أكرم أن يحضر العبد بلسانه ثم لا عن عليه بحضور قلبه وأنشد :

لو علمنا أن الزيارة حق لفرشنا الطريق بالمرجان ثم أشار المؤلف لما ذكرنا من التعرض لنفحات رحمة الله وكرمه فقال :

فعساه أن يرفعك من ذكر مع وجودِ غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيْبة عما سوى المذكور.

قلت: ولو لم تكن لك مقدمة ذكر: ما كنت ترتجى هذا لترقى ، فتعرضك لنفحات رحمته عافى مقدورك هو الذى يرجيك بالترقى لغاية ما تعلقت به ، وعنه قال عليه السلام : : « إن لله فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحات رحمة الله » . وقال تعالى : « فاذكرونيي أذكر كم (١) فجعل جزاء ذكرك إياه وجود ذكره لك ومن ذكره مولاه وفقه وهداه ، ورحمه وآواه وتولاه وأكرم مثواه وكذلك قال الله : (اذكروا الله ذِكْرا كثيرا وسبحوه بُكرة وأصيلا هو الذي يصلى عليكم وملائكم وملائكم وملائكم من الظّلمات إلى النور) . علينكم وملائكته (٢) أي يقبل عليكم بإحسانه وإكرامه (ليخرجكم مِن الظّلمات إلى النور) . وقد قبل : « إن الذكر منشور الولاية فمن أعظى الذكر فقد أعطى المنشور » انتهى .

وعلى مقتضى ما ذكره المؤلف: أن كلاً نتيجة ما قبله ومقدمة ما بعده ، واليقظة هنا: الانتباه للدلول الذكر ومقتضاه بالتفات القلب لذلك واستشعاره إياه بعد عدم شعوره به . والحضور هنا أيضاً أن يرتسم معنى الذكر في الفؤاد ارتساماً لا يصبح انفكاكه عنه ولا ينسى ذكر الله عند أمره وبيه ، وهو أفضل من ذكر اللسان كما قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، والغيبة عما سوى

⁽١) آية ١٥٢ من سورة البقرة . (٣) آية ٢٤ من سورة الأسزاب .

المذكور : انتصاب القلب له بحيث لا يصح له فى فهم : وجود سوى وجوده تعالى بوجه لا ينفك لا فى ذكره ، ولا غيره ، وهو موقف الغناء . والله أعلم .

فمن غفل عنه ذكر غيره ، ومن انتبه له أنيس به المرة بعد المرة ، ومن حضر معه حضع له ، ومن نسى ما سواه فنى به ، ومن فنى به غاب عن كل شيء سواه . وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ، : حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور ، أى عن كل شيء سواه ؛ لقوله تعالى : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تَبْتِيلاً (١)) ولكل من المواقف الثلاثة أصل ومادة ، وحقيقة وعلامة ، وتأويل وتفصيل وتنزيل ، ومداره على ثلاث : معرفة الحق ، وإجلاله والعبودية له ، ومراتب ذلك غير متناهية . وبالله التوفيق .

ثم نبه المؤلف على أن نقل العبد من أدنى المراتب إلى أعلاها سهل يسير على الله تعالى ، فقال : وما ذلك على الله بعزيز .

قلت : يقول : ليس بممتنع في قدرته ، ولا ببعيد عن كرمه ، وإنما على العبد الأسباب وعلى الله فتح الباب . وإنما ذلك لإثبات الحكمة وظهور العبودية بالتعبد ، وإلا فالرب يفعل ما يشاء بخلقه . ما عُبد إلا يفضله ، ولا ذكر إلا برحمته ، ولا تُوجّه إليه إلا بمنته ، فهو الذي أمد العبد بتوفيقه ، ثم هداه الطريقة ، ثم فتح له باب العزم ، ثم أعانه على العمل حكمة منه وتصريفاً للأقدار تصرف اقتدار فسبحان الكبير المتعال .

تنبيه:

الذكر : حياة القلب ، والغفلة موته ، وغايتها (٢) تنتهى لاستحسان القبيح ، ومبدأ ذلك نسيان قُبحه .

⁽١) آية ٨ من سورة المزمل.

⁽٢) رغاية النفلة .

	,		
٠		,	

* الفوز له الكشيف ٠٠ والبصيرة لها الحكم ٠٠ والقلب له الادبار والاقبال



صحح عملك بالاخـــلاص • • وصحح اخلاصك بالتبرى من الحول والقوة • •

.

.

•

·

وقال رضى لله عنه : من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات ونرك الندم على ما فعلته من الزلات .

قلت : الموت فقد الحياة . وعلاماتها ثلاث هي ضد علامات الحياة . وعلامات الحياة : الأول : الاحساس عا يرد من مؤام أو ملائم حسيا كان أو معنويا . الثانى : التأثر بالعوارض القادحة في القيام الباعث على طلب القوام . الثالث : ذوق الأشياء على ما هي عليه أو على خلافه حتى تدرك منها حرارة أو برودة أو مرارة أو حلاوة أو غير ذلك ، فالقلب الحيّ هو الذي يتألم بالمعاصي ويتلذذ بالطاعة ويطلب هذه ، ويفر من هذه لمِّا أحس به من ألم أو ملاعمة ووجده من مرارة وحلاوة فيحزن لما فاته من الموافقات على حسب همِّته ، ويندم على ما فعله من وجود الزلَّات ، كذلك والميت لا يحس بشيء من ذلك فلا يقع له حزن ولا ندم لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سرته حسنته وساءته سئيته فهو مومن » (١) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « المؤمن يرى نفسه من ذنويه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، والمنافق برى ذنوبه كذباب وقع على أنفه.فقال (٢)به هكذافاًطاره ، انتهى

وحقيقة الحزن انقباض السر لما سلف من مخالفة الأمر ، والندم : التلهف على ما وقع فيتمنى أنه لم يكن وقع . ثم هذا الحزن والندم قد ينتهى بصاحبه لليأس والقنه ط ، وهما قسحان ؛ فلذلك نبه عليه بأن قال :

لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظنّ بالله .

قلت : لما كان الحزن والندم منشأهما عظمة الذنب وموقعه من القلب وذلك قد يفرط (٣) فينتهي احد اليأس والقنوط وقد لا يفرط فيوجب الانزعاج دون القنوط واليأس ، وإن اليأس

⁽١) رواه الطبراني في الكبير عن ابي موسى رضي الله عنه .

 ⁽۲) فقال به هكذا أى ففعل به هكذا و أشار بيده .

⁽٣) وفي نسخة أخرى : (وذلك قد يفرط فينتهي لحد القنوط والياس . وقد لا يفرط فيوجب الأفزعاج عن الذنب نقط نبه على أن المحمود منه ما يوجب الانزعاج دون القنوط واليأس ، وأن اليأس والقنوط من الإعراض عن ـ ـ ـ ألخ) ـ

والقنوط من الإعراض عن حسن الظن بالله وهو من كبائر القلوب ، في الخبر أنه عليه السلام أقال : « خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن بعباد الله ، ويقال : خمسة وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشب أعظم من اللنب ، واحتقار اللنب أعظم من اللنب ، والخيم أعظم من اللنب ، واحتقار اللنب أعظم من اللنب ، والإصرار على اللنب أعظم من اللنب ، والمجاهرة باللنب أعظم من اللنب ، والجرأة على اللنب أعظم من اللنب . وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذل رضى الله عنه : « قرأت ليلة قل أعوذ برب الناس فقيل لى : شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك فيذكرك أفعاله السيئة وينسيك أفعاله الحسنة ، ويكثر عندك ذات الشهال ويقلل عندك ذات اليمين ليعدل بك عن حسن الظن بالله إلى سوء الظن بالله فاحذر هذا الباب ؛ فقد أخد منه خلق كثير من العباد والزهّاد وأهل الطاعة والسداد » انتهى وهو عجيب شم فى قوله : عظمة تصدك . . . إلخ تنبيه على أن وأمل الطاعة والسداد » انتهى وهو عجيب شم فى قوله : عظمة تصدك . . . إلخ تنبيه على أن خوف أو استشعار فوت مقصد من عبودية أو محبّة أو نعم أو كمال أو غير ذلك . ثم ذكر معنى يقتضى علة النهى فقال :

فإن من عرف ربُّه استصغر في جنب كرمه ذنبه .

قلت : ومن عرف ربه أعظم لا جل حق إجلاله ، ذنبه ، فكان معتدلا بين هذه وهذه بلا ميل ، وإلا فقد نقص له من المعرفة على قدر ميله من المجانب الذى مال عنه إلى المجانب الذى مال إليه ، ثم إذ أداه ذكر الكرم للاغترار فالهوى غالب عليه ، ذكر مقابله للقنوط فظلمة النفس حاكمة لديه ، فنى المحديث الصحيح : (أن العبد إذا أذنب الذنب فقال يارب اغفر لى . قال الله تعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم بأنى قد غفرت له . المحديث) فعلمه أنه يغفر الذنب من مشاهدة كرمه وجماله ، وعلمه أنه يؤاخذ به من مشاهدة جلاله ، ولولا اجتماعهما له فى موضع واحد ما اندفع باستغفاره ، فافهم . وقد نبه المؤلف على ذلك بأن قال :

لا صغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذا واجهك فضله .

قلت : فانظر لعدله وفضله ، لا لذنوبك وعيوبك سواء كانت صغائر أو كبائر ، وبحسب هذا فلا ميل ؛ إذ لا علم لنا بما يواجه ولا بما يقابل . وقد قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه :

إن أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة وإن أقام عليهم عدله لم تبق لهم حسنة ». وفيا أوحى لله إلى بعض أنبيائه قل لعبادى الصنديقين لا يغتروا فإني إن أقم عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا يقنطوا ؛ فإنى لا يتعاظمي ذنب أغفره لهم » . وقال تعلى في كتابه العزيز : (نبي عبادي أني أنا الغفور الرَّحيمُ ، وأنَّ عذابي هو العذابُ الأليمُ(١) » وقال عز وجل : : (ما يقالُ لك إلا ما قد قبل للرسل مِنْ قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب ألم (١)) فجعل دعوة الرسل وخطامهم بها على حدّ سواة ، وقال عز وجل (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإنْ ربك لشديد العقاب (٣) » وقال سبحانه وتعلى : (هو أهلُ التَّقوَى وأهل المغفرة (٤)) أي أنه أهل لأن يتق وأهللأن يغفر ، وكل ذلك على حد سواء في حقه ، فذهب الميل والترجيح وبتي الوقوف على حد سواء والله أعلم . وللناس في المحد حقيقة الصغيرة والكبيرة اختلاف كثير ، ومرجعه أن الكبيرة ما عظم أمره عند الله والناس في المحد على من غير منازع وكل تصرف لله كذلك ؟ والصغيرة ما خص أمره عند الله ، والعدل ما للمالك أن يفعله من غير منازع وكل تصرف لله كذلك ؟ إذ الكل منه وإليه . والفضل : المواجهة بالاحسان لا لعله ولا لسبب ، وبالله التوفيق .

وكما وجب أن ينظر في الذنوب للعدل والفضل فكذلك في الأَعمال لأَما من نسبتها في ذلك (٥)، وذلك يفضى إلى عدم الاعتداد بها ، وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال :

لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده .

قلت : تقدير الكلام : لا عمل أرجى للقلوب قبوله وحصول النفع به فى إفادة ما يترتب عليه من تنوير وتعريف وكمال وثواب وغير ذلك من عمل يغيب عنك شهوده بشهود مدبره حتى لا ترى لنفسك نسبة فيه . بل لا تدرى له وجودا فى ذاته ويحتقر عندك وجوده لما هو عليه من نقص وعيب ظاهر أو ختى منه . فحاصله أن يرى نفسه مقصرا فيه ، ويراه مع تقصيره منة من لله عليه ؛ إذ لا يليق به من حيث ذاته ، ومن هو حتى وُفِّق له يوما ما وإلَّا لكان ممن هم مُطرحُون فى الخسائس ، بل فى أرذل الكفر والنفاق نسأل الله العافية .

وقد يكون كلام المولِّف على التفكيك ، والواو في « ويحتقر » « للتنويع » ، فالمقصود يغيبُ عنك أو نحتقر عندك . وبحسب هذا فالناس ثلاث : غائب عن شهود ، ومحتقر له ،

⁽١) آية ٤٩ من سورة الحجر . (٢) آية ٤٣ من سورة فصلت .

⁽ع) آية ٢ من سورة الرعد , (٤) المدار : ٢٥٠

⁽٥) وفي نسخة (لأنها من نسبتها لذلك تقضي بعدم الاعتداد بها) .

وجامع بينهما . والأُخير أكمل والأُول دونه ، والأُوسط دونهما وقد أَشار المؤلف لترجيع الاول على الثانى بأن قال :

إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً .

قلت: الوارد هنا: ما ينزل بالقلب فيزعجه عن معتاده ويرفعه عن مراده من موارد الحق ومعارفه. ومقصوده إرجاع العبد لمولاه، وانقطاعه لما به تولّاه، فيكون العبد به أى بالوارد وارداً على مولاه: أى عولاه واردا على مولاه، وعلى الوجهين فهو يقتضى عدم نظره إلى كسبه (١) في الاقبال والإدبار فان تم له ذلك بأن غاب عن شهود عمله بشهود مولاه، فذاك، وإلّا فنظره لتقصيره وورود بوادر الحق على نفسه وليس هناك إذ قد قيل لا يخلو شهود التقصير من وجود الشرك في التقدير. وقال الواسطى، رضى الله عنه لأصحاب ألى جعفر: «بم يأمركم شيخكم ؟ قالوا: يأمرنا بالتزام الطاعة، ورؤية التقصير فيها فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشبها ؟. قال الاستاذ أبو القاسم القشيرى، رضى الله عنه ، : إنما أراد بهذا صيانتهم عن الإعجاب لا تعريجاً في ميدان التقصير ، أو تجويزا للإخلال بأدب من آداب الشريعة ، انتهى .

فإذن فائدة الوارد ثلاثة : الورود على المولى بلا علَّة ، والخروج من عبودية الأكوان فى الجملة ، والخروج من سجن النفس بلا توقف . قد مضى الأول من كلام المؤلف ، وذكر الثانى مأن قال :

أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأَغيار وليحررك من رقِّ الآثار .

قلت : معنى يتسلمك : يأخذك مما تسلمك منه على وجه لا يبقى له تعلّق فيك ، وهى هنا « الأغيار » أى المخلوقات بحيث لا يبقى لك إليها استناد ، ولا عليها اعتاد ، ولا منها استمداد ، ولا فيها شهود ولا اشهاد ، بل تكون لمولاك وحده بلا علّة منك ولا تشوّف لغيره ، وذلك عين التحرر من رق العبودية لها ؛ إذ تصير تابعة لا متبوعة ومحكومة لاحاكمة ، وبذلك تقع الراحة الأبدية كما قال النصراباذى (*) رضى الله عنه : (سجنك نفسك إذا خرجت منها وقعت احة الأبد » انتهى .

⁾ وفي نسخة ؛ نفسه .

هو : إبراهيم بن محمد وكنيته أبو القاسم ، نيسابورى الأصل و المنشأ و المولد . تونى بمكة سنة ٣٦٧ ه وكان عالماً بالحديث رواية .

وذلك لأنه يصير الحال للرضا وعدم التقييد بالأغراض بل كما قيل : «أصبحت لا أملاً أبغى ، ولا أمنية أرجو ولا نائبة أخشى ، ولا موعدة أترقب » . ثم ذكر المؤلف الوجه الثالث من فوائد الوارد إذ قال :

أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فَضَاءَ شهودك .

قلت : وذلك أنك مسجون بمحيطاتك ، ومحصور في هيكل ذاتك ما لم تفتح اك ميادين الغيوم ، ومتى طلع عليك نور الوارد لاح لك من حقائق الوجود ما تعرف به الدنيا والآخرة وغيرهما . وهذا ما أشار إليه التُسْتَرِيُ حيث يقول : « عند نور إلهامي لاح الحق لي ودنوت من قرب مذ « عَرَفْتَ بي » (١) .

شم نبَّه على ما ذكرناه من أن جملة الأمر في الوارد أنه حامل إلى الحق فلا يصم التوجُّه به لغيره فقال :

الأَنوار مطايا القلوب والأُسرار .

قلت: الأنوار: هي الظلال: الواقعة في الصدور من المعانى التي أتت بها الواردات، وهي مطايا القلوب بإيضاح الفهم إلى حضرة علام الغيوب، ومطايا الأسرار ببيان العلم إلى حضرة الملك الجبّار، فمن طلع النور في قلبه سار على مطبّة فهمه، ومن طلع في أفق سره سار بمطية علمه، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور، وإذا كانت الأنوار مطايا الحق فلا تتحمل عليها شيئاً من الباطل ومن الباطل رؤية النفس في نقصها وكمالها، فافهم، ثم ذكر أن الانوار مقوية للقلوب مضعفة للنفوس فقال:

النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس :

قلت : وذلك لأن النور يحصل به ثلاث : الكشف ، والعلم ، والتحقيق ، والظلمة يحصل الملاث : الجهل ، والتلف ، والتخبيط . وإذا كانت هذه (٢) غلَب الهوى وذهب الحق . وإذا كانت الأولى ذهب الهوى وثبت الحق ، ولكل مقويات وموارد أشار إليها المؤلف بأن قال : فإذا أراد الله أن ينصر عبده أيده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار .

1 -

(٢) الظلمة .

⁽١) لعلمه يريد أن بقول ; إن الحق لاح له عندما غمر الإلهام بنوره قلبه وقرب من الله منذ أن أصبح عارفاً بالله ء أى عارفاً-لله معرفة من الله فالله سبحانه هو الذي يعرف أو لياءه v .

قلت: يقول إذا أراد الله نصر عبده على نفسه وهواه مده بالجنود التي هي الأنوار ؛ فيحصل له العلم والتحقيق والإلهام الذي هو الكشف فيباشر قلبه بما يعلمه (١) من خير أو شرحتي يقبل على الحق ويدبر عما سواه إقباله على الخبز عند الحاجة ، وإدباره عن الحية عند المعاينة ولا يتم ذلك إلا بحسم موارد الظلم وهي ثلاثة : هوى يخالطه علم بتأويل ، ووهم بعينه ضعف اليقين ، وشهوة غالبة لا بملك معها أمرًا . ولا تنقطع هذه الأمور إلا بإثبات أضدادها : يقين لا يداخله شك ، وعلم لا يخالطه هوى ، وإلهام لا يفسده وهم . وقد تقدم من كلام الشيخ أني الحسن رضي الله عنه : « إذا أكرم الله عبدًا في حركاته وسكناته نصب له العبودية الله نصب عينيه » ، فانظره ، ثم ذكر ترتبب إمداد القلب وتوارد جنوده ، وعينها بأن قال :

النور له الكشفُ ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإدبار والإقبال .

قلت : إذا كان النور تاماً كشف الشيء على ما هو عليه ، وإذا كانت البصيرة مستقيمة حكمت به على وجهه فأقبل القلب في محل الإقبال ، وأدبر في محل الإدبار ، وإذا كان النور مفقودًا أو ناقصاً ، والبصيرة غير مستقيمة أقبل القلب في محل الإدبار وأدبر في محل الإقبال فكان شبه حال الأعمى تارة يخطىء وتارة يصيب ، وإن أصاب فعلى غير أصل ولا حقيقة ، فإذا نور القلب هو الأصل وما بعده تبع له قال تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسْلامِ فَهُو عَلَى نُورٍ من رَبه (٢) وقال تعالى : (فَمَنْ يُردِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشُرح صَدْرَهُ للإسْلامِ (٣) فجعل الهداية فرع الشرح ، والشرح فرع النور . فافهم . .

ثم من مظاهر ما ذكر وجود الفرح بالطاعة وغيرها ، فمن كان فرحه بها من حيث إنها منة من الله عليه ، فنورد تام وبصيرته مستقيمة إذْ أقبل قلبه فى محل الإقبال . ومن فرح بها من حيث نفسه فعلى العكس ، فهذا ما نبه عليه إذ قال :

لا تَفْرِحُكُ الطاعة لأَمَّا برزت منك وافْرَحْ مها لأَنْهَا بَرَزَتْ من الله إليك .

قلت : الطاعة من الفوائد المحبوبة النَّافعة دينًا ودنيًا ، والفرح بها أمر ضرورى لمن حصَّلها . ثم هو على ثلاثة أُوجه : فرح بها من حيث ما يُرجى من ثوابها أو يخشى من عقاب فوتها ، وفرح بها من حيث وجودُها وظهورها على يدِه لتزكيه بها . وفرح بها من حيث أن الحق ذكره بالتوفيق

⁽١) وفى نسخة ۾ ما يعمله .

⁽٢) آية ٢٢ من سورة الزمر . (٣) آية ١٢٥ من سورة الأنمام .

لها ومن عليه بوجود تحصيلها مع تحصيل العبودية وامتثال الأمر بها . وهذا الوجه أحسن من الأول ، والأول خير من الذى بعده ؛ لأن هذا يزيده شكرًا وافتقارًا ، والذى قباء يزيده عُجبًا وافتخارًا ، فالاول فيه رائحة الاعتاد على العمل ، وهو من أصول العلل ثم نزع المؤلف بالآية للدلالة فقال :

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ـ

قلت : يقول لا يكن فرحكم إلّا بفضل الله ؛ لأنه تفضّل عليكم وذكركم عنته فيا به تولّاكم ، لا عا تجمعون من الفوائد الحاصلة عنته من حيث هي لأن الفرح بها مجرّدة عين الغفلة عنه ، والفرح عنته من إجلاله ، وقد قال تعالى : (لَيِّنْ شَكَرْتُم لاّزِيدَنّكُمْ) (١) والشكرُ فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته ، فافهم . ثم ذكر تفصيلَ ما تقدم له من قوله « لا عمل أرجى للقبول » فقال :

قَطَع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم .

قلت : وإنما قطعهم عن ذلك لوجوه : أحدها : ليكونوا له بلا علَّه كما كان لهم ولا علَّه . الثانى : ليسلموا من آفة الإعجاب ورؤية النفس فى جميع الأحوال . والثالث : ليتم لهم الإنعام بالشكر والافتقار . فافهم .

ثم ذكر ما وقع به انقطاع كل من الفريقين ، فقال :

أُمًّا السائرون فلأَنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها .

قلت: وإذ لم يتحققوا ذلك فيها فهم محتقرون (٢) لوجودها من حيث ما اشتملت عليه من النقائص والدعاوى وبذلك يزيد افتقارهم لمولاهم واضطرارهم له وقد قال . الجنيد رضى الله عنه : « لا يُصفو لاَّحد قدم في العبودية حتى تكون الأفعال كلها عنده رياء وأحواله كلها عنده دعاوى » . وقال النهرجورى رضى الله عنه ، (مِن علامة مَن تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره ، والنقصان في صدقه ، والفتور في مجاهداته وقلَّة المبالاة في فقره ، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقره إلى الله تعالى في قصده وسيره حتى يضي عن كل ما دونه » انتهى .

⁽١) من آية ٧ من سورة إبراهيم .

⁽٢) وفي نسخة ؛ متحققون .

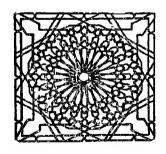
ثم قال المؤلف:

وأما الواصلونُ فلأنهم غيبهم بشهوده عنها .

قلت : فهم لا يرون أنفسهم عمّالاً لها ولا مستحقين للثواب بها ، وإنما هي رسم عبودية جرى بتوجّه المنة ، بل جرى بإجراء الحق سبحانه بلا علّة ، حتى لقد قال بعضهم : « لا تنظر إلى عملك وإن صحّ وانظر لمن وفقك إليه » . ومدارهم في ذلك على قول نبى الله شعيب عليه السلام : إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيتي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . فذكر الإنابة والتوكل للاستسلام كما ذكر إرادة الإصلاح للعبودية وذكر التوفيق بالتبرى من الحول والقوة ، وقد تقدّم من كلام بعض المشايخ رضي الله عنه : « صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالإخلاص ، وصحح التبرى من الحول والقوة » انتهى والله المسئول . أن عن به علينا عنه .

ا تنبیه:

من انقطع عن أحواله وأعماله فلينقطع عن حياته وآماله متوجّهًا للحقائق وتاركًا للطمع في الخلائق .



** فساد الدين الطمع • • وصلاح الدين الورع!



يعطى من يشاء مايشاء بلا حجر ٠٠ ويمنع من يشاء مايشاء بلا علة ٠٠ فالكل منه واليه ٠٠

وقال رضى الله عنه ما بسقت أغصان ذلَّ إلا على بذَّر طمع .

قلت : بسقت : طالت ومنه « والنخل باسقات » ، والبذر : ما يُستنبت منه الشيء ، والمقصود من ثبت طمعه طال ذلَه ، فاستعار البذر للطمع ، لأنه أصل الذل والذل عُصنه لأنه قرعه وطول ذلك باتصاله واتساعه ، فالمعنى من طمع ذل عنى قدر طمعه ، فرحم الله القائل :

تَرْكُ المطامع للفتي شَرَفُ له حتى إذا طمع الفتي ذلَّ الشرف.

وذلك لان الطمع مقرون بدلاث: التملق للمطموع فيه ، واستشعار الحيبة عند الطلب ، أو سلطنة المعطى عند المساعدة ، وبذل ماء الوجه عند المواجهة . هذا مع ما ينضاف لذلك من أصله وفرعه ، فقد قال أبو بكر الوراق(۱) ، رحمه الله ، : « لو قيل للطمع من أبوك ، لقال : الشك في المقدور ، ولو قبل له : ما حرفتك ؟ لقال : اكتساب الذل ، ولو قيل : ما غايتك ؟ لقال : الحرامان » وقال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه ، : « الطمع ثلاثة أحرف كلها مجوفة فصاحبه بطن كله فلا يشبع أبدا » انتهى وهي أبضا حروف يابسة خاوية فالمتعلق بها كذلك ! 1 ثم ذكر المؤلف أصل الطمع : هو غالب الوهم ، فقال :

ما قادك شيء شل الوهم :

قلت : الوهم هنا النخيل والحسبان ولا شك أن غالب النفوس فى قياده فإذا تخيلوا شيئًا أو ظنوه عملوا عليه فحصل الهم منه الطمع وغيره فيوقعهم فى الذل والحرمان والنب ظاهرًا وباطنا . وقد قيل : « لولا الأطماع الكاذبة ما استعبد الأحرار بكل شيء لا خطر له) ا ه فإذن إيما يدعو إلى الطمع نوهم النفع من المطموع فيه ، وبذلك تحصل العبودية له ؛ فمن غلب الوهم عليه نسى ما ينتهى إليه الطمع من النقص والدناءة ، ومن ضعف لديه الوهم ذكر ذلك فانتنى عنه الطمع . وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

⁽١) هو : أبو بكر محمد بن عمر الوراق البرمذي : أقام ببلخ وصحب احمد ابن خضروية و له تصانيف في الرياضيات .

أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت له طامع :

قلت : لأن ما أنت له طامع آخذ بقلبك فأنت له بكلّك . وما أنت عنه آيس أنت عنه معرض بقلبك فأنت له بكلّك . وما أنت عنه الله عنه : معرض فليس له شيءٌ من وجودك ، وقد قال « بنان الحمّال »(١) رضى الله عنه : العبد حسر ماقنع والحرّ عبد ماطمع

وقيل: «إن المُقاب يطير في مصاف عزّه بحيث لايَرْتقى طرف إلى مطاره ولا تسمو الهمة ، إلى الوصول إليه فيرى قطعة لحم معلَّقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبى يلعب به». قال في «التنوير»: وتَفَقَدُ وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد سواه. وتطهر من الطمع في الخلق ، فلو تطهّر الطامع فيهم بسبعة أبحر ما طهّره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم.

ثم ذكر حكاية على كرَّم الله وجهه وقول الحسن (٢) له : «فساد الدِّين الطمع وصلاح الدِّين الورع». قال : وسمعت شيخنا : يعنى أبا العباس المرسى رضى الله عنه : كنت في ابتدائي في ثغر الاسكندرية جئت إلى بعض من يعرفني فاشتريت منه حاجة بنصف درهم فقلت ، في نفسى : لعلّه لايأخذه منى ، فهتف بي هاتف : السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين ثم بعد كلام قال : فعليك أبها المريد برفع همتك عن الخلق ولاتذل لهم ؛ فقد سبقت قسمته وجودك ، وتقدّم ثبوته ظهورك ، واسمع ماقاله بعض المشايخ : «أبها المريد ما قدّر لما ضِغَيْك أن عضغاه فلابد أن عضغاه فلابد أن عضغاه فلابد التهي .

وقد ذكر ابن عباد رحمه الله جملة من النقل يحتاج إليها فلتُنظر . وبالله التوفيق . ثم ذكر المؤلف حكمة الله تعالى في عدم إسعاف الطامع فقال :

من لم يقبل على الله عملا طفات الإحسان قُيّد إليه بسلاسل الامتحان.

قلت : يقول من لم يفرد وجهه لمولاه اعتباراً (٣) لإحسانه السابق واللاحق الذي لاطفه به حتى لايطمع في غيره ولا يرجو سواه سلَّط عليه البلايا والمحن حتى يقوده إليه بها كرهاً إذ لم يرجع إليه طوعاً. قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : «سنَّته تعالى استدعاء العباد لطاعته بسعة

⁽١) هو أبو الحسن بنان الحمال . من واسط ، أقام بمصر ومات بها سنة ٣١٦ ه .

⁽۲) هو الحسن البصرى . .

⁽٣) وفي التيمورية : اعتباراً باحسانه .

الأُرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته ، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسرّاءِ والضرّاءِ لعلهم يرجعون ؛ لأن مراده عزَّ وجلَّ رجوعُ العباد إليه طوعاً أو كرهاً » انتهى . وشواهد هذه فى القرآن كثيرة ، وأصله سلب النعم لفقدان الشكر كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

من لم يشكر النعم فقد تعرُّض لزوالها ، ومن شكرها فقد قَيَّدها بِعِقَالها .

شكر النعمة ضامن لثلاثة أشياء : حفظها عن الزوال وتغيير (١) الحال بالانتقال ، وزيادتها في المآل ، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال .

وعدم الشكر ضامنُ للسلب ، وتشويش القلب ، ومقت الربّ . وقد قال الحكماء : «الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود» . وقالوا أيضاً : «من لم يشكر النعم سلبها من حيث لايعلم » ، قال الله تعالى : (وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِنْ شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِنْ كَفَرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)(٢) وقال سبحانه وتعالى : (إِنَّ اللهُ لا يُغَيِّر مَا بقوم حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم (٣)) أَى إِذَا غيروا ما بم من الطاعة وهي شكر النعم غير الله تعالى ما بهم أَى ما من عليهم من الإحسان والكرم وأنشدوا في ذلك :

إذا كنت في نعمة فارّعها فإن المعاصي تزيل النعم إذا تسم شيء بدا نقصه توقّع زوالاً إذا قيل تم (٤)

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «النعم وَحْشية قيدُوها بالشكر» ، والشكر فرح القلب بالمنعم لأَجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر ، وتنكف عن الزواجر وقد عبر الناس (عنه) تارة بأصله وتارة بفرعه ، وتارة عادته . ثم زوال النعمة قد يكون ظاهراً جليًا ، وهو «السلب» ، وقد يكون باطناً خفياً وهو «الاستدراج» وهو الذي يُتَّقى أكثر لغموضه ، فلذلك قال المؤلف :

خَفْ من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجاً لك .

قلت : خوف الاستدراج في النعمة يبعث على التشمير لشكرها والرجوع إلى الله فيها وبها ، واستشعار ذلك بذكر أفعالك السيئة مع جرى إحسانه ؛ إذ الاستدراج كمون المحنة في عين

⁽١) وفي : وتغير . (٢) آية ٧ من سورة إبرهيم . (٣) آية ١١ من سورة الرعه .

^(؛) وفى التيمورية بدل هذا البيت الثانى :

وداوم عليها بشكو الإله فإن الإله سريع النقم

المنة (۱) بغير خوف الفتنة ، وهو مأخوذ من درج الصبي أى أخذ كشي شيئاً بعد شيء وهو لايشعر ، ومنه اللرج الذي يرتبي عليه ، ، أو يوجد به العلو : كذاك «المستدرج هوالذي تؤخد مه النعمة شيئاً بعد شي وهو لايشعر قال الله نعالى (سَنسْتَدْرِجُهم مِنْ حَيْث لاَيَعْلَمون)(٢)قلت يقول نأخلهم بالنعم وهم لايشعرون ، وقد قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه في معنى الآية : «نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها . حتى إذا ركنوا للنعمة وحُجبوا عن المنعم أخلوا » . وقيل : «كلما جددوا معصية جددنا (لهم) نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية » انتهى وهو ماخوذ من قوله تعالى (إنما نُمْلي لَهُم ليَزْدَادُوا إِنْماً)(٢) ومن قوله عز وجل (أيحسَبُونَ (٤) أنما نمذهم به من مَال وَبَنينَ نُسَارِعُ لَهُمْ في الخَيْراتِ بَلْ لاَيَشْعُرون) ومن قوله عز وجل : (فنحنا عليهم أبواب كل شيء نُسارِعُ لَهُمْ في الخَيْراتِ بَلْ لاَيشْعُرون) ومن قوله عز وجل : (فنحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فَرحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْنَاهم بَغْتَةً) إلى غير ذلك من وجوه (٥ الاستدراج فتح باب نأويل قو مواقف ، وذلك ماذكره المؤلف إذ قال :

من جهل المريد أن يسبيء الأدب فتُوَخَّر العقوبة عنه فيقول او كان هذا سوء أدب اقطع الإمداد أو وجب الإبعاد .

قلت : وهذا لا يتصور مع جريان ماله من الله من علوم وأحوال وغير ذلك بحيث تعنى عليه المحنة بجريان المنة وف (١) الآداب الحفية لاالجليّة ؛ لأن مثل هذا التأويل لا يحرى فيمن بان غَيّه وظهر نقصه : وهذا غاية الاستدراج . فوجب على المريد التحفظ في مواقف الأدب بالاحتياط أبداً وترك التأويل رأساً ، وذلك بأن يجعل الأولى نصب عينه فلا يقتصر على الواجب إلّا إذا لم يجد مساعاً للأولى ، ويقدّم الحقيقة على الأسباب في موضع الإباحة ، لا في موقف الطلب الشرعي فيتحفظ على ظاهره بالشريعة وعلى باطنه بالحقيقة ويفر من مواقف النقص بينه وبين مولاه : من رعونة كامنة أو غفلة ظاهرة أو دعوى شيء وإن قلّ . والآداب كلها منحصرة في خمسة : أولها : حفظ الحرمة مع الله ومع من له نسبة في جانب الله من نبي أو ولى ، أو عالم ، أو غيرهم حتى عوام المسلمين على مراتبهم . الثاني : علو الهمة في أمر الدين والدنيا حتى لايكون

⁽١) وفي التيمورية (الاستدراج كون المحنة في عين المنة ، ويقال تواتر المنة بعين الفتنة وهو مأخوذ . . إلىخ .

⁽٢) من آية ١٨٢ من سورة الأعراف (٣) من آية ١٧٨ من سورة آل عران.

⁽٤) آية ٥٥ من سورة المؤمنون .

⁽٥) وفي التيمورية (إلى غير ذلك من وجود الاستدراج فتح باب التأويل في موا قف الأدب) ,

⁽٦) ى التيمورية (يجريان المنة الا في إساءة الأدب الحفية لا الجلية . . .) .

له تعلق بشيء من النقائص لاظاهراً ولا باطناً ، وما جرى عليه من ذلك بادره بالتوبة ، الثالث : حُسن المخلمة بلزوم الاتباع وترك الابتداع ، والتبرى من الحول والقرة في كل أمر ، الرابع : نفوذ العزمة بحيث لا يسمح للنفس في كل عزمة (١) ، ولا يتراخى في محل تشمير ولايركن لموضع تقصير . المخامس : شكر النعمة وأصله شهود المنة ، وهو مبنى على خالص التوحيد وخالص الإنمان، ولكل من هذه معارض وقادح هو سوء الأدب في حتى فاعله ، وله عقوبة من نوعه على قدر صاحبه . فمن الناس من عقوبت بالعذاب (٢) ، ومن الناس من يعاقب بصرفة عن مواقف الإحباب . وقال أبو حفص الحداد (٣) ، رضى الله عنه ، : «التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الأدب فهو ظاهراً وباطناً ، فما أساء أحد الأدب في الظاهر ، إلا عوقب ظاهراً ، وما أساء أحد الأدب باطنا عوقب باطناً » . وقال ذو النون المصرى (٤) : «إذا خرج المريد عن حد الأدب فإنه يرجم من حيث جاء » ، وسئل الدقاق رحمه الله نعانى : بم يُقوّم الرجل اعوجاجه ؟ قال : بالتأذب بإمام ، فمن لم يتأدب بإمام ، وقال أبو العباس بن عطاء الله رحمه الله : «النفس مجبولة فمن لم يتأدب بإمام بني بطالاً » . وقال أبو العباس بن عطاء الله رحمه الله : «النفس مجولة فمن لم يتأدب بإمام بني بطالاً » . وقال أبو العباس بن عطاء الله رحمه الله : «النفس مجولة على سوء الأدب والعبد مأمور علازمة الأدب ، فالنفس تجرّه (٥) بطبعها في هدان المخالفة والعبد يردها بجهاده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها في فسادها » انتهى .

وجهل المريد في الوجه الذي ذكره المؤلف يشلاقة : اغتراره بظاهر ما يجرى عليه من امداده المزعمه وحسن ظنّه بنفسه في حاله ، ونصرة نفسه في غلطها بفتح باب التأويل ، وذلك من الرضا عنها والسكون إليها . ونسيان خوف المكر في عموم أحواله إذ لايتوقّف أمر الله فيه على علمه كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

فقد يقطع المدد عنه من حيث لايشعر.

⁽١) وفي التيمورية (بحيث لا يتسمح لنفسه في حل عزيمته) .

⁽٢) وزاد في التيمورية (ومن الناس من يعاقب بوقوع الحجاب) .

 ⁽٣) هو : أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد ، ولد بقرية من قرى نيسابور على طريق بخارى . وهو أول من أظهر طريقة
 التصوف بنيسابور . توفى سنة ٢٩٦ ه، أنظر في ترجمته وأقواله ، الجزء الأول من الرسالة القشيرية ص ٩٦ .

 ⁽٤) هو : أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصرى من أهل مصر ، نوبي الأصل كان عالماً زاهداً فصيحاً حكيما وشوا به
 لدى الحليفة العباسي المتوكل فاستحضره من مصر فلما وعظه رده إلى مصر مكرماً . توفى بالجيزة سنة ٢٤٥ هـ ٩ ٥٩ م .

⁽٥) وفي التيمورية تجرى .

قلت : ذلك بأحد وجوه ثلاثة : صرفه عن التحقق مما علم إلى الاتساع في علمه ومعارفه ، وإبقائه في حاله مع عدم الشعور بنقصه حتى التسمو همته لغير ماهو فيه ، فيكون حجاباً له عما هو أعلى بل يكون موكولا لحاله في وقته ، وبتيسير مراداته من غير تأييد فيها ما يقع به الزيادة في حاله فيشتغل بمراده عن مولاه ويرى ذلك سعادة في أمر دينه ودنياه ، وإنما هو صرف له عن بابه وطرد عن أحبابه كما قيل ؛

> ومن صد عنا حسبُه البين والقِلا ومن فاتنسسا يكفيه أنَّا نفوته وقمه ثبه المؤلف على ما قلناه مما ذكره حيث قال :

ولو لم يكن إلا منع المزيد .

قلت : وبذلك يتحقق الاستدراج حتى يرى الشر في موضع الخير ، وبالعكس ، (ومَنْ لَمْ يَجْعَلُ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)(١) فعليك باللجاء إلى الله في كل حال والحذر من نفسك بكل حال ، والإعراض عن الانتظار بما تتعلَّق به الأغراض . والسلام قال :

ولو لم يكن إلا أن يخليكَ وماتريد .

قلت : يعنى يصرفك عن بابه بمرادك ، ويطردك عن جنابه بتواتر امدادك ، فترى أنَّك في محل القرب وأنت في محل البعد ، وهذا من غاية المكر والاستدراج ، والعياذ بالله ، وإليه أشار الجنيد رضى الله عنه حيث قال : «ألطف(٢) ما يُخادَعُ به الأولياءُ وجودُ الكرامات والمُعُونـاتِ » انتهی .

ووجوه الابتلاء في المقام مع ما تريك ثلاثة : أحدها : الأنس به والانقطاع إليه وذلك بُعدً عن مراتب الاختصاص . الثاني : الاشتغال عن العبودية بسببه فرحاً وتُرحاً ، وإن كنت ترى أنه موجب شُكر وشهود مِنة ، ففيه من الأقّبال والإِدبار علة . الثالث : الإغترار بظاهر الإِفعال عن باطن الأَحكام وهو أصل كبير في الإِبعاد والطرد ، وقد قال الإِمام أَحمد بن حنهل رضي الله عنه يُوصى بعض أصحابه : خَفْ سطوةَ العدل ، وأرحْ رأْفة(٣) الفضل ، ولاتنأمن مكره ولو أدخلك

⁽١) آية ٤٠ من سورة النور . (۲) ای آدق و اخنی .

⁽٣) وفي نسخة أرقه إ

الجنة ، فنى الجنة وقع لأبيك أدم ماوقع ، وقد يقطع بأقوام فيها فيقال لهم : (كُلُوا واشْربُوا هَنيهُا بما أَسْلَفْتُم فى الأَيامِ الخَالِية)(١) فقطعهم بالأكل والشرب عنه ، وأى مكر فوق هذا ، وأى خسران أعظم منه » انتهى وهو أوّل كلام حفظته فى هذه الطريقة . (وقوله «ولو أدخلك البجنة » أتى به للمبالغة ، واستشهد بواقع أدم عليه السلام للتحقيق فى ذلك ، وإلّا فالجنّة دار البسلام ، وأدم على التبرئة من كلّ نقص وعيب ، وموقف الخوف والرجاء هذه الدار ، فافهم)(١).

ثم إِنَّ من أصول الآداب التي يقع بتركها الطرد والانقلاب حفظ حرمة السلمين . خصوصاً أهل دائرة الحق من العباد والزهّاد وأهل الطاعة والسداد ، ومفتاح إسقاط حرمتهم احتقار ما منحهم مولاهم وعدم الاعتبار بما مَنَّ به عليهم وأولاهم ، فلذلك قال :

إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الإمداد فلا تستحقرن ما منحه ولاه لأنك لم تر عليه سيماء الدارفين ولا بهجة المحبين .

قلت : معنى أقامه : استعمله مع الدوام وحصول الفوائد ، والاوراد ما ترتب من العبادات في الأوقات .

والإمداد هنا : حصول المنافع والفوائد ، وطولها بكثرتها واتصالها ، ومنحه : أعطاه عن تفضُّل وإكرام .

ولاشك أن من اتصلت أوراده وتواترت أوراده مخصوص من مولاه بعناية ، وملحوظ برحمة ورعاية ، فيجب تعظيمه واحترامه ويتعين توقيره وإكرامه ، ولا يُتَحقر ما هو عليه لكونه قاصراً عن درجة أهل الكمال من العارفين والمحبين ؛ إذ لم تُر عليه سيماءُ الأولين ، مِن : الاستسلام والرضاء والسكون عند جريان القضاء ، ومن حال أهل المحبّة وبهجتهم التي (٢) مقتضاها شغفهم عولاهم ، وإعراضهم عن الوجود إذْ تولّاهم ، فإن قُصورهم عن ذلك لايخرجهم عن دائرة أهل إلاختصاص حتى يحتقروا ويُحتقر ما هم عليه ، فقد قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : «أكرم المؤمنين وإن كانوا عصاةً مذنبين ، وأقم عليهم الحدود واهجرهم أيضاً ، رضى الله عنه : «أكرم المؤمنين وإن كانوا عصاةً مذنبين ، وأقم عليهم الحدود واهجرهم

⁽١) آية ٢٤ من سورة الحاقة .

⁽٢) يبدر أن مَا بين الأقواس من تعليقات بغض النساخ .

⁽٣) وفي التيمورية « اقتضامًا » ,

رحمة بهم ، لاتَفَزْزَا لهم ، ولا تقتد عن يتورّع عمّا نالته أيدى المؤمنين ولا يتورع عمّا نالته أيدى المشركين ؛ فقد عُلم ما نالَ الحجرُ من أيديهم فاسود لذلك» انتهى .

«وأشار بآخره لما روى أن الحجر الأسود إنما تدلَّى إلى الأرض ياقوتة بيضاء وإنما سودته أيدى المشركين»(١) والمقصود أنَّ من ظهر بالنسبة لجناب الله تعالى تاماً كان أوناقصاً ، صادقاً كان أو كاذباً تعين تعظيمُه واحترامه ، ووجب توقيره وإكرامة ، على قدر حاله من غير احتقار ولاإهمال ولا اقتداء إلَّا عن صح عمله وورعه ونفوذ بصيرته ؛ فإن الجناب عظيم والإنتسابُ إليه لايكون إلاً بعناية منه إذ لايقدر أحد على هداية نفسه ، وهذا مانبّه عليه إذقال :

فلولا وارد ماكان ورد ـ

قلت : يقول : فلولا وارد من الحق يقتضى تعظم جنابه ماكان ورد يقتضى الوقوف ببابه ؛ إذ ماكان ظاهره ذكر إلَّا عن باطن شهود وفكر ، بل لولا وارد ماكان انتساب إنما ينتسب العبد للجناب بعد تحققه بعظمته على قدر حاله ، واعتبر هذا بة ول الصحابة رضى الله عنهم حين كانوا يرتجزون في الخندق :

والله لولا الله ما اهندينا ولا تصدّقنــــا ولا صلينا وإنما هما اثنان : أهل هداية أو عناية ، وكلاهما في منّة الحق وكرامته ، كما قال : قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصّهم بمحبته .

قلت : فالذين أقامهم لخدمته ثلاثة : العباد ، والزهاد ، وأهل الطاعة والسداد . فالعباد : من يعمل بنحقيق العمل لقصد تحصيل الأمل . والزاهد(٢) الفار من وجود الخلائق في الظاهر لينفرد همه لمولاه على الاوراد بالغدو والاصال . والذين اختصهم بمحبته ثلاثة : المحبون والعارفون والواصلون ، فالمحب من آثره على كل شيء ، والواصل من شهده في كل شيء ، والواصل من يغيى به عن كل شيء وهم أهل الاجتباء والاحتصاص كما أن الذين من قبلهم أهل الهداية والإنابة ، قال الله تعالى (يَجْتَبِي إلَيْه مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إلَيه مَنْ يُنيبُ . الآية)(٣) فالكل في

Programme Programme

⁽١) يبدو أن ما بين الأقواس من شرح بعض الكتاب .

⁽٢) وفى نسخة الدار (والزهاد الفارون من وجود الخلأئق فى الظاهر لينفردوا هم لمولاهم على بساط الطلب وإرادة السلامة ، والناسك : المتمسك بالفضائل المواظب على الأوراد بالغدو والأصال) .

⁽٣) من آية ١٣ من سورة الشورى .

دائرة الحق مستملون من إحسانه وفضله ، كما أَشار إِليه المؤلف بالآية إِذْ قال :

كلاً نمد هؤُلاء وهؤُلاء من عطاء ربّك وما كان عطاءُ ربّك محظوراً .

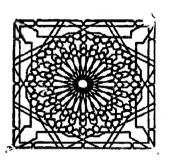
قلت : أشار بالآية (١) إلى أن الكلَّ من عطائه تعالى ؛ فيعطى من يشاءُ ما يشاءُ بلا حجر ، ويمنع من يشاءُ ما يشاءُ بلا علَّة ، فالكل منه وإليه ، وإذا كان الأمر كذلك فلتراع نسبة إحسانه وظهور فضله وامتنانه ؛ فيمن ظهر عليه شيءٌ من شواهد الإحسان بحيث لا ينقص من حقه شيءٌ وإن كان بعضهم فوق بعض في ذلك.

ثم موقع الآية إنما هو فيمن أراد الآخرة أو الدنيا ، لكن آخرها مشير للتفاضل في درجات الآخرة وعليه يجرى التوقيع المذكور هنا ؛ إذ قال تعالى : (وللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَات وأَكْبَرُ للشخرة وعليه يجرى التوقيع المذكور هنا ؛ إذ قال تعالى : (وللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَات وأَكْبَرُ للشخرة وعليه يجرى التوقيع المذكور هنا ؛ إذ قال تعالى : وما هو إلا كما قال :

ارحم بني جميع الخلق كلهم وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة وقر كبيرهم وارحسم صغيرهم وراع في كل خلق حق من خلقه

ومعنى محظوراً : ممنوعاً . والمقصود : ليس عطاءُ الله بمحجور حتى يقصر على من ظهر عليه . بل وربما يفتح منه على من بعد عنه فضلاً عمن له نِسبةٌ فيه والله أعلم .

تنبيه : وأصل هذا الأمر كلِّه ورود الواردات ، وهي منح آلهية لاتتوقَّف على علَّة ، ولاسبب ، ولا زمان ، ولا عين ، ولا أمد ، ولا وقت ، ولا غيره ،



⁽٣) آية ٢٠ من سودة الإسراء .

* المنازل على قدر مراتب النازل .



متى رزقك الطاعة والفنا به فأعلم انه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة .

وقال رضى الله عنه :

قلما تكون الواردات الالهية إلَّا بَغْتة .

قلت: يقول قليلا ما نكون الواردات التي هي التنزيلات العرفانية على القلوب الموجب(١) لتأتيرها بورودها من حبث قومها وسطوتها ومعناها إلا بغتة أي: فجأة دون روية ، ولااستعداد ولا توقيت ، وقد نرد على استعداد وهو أقل من القليل ، بل يكاد أن يكون معدوماً ، نعم قد يُعرف ورودها عقاماتها ومودتها(٢) في بعض الأوقات ، وقد سئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني(٣) رضى الله عنه عن صفة الواردات الآلهية ، والطوارق الشيطانية ، فقال : «الوارد الالهي لابنأتي باستدعاء ، ولا يذهب سبب، ولا يناتي على عط واحد ، ولا في وقت واحد ، والطارق الشيطاني بخلاف ذلك غالباً » انتهى .

ثم ذكر المؤلف وجهاً من وجوه الحكمة في إتيان الوارد على ماذكر فقال :

صيانة لها عن أن يدعيَها العباد بوجود الاستعداد .

قلت : وإنما صانها عن ذلك لثلاثة أوجه : أحدها : لأنها من بساط عزيز ، وما كان من عزيز لاينبغي أن يكون إلا عزيزاً . الثانى : لئلا تكون مبتذلة فيبطل سر الاختصاص وهو الذى جائم من أجله (٤) الثالث : لتعظيم المنّة وتحقيق الشكر على المواجه بها على قدرها ، فقد قيل : اإذا عمت النعم (صُغرت) وكُفرت ، وإذا خصّت عُظمت وشُكرت» . فتأمل ذلك وبالله التوفيق وسيأتي من كلام المؤلف «ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تبتذل بوجود الإظهار أو ينادى عليها بلسان الاشتهار » ، فانظره في محله ؛ فإن له تعلّقاً بما هنا . والله أعلم . وإذا كانت

⁽١) وفي نسخة : المواجهة . (٢) وفي نسخة : وجودها .

⁽٣) هو : عبد القادر بن عبد الله الحسى ، مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين . ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة ٤٩١ ه - ١٠٩٨ م وافتقل إلى بغداد فاتصل بعلمائها ومتصوفها وسمع مهم الفقة والحديث والأدب نم تصدر للتدريس والفتوى ببغداد سنة ٢٨٥ ه . والمعالم سرجليوت الإنجليزي رسالة في ترجمته نشرها ملحقة في المجلة الأسبوية الإنجليزية . وانظر كذلك في ترجمته كتاب الأعلام ص ٣٤٥ م ٢٠.

^(؛) وفي التيمورية : وهو اللبي جاءت على أصله .

حكمة الله في الوارد ماذكر فحق العبد أن يجرى على حكم ذلك فيما التي إليه اعتبار بحكمة الله فيما ألتي إليه وإن خالف ذلك فهو جاهل ، كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

من رأيته مُجيباً عن كلِّ ماسُئِل وذاكراً كلما علم ، ومُعبِّراً عن كل ماشهد فاستدلَّ بذلك على وجود جهله .

قلت: وجهله من وجوه ثلاثة: أحدها: عدم اعتبار المراتب في أنفسها ، فليس كلُّ سائل يستحق الجواب ، ولا كل علم يُذكر لكل أحد ، ولا كل مشهود يعبَّر عنه لكل شاهد ، فقد سئل بعضهم عن مسألة فلم يجب فيها ، فقال له السائل: أما علمت أن من كتم علماً نافعاً ألجم يوم القيامة بلجام من نار؟! فقال العالم: ضع اللجام واذهب ، فإن جاء من يستحقه وكتمتُه عنه فليلجمني.

وقال على كرمَ الله وجهه: «حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ». قال الإمام أبوحامد الغزالي^(١): وقد يتضرر بالحقائق أقوام كما يتضرر الجعل^(٢) بالورد والمسك.

وقيل للجنيد ، رحمه الله ، يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بعض الحكماء : « زيادة هذا؟ . فقال : الجواب على قدر السائل ، لا على قدر المسائل . وقال بعض الحكماء : « زيادة العلم فى الرجل السوء كزيادة الماء فى أصول الحنضل كلما ازداد ربًا ازداد مرارة » انتهى . الشانى : تعلّر الإحاطة فى الجواب بالعلم ، وإضاعة العلم ببذله فى غير محلّه وقصور العبارة عن مدارك الشهود ، حتى ربّما أدت العبارة خلاف المقصود ، ومن ثمّ كفر جماعة من المحقّقين وبُدّعُوا ، وفسقوا ، ولا كفروا ولا فسقوا ولا ابتدعوا . وفى الخبر : إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا ذكروه أنكره أهل الغرّة بالله ، وأنشدوا فى ذلك :

يارب جوهر علم لو أبوح به لقيل لى أنتَ مِمن يَعبدُ الوثَنا ولاستباحَ رجالٌ مسلمون دى يروْن أقبحَ ما يأتُونَه حَسَنَا

⁽۱) هو : محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، حجة الإسلام وفيلسوف متصوف له نحو مائتى مصنف . ولد فى طوس بخر اسان ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام ومصر وعاد إلى بلدته فتوفى بها سنة ٥٠٥ هـ ١١١١١ م . وولد سنة ٤٥٠ هـ ١٠٠٨ م ومن كتبه « إحياء علوم الدين » و تنزيه القرآن عن المطاعن » و « ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل » وهو تفسير فى نحو أربعين بجلداً .

⁽٢) الجعل ، بضم الجيم – حشره الحنفس .

الثالث: أن المحال والاوقات مختلفة ، فَرب مسألة يليق ذكرها فى وقت دون وقت ، ورب علم علم خوطب به فى محل دون آخر ، ورب مشهود صح ذكره فى زمان دون زمان ، ولناس دون أخرين ؛ فالجهل إذن لاختلاف النسب والوجوه ، وقد اختلف المشايخ فى : هل لايبذل علمهم إلا لأهله وهو قول الثورى أو يبذل لأهله ولغير أهله ، والعلم أحمى جانباً (١) عن أن يصل إلى غير أهله ، وهو مذهب الجنيد ، إذ قيل : « كم تنادى على الله بين يدى العامة ؟ قال : لكنى أنادى على العامة بين يدى الله ».

وقيل للثورى : «ألا تُذكِّر أصحابك؟ فقال : إنهم في حجاب القطيعة » ، أو كما قال : والصواب التفصيل ، فما كان من الوعظ والتذكير فللخاصة والعامة ، وما كان من البيان والتقرير فللخاص من المحبين فَمن بعدهم ، وما كان من الأحوال والمنازلات فللمريدين والسالكين (٢) فلكل مقام مقال ولكل عمل رجال . وبالله التوفيق ، ثم الحامل على التعبير وما معه إنما هو حب الاستظهار ، وهو من الميل للدنيا ، والميل للدنيا من الجهل بالآخرة وطلب الدنيا بالآخرة جهل إذ يقتضى عدم تعظيمها وذلك من الغفلة عن عظمة ما أعدّ (٣) الله فيها كمًا وكيفًا ، وهذا أشار إليه المؤلف إذ قال :

إنما جعل الدار الآخرة مَحلاً لجزاء عباده المؤمنين ؛ لأن هذه الدار لاتَسعُ ما يريد أن يُعطيهم ، ولأَنه أَجَلَ أقدارهم عن أن يعجازهم في دار لابقاء لها .

قلت : ذكر هنا حكمتين في تأخير جزاء المؤمنين للدار الآخرة : إحداهما اتساع عطائه وذلك في الصفة والمقدار ودليله قوله عليه السلام : يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر (٤) ، ثم تلا قوله تعالى (فلاتعلم نفس ما أخبى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (٥) ... الآية) ومعناها في كلّ وجه وفي كلّ معنى ، وفي كل نوع وفي كل جزء : وكونه كاملاً ببقائه لايزول ولا يحول ، لأن الآتي قطعاً كالموجود في الحال وما كان مآله إلى الزوال فكأنّه قد زال ، وقد جاء في الخبر : «لو كانت الدنيا من في الحال وما كان مآله إلى الزوال فكأنّه قد زال ، وقد جاء في الخبر : «لو كانت الدنيا من في والآخرة من خزف يبتى لاختار العاقل الذي يبتى على الذي يفنى » ، فيرحم الله القائل :

⁽١) وفي ت (والعلم أحمى جناباً أن يصل إليه غير أهله) .

⁽٢) وفي ت (وما كان من الحقائق والممارف فلأهل المعرفة والواصلين) .

⁽٣) و في ت : (و ذلك من الغفلة عن عظمة ما أعد الله سبحانه فيها لعبادة المؤمنين مما لا يكيف) .

⁽٤) حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما . (٥) آية ١٧ من سورة السجِدة .

فما الدنيسا وزخرفها بشيء ولا أيسامهسا إلَّا عسوار وليس بعاقل من يصطفيها أتشرى(١) الفوز، ويلك، بالتبار(٢)

ثم للجزاء مقدمة وهي وجدان الثمرة ، وذلك دليل القبول ، والعجزاء على قدر القبول وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

من وجد ثمرةً عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول.

قلت : غرة العمل : ما ينشأ عنه من القوائد الدينية والدنياوية ، وذلك يدور على ثلاثة : حصول البشارة بزوال الخوف والحزن لقوله تعالى : (أَلَا إِنْ أَوْليَاءَ اللهِ لَا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلاهُم يَحْزَنُون الذين آمَنُوا وَكَانُوا يَتْقُونَ لَهُمْ البُشْرَى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . الآية (١٣) والحياة الطيبة بالرضا والقناعة لقوله نعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكْرِ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِن فَلَنحْبِينَةً عَياةً طَيِّبَةً (٤) وظهور سر الخلافة بتسخير الكائنات وانفعالها ظاهرا وباطنا لقوله تعالى : (وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنكم وَعَمِلُوا الصالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَهم فى الأَرضِ كما الله تَخْلَفَ الذينَ الدينَ مَنوا مِنكم وَعَمِلُوا الصالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَهم فى الأَرضِ كما الله تَخْلَفَ الذينَ الذينَ آمَنُوا مِنكم وَعَمِلُوا الصالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَهم فى الأَرضِ كما الله تَخْلَفَ الذينَ الذينَ الله الله عنهم الذى ارتَضَى لَهُم ، وَلَيُبَدَلَنهمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفهمْ أَمْنَا . . الآبة) وفي الحديث الصحيح قول ذلك الصحابي : فمنًا من أبنعت له ثمرته فهو مهدما ، ومنا الآبة)(٥) وفي الحديث الصحيح قول ذلك الصحابي : فمنًا من أبنعت له ثمرته فهو مهدما ، ومنا من مات لم يستوف من أجره شبئاً ، منهم مصعب بن عُمير (١٥) رضي الله عنهم اجمعين .

ومن طيب الحياة حلاوة الطاعة ، فمن ثمَّ يصح كونها ثمرة ، لا من حيث ذاتها . فتدبر ذلك، وبالله التوفيق . وإنما كانت الشمرة دليل القبول ؛ لأَن الكريم إذا أعطى ظاهراً بخمل باطناً وإذا وعَدَ أمراً أَقْوى اليقين فيه بمبشراته ولذلك أشار المصنف إذ قال :

إِنْ أَردت أَنْ تَعْرِفَ قَدْرِكَ عَنْدُهُ فَانْظُرُ فِي مَاذَا يُقْيَمِكُ .

قلت : لأن المنازل على قدر مراتب النازل ، فإن وجّهك للدنيا فقد أهانك ، وإن أشغلك بالب العلم فقد أرادك، بالخلق عنه فقد صرفك ، وإن وجّهك للعمل فقد أعانك ، وإن فتح لك باب العلم فقد أرادك،

⁽١) شرى بمعنى باع. (٢) التيار ؛ الحلاك .

⁽٢) آية ٦٢ من سورة يونس . (٤) آية ٩٧ من سورة النحل .

⁽ه) آية ه a من سوة النور .

⁽٦) هو : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف صحابي من السابقين إلى الإسلام أسلم في مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله فأو ثقوه وحبسوه فهرب من مع هاجر إلى الحبشة نم رجع إلى مكة ، وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد وكان في الجاهلية في مكة شباباً وجمالا وفعمة ، ولما أسلم زهد بالنعيم وكان يلقب «مصعب الخير». انظر في ترجمته طبقات ابن سعد ، والإصابة ، والإعلام .

وإن فتح الك باباً إلى مناجاته فقد قربك ، وإن واجهك بالبلاء فقد هداك ، وإن صرفك عن الأغراض فقد أدبك ، وإن رضيت به ورضيت عنه فقد فتح لك باب الرضا عنه وهو أعظم الابواب وأتمها وأكملها ، فقد قال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه : «الرضا باب الله الأعظم ومستراح(۱) العابدين وجنة الدنيا» في الخبر : «يفول الله تعالى : أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخبر والشر فعاوى لمن خلقته للخبر وأجريت الخبر على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الخبر على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه » وفي خبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من أراد أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده الله ينزل العبد حبث يُنزله العبد من نفسه » وقال الفضيل بن (۱) عباض ، رضى الله عنه ، : «إنما يطبع العبد ربّه على قدر منزلته منه » انتهى . وأكبر المنازل كلها التعلق بأوصافه مع التحقق بأوصافك ، بل أكبر الكرامات أن تكون في الظاهر محتثلاً لأمره وفي الباطن مستسلماً لقهره ، وإن شئت قلت : الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية ، وإن شئت قلت : الطاعة والغني به عنها ، فهذه عبارات كلها ترجع لمغي واحد عبر عنه بها . وقل نبه عله المؤلف بالعبارة الأخيرة إذ قال :

ميى رزقك الطاعة والغنا به فاعلم أنه قد أسبغ عليك نِعمه ظاهرة وباطنة .

قلت: وصورة ذلك أن (٤) تعمل بأمر الله لا لشيء ، وترجو من الله خير الدنيا والأخرة لابشيء فتكون له به لا لعلّة ولا لسبب. ومعى أسبغ: أكمل وتمم والظاهرة: الجليّة والباطنة: الخفية والمقصود أن أتم النعم وأكملها وأعلاها وأفضلها القيام بالعبودية في عين مشاهدة الربوبية.

⁽١) وفي ٿ ۽ وسراج ۔

 ⁽٢) وواه الدارقطني في الإفراد على أنس ورواه أبو نعيم في الحلية وفي معتاه الخديث الذي يقول الله تعالى فيه : أذا عند ظن عبدى
 بي إن خير ا فخير وإن شرأ نشر . وقد رواه الطبر إنى في الأوسط وأبو نعيم في الحلية .

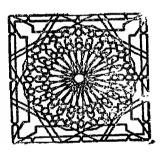
 ⁽٣) هو : أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، من أكابر العباد الصلحاء . كان تقة في الحديث ، أخذ عثه كثير ون ، منهم الإمام الشافعي . أصله من الكوفة ومولده بسعرقند سنة ١٠٥ هـ ٧٢٣ م وسكن مكة وتوفى فيها سنة ١٧٨ هـ ٩٠٣ م .
 انظر ترجمته في الكتب الآتية : طبقات الصوفية - ثذكرة الحفاظ الأعلام - الرسالة القشيرية .

⁽٤) وفى ت : (وصورة ذلك أن تعمل بأمر الله سيحاله لا لشيء ترجيوه من الله من خير الدنيا والآغرة ولا بسبب شيء فتكون له يه).

وإن شئت قلت : إقامة الشريعة مع موافقة الحقيقة ؛ لأن به تقع الراحة والموافقة والكمال والتحقيق والتبرّى ثما سواه تعالى ، فيزول البؤس والسَّغَب ويتحصَّل المراد والطَّلب ، وهي الرحمة الكبرى والنعمة العظمى والفائدة التامّة ؛ فقد قيل : النعمة العظمى الخروج من النفس ، وهيل : النعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق . النعمة ما أسلاك عن دنياك وأُدناك من مولاك. النعمة مالا يوجب ندماً ولا يُعقب ألماً » انتهى .

وصورة ماذكره أن يعمل لله لا لشيء ، ويطلب من الله لابشيء فهو غنى به عن طاعته فيما يريده من ثواب وغيره مع تلبّسه بالطاعة . رزقنا الله ذلك وحققنا به عمنه وكرمه .

تنبيه : نعمة الله بالطاعة والغنا به عنها هي مطلوبه من عباده ، وخير المطالب ماهو مطلوب منه ، وهو ماذكر من الطاعة والغني به .





مطلب العارفين من الله الصلحة في العبودية والقيام بحق الربوبية ٠٠

	,	

وقال رضى الله عنه خير ماتطلبه منه ماهو طالبه منك.

قلت : وذلك لأنه مختاره لك ، وهو العالم بمصالحك والقادر على توصيلها إليك ، وأولى ما نرجع به إلى الله ماجاءنا عن الله ، والذى هو طالبه منك ثلاث : التخلّ عن كل شيء إلا عنه ، والتحلّ بما يرضيه عنك ويردّك إليه ، والدوام على ذلك حتى تلقاه بلا فترة ولا تقصير ، ويعبّر عن ذلك بإحدى عبارات ثلاث : الطاعة والغني به عنها ، والصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية ، وامتثال لأمره والاستسلام لقهره . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله لايسال الخلق عن ذاته وصفاته ، ولا عن قضائه وقدره ، ولكن عن أمره ونهيه » فاطلب ربتك من حيث يطلبك . انتهى . وذكره في «لطائف المنن» .

ثم من مقتضيات الطلب الطاعة ، والانبعاث إليها وجود الحزن على فقدانها وذلك غير مفيد مالم يوجب النهوض إليها حسما نبه عليه المؤلف إذ قال :

الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار .

قلت ؛ الحزن انقباض القلب لفوت محبوب أو خوف حصول مكروه فيهيجه حسرة خوف الفوات ، أو وجود الفوات ، وهو عذاب حاضر ونكد حاصل لافائدة له إلا التلهف على السالف ، والتشمير في المستأنف ، فإن أفاد ذلك عملا أو بهوضاً لاستدراك المكن منه كان حسناً جميلا وإلا فليس بشيء ، بل هو زيادة في الاغترار ؛ لاعتاد صاحبه في باب التوجه والتذكير بالرجعي إلى الله تعالى وقد يزداد صاحبه جرأة ورؤية لنفسه فيكون سپهاً لطرده من حيث يراه سهب قربه . وقد سمعت شبخنا أبا عبد الله القودري رحمه الله يقول : «رأيت في حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا استكمل الرجل النفاق ملك عينيه يُرسلهما مني شاء» .

وقال أبو سليمان الداران رضى الله عنه : «ليس البكاءُ بتعصير العيون ، إنما البكاءُ أن تترك الأمر الذي تبكى عليه ، انتهى . وبالجملة فكل شيء لاحقيقة له فالإعتداد به غرور ، والحزن

بلا بهوض : من ذلك (١) والله أعلم . ثم باعث الحزن : ما يجرى فى الفؤاد من إشارة القلب لجلال المحق سبحانه حتى يقع فيه خوف أو حياءً أو رؤية نقص فى العبودية ونحوها وذلك كله من ملاحظة أو صاف العبد فهذا وإن كان كمالاً فليس بأكمل . وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ما العارف من إذا أشار وجد الحقُّ أَقربَ إِليه من إِشارته .

قلت: يقول ليس العارف الحقيق أو الكامل من إذا أشار ضميره لعنى من الحقيقة أو اسم من أسماء الحق أو صفة من صفاته وجد قلبه وضميره لربه دون ما أشار إليه في قلبه بحيث لم يحسّ بعلم ما وقعت به الإشارة ولا عمناه ، بل ذكر الله به من حيث ما أشار إليه في قلبه ذكراً نيى به ذكره ومذكوره لاستغراقه فيه ؛ لأن ذلك إنما سرى له من تعلَّق الإشارة معنى إليه مرجعه فهو باق في إشارته . وغاية معرفته ما أشار إليه ضميره وهو راجع إليه فإشارته عائدة عليه . وإذا كان كذلك فإنما عرف وصف نفسه فليس بعارف على الحقيقة وإن كان له حظ من المعرفة ؛ ولذلك قبل : «الإشارة نداء على رأس العبد بالبعد ، ويوح بعين العلّة » . وقال الشبلي(٢) رضى الله عنه : «كل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهى مردودة عليهم حتى يشيروا بالحق إلى الحق ، وليسى لهم إلى ذلك سبيل » . وقال أبو على الروذبارى(٣) رضى الله عنه : «الإشارة تصحبها العلل ، والعلل بعبدة من عبن عبن الحقائق » انتهى .

ثم بيّن المؤلف شأن العارف الحقيق في بساط الإِشارة بأن قال :

بل العارف من لا إشارة له .

قلت : يعنى لا إشارة له أصلاً لا لجمال ولا لجلال ، ولكنَّه موقوف في موقف الفناء بالحق عن كل ملاحظة وإشارة وتنبيه ومعنّى ، كما نبَّه عليه المؤلف إذقال :

⁽¹⁾ أي من هذا النمط من الغرور .

 ⁽۲) هو : أبو بكر دنف بن جحدر الشبلى ، عالم عابد ناسك كان فى مبدأ أمره والياً فى (دنباوند) ثم ترك الولاية وعكف على العبادة واشتهر بالتقوى والظرف والصلاح، له شعر صوفى جيد، أصله من « خراسان » ومولده ووفائه ببغداد ، ولد سنة ٧٤٧هـ / ٨٦١ م ، وتوفى سنة ٣٣٤ ه – ٩٤٦ م .

 ⁽٣) حو : أبو على أحمد بن محمد الروذبارى . ترجم له صاحب الرسالة القشيرية فقال : بغدادى المولد أقام يمصر ومات بها
 سنة ٣٢٢ ه ، صاحب الجنيد والنووى ، وكان أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة » .

لفنائه فی وجوده وانطوائه فی شهوده .

قلت: فسقوط إشارته فى حاله لكمال فنائه بشهود الكمال ، لا لنقصه وقصوره عن مدارك الجلال والجمال ، فهو فَان فى وجوده عن وجوده وفى شهوده عن شهوده عوجوده بل عشهوده ويظهر ذلك فى حركات الجميع ، فأما الفانى فكما حكى أن بعضهم خرج فى بعض غيباته فأخذه الكفار فلم يستفق إلا والدلال يقول : من يزيد ؟ فرفع رأسه إلى السماء وقال :

أقامني حُبُّك فيمن يزيد في موقف الذل وقهر العبيد وقد حضر البائع والمشترى عبدك موقوف فماذا تريد؟

وكما اتفق في حكاية حاتم (١) الأصمّ رضى الله عنه إذ أخذه تُركى لينبحه فأتى مُسلم فضرب الله بينى التركى فقتله ، فقيل له : كيف كان قلبك إذ ذاك؟ قال : كنت أنظر ما يحكم الله بينى وبينه . ففي هاتين الحكايتين عدم التمييز عند مواجهة الحكم ولو أشار الضمير للجمال لقال : كنت أرجو الله أن يخلّصني من ذلك أو أراه نعمة قابلة في الحال ، ولو أشار للجلال لقال : كنت أرى ذلك من ذنوبي أو انتظر ما هو أعظم منه . والله أعلم . ثم لما كانت الإشارة واسطة بين الرجاء والخوف ، إذ تفيد كلاً منهما ، جعلها المؤلف واسطة فذكر الخوف قبلها والرجاء بعدها فقال :

الرجاءَ ماقارنه عمل .

قلت: يعنى عملا في سبب تحصيل المرجو لأَجل تحصيله ، وقد عبَر عنه بعض الفقها المقولة : «تعلَق القلب عطموع يحصل في المستقبل مع الأَخذ في العمل المحصل له ، وأقرب منه أن يقال «طمع يصحبه عمل في سبب المطموع فيه لأجل تحصيله . والمقصود أن الرجاء " اللاعمل لايصح كونه رجاءً بل هو أمنية كما قال :

وَإِلَّا فَهُو أَمْنَيَّةً .

قلت : يعنى وإن لم يقارنه عمل فهو أمنية ، أى : تمنى لاحقيقة له ولقد زأيت ليلةً شيخنا الفقيه أباعبد الله القودى رضى الله عنه فى المنام وكنت أقرأ عليه هذه الحكمة فكلماقلت أمنيه قال : أو مَنيَّهُ ... فلما انتبهت تأملت فإذا الأُمنية عينُ المنيَّة من حيث إنها توصّل إليه ؛ لأَن تحصيل المنية إعدام للحياة ، والأمنية كذلك ، والمنيَّة إعدام حِسى ، والأمنية إعدام معنوى .

⁽١) هو ۽ أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان ويقال له : حاتم بن يوسف الأصم ، من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذ « شقيق » وأستاذ » أحمد بن خضرويه » .

وكذلك قال الحسن رضى الله عنه : «يـأمِ الناس اتقوا هذه الأمانى فإنها أودية النوكي(١) فيحلُون فيها ، فوالله ما آتى الله عبداً بـأمنية خيراً فى الدنيا ولافى الأخرة» .

وقال معروف الكرخى (٢)، رضى الله عنه : «طلبُ الجنة بالاعمل ذنبُ من الذنوب، وإرتجاء الشفاعة بالا(٢) عمل نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة الله مع المعاصى حمق وجهل».

وقال الحسن أيضاً : ﴿ إِن قوماً أَلْهُتُهُمْ أَهُ الْهُمُوهُ حَيْ لَقُوا اللهِ وليست لهُمْ حَسنَة ، بِقُول أَحدهم أُحْسن الظن بربيّ ، وكذب، ولو أحسن الظنَّ بربه لأحسن العمل له، وتلاقول الله تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنْكُمُ الذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِكُم أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِن العَاسِرِينَ (٤) انتهى.

وق آخره بحث يطول ذكره . ثم لمًا قرخ المؤلف من ذكر هواعث الطلب ذكر عين المطلوب مقروناً بخير الطَّالهِبن فقال :

مطلب العارفين من الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

قلت لأن ذلك هو المطلوب منهم فهم طالبون منه ما هو طالبه منهم . والصدق في الهبودية بالتزام أحكامها في كل ورد وصدر هو عين القيام بحقوق الربوبية ، ومداره على أمور ثلاث : التشمير للحقوق ، والاعراض عن كل مخلوق ، والاستسلام نحت جريان المة ادير والأحكام ، وقد يُعبّر عنه بامتثال أمره ، والاستسلام لقهره ، أو يعبر عنه بالطاعة والغناء به عنها . فكل صحيح واضح مليح . والله أعلم .

ثم مما يفرض للعارف وغيره فى طلبه بسبب ةطلوبه ، أو دونه وجود التيض والبسط ، وهما حالان للملب يردان عليه توقع أو واقع . فائدة . وورودهما أبنى للعبد بعد فنائه ، وفناؤه بعد مقائه . وهذا مانبه عليه المؤلف إذ قال :

قَبِضُكُ حيث لايبة يك مع البسط وبَسَطك بحيث لايتركك مع القبض و أخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه .

⁽۱) وفى ت : « أو دية الشياطين » والنوكى : ى الحمق .

⁽۲) هو : أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى : أحد أعلام الزهاد والمتصوفين ، ولد فى قرية «كرخ » ببغداد و توفى بيغداد سنة ۲۰۰ ه – ۱۸ م ، و اشتهر بالصلاح والعلم والتقوى قال الغزالى : «كان أحمد بن حنيل و ابن معين يختلفان ويسألانه ولم يكن فى علم الظاهر مثلهما ».

⁽٣) وفي التيمودية : بلا أتباع السنة .

^(\$) أية ٢٣ من سورة فصلت .

قلت : القبض والبسط وصفان وجوديان يتعاقبان على الناب ، فيكون تارة بهذا وتارة بهذا ، وتأرة في موقف الاعتدال وما جعل الحق ذلك إلّا ليعرف العبد أنه في قبضة مولاء ، ليس له من الامر شيء ، فينقطع عن نفسه وعن كل شيء سوى ربه ، إذ ليس من مراد العبد دخول القبض عليه ، ولا مفارقة البسط (له) ، فإذا تحتق عدم دوام ما يحبّه وثبوت مالا يريده لم يسكن لشيء من وجوده ولم يعتد عوجوده ، وتأثير ذلك بالأمور الملابسة له أقوى من تأثيره بالأمور البعيدة عنه أو المنفصلة وهذا ما أشار إليه الجنيد ، رضى الله عنه ، حيث يقول : «الخوف يقبضي ، والرجاء يبسطى ، والحقيقة تجمعى ، والحق يفرقنى ، إذا قبضى بالخوف أفنانى عنى وإذا بسطنى بالرجاء ردّنى على ، وإذا جمعى بالحقيقة أحضرنى (معه) وإذا فرقى بالحق أشهدنى غيره فغطانى عنه و في كل ذلك محركى غير مسكنى ، وموحثى غير مؤنسى ، فحضورى لذوق طعم وجودى فليته أفنانى عنى فمتعنى أو غيبنى عنى فرو حنى (۱) .

وقال فارس ، رحمه الله ، : «القبض أولا ، ثم البسط ، ثم لاقبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط إنما يتعاقبان في الوجود فأما الفنائح والبقائح فلا » . انتهى ، يريد ـ والله أعلم ـ أن الله يربي المريدين في بداياتهم بغلبة القبض عليهم حتى يفنوا عن أنفسهم ، ويلسلوا عن حظوظها ، نم يردهم عليه بالبسط حتى يأتسوا به ، وبما منّة مِن مِنة فيها توجهوا إليه ، حتى لا مكنهم نزوع عنها ، ثم ينتفيان عنهم ؛ ليتفرغوا لوظائف العبودية دون علّة نفسانية ولا غيرها ، فيكونون له به لالشيء من نفوسهم ولا بشيء منها . وهذا مراد الشيخ ، أو قريباً منه ، وبالله التوفيق .

ثم إن أحوال الناس فى تلقى القبض والبسط مختلفة على قدر قواهم وما واجههم من العرفان والتحقيق وهذا ما أشار إلية المؤلف إذقال :

العارفون إذا بُسطوا أخوف منهم إذا قبضوا .

قلت : حقيقة المعرفة نقتضى العارف قصر نظره على مولاه واعتباره بأوصافه مما به يتولاه، فإذا واجهه بجمال ذكر جلاله وإذا واجهه بجلال ذكر جماله لأنّه لايماس من الله فى شيء ولايامن منه فى شيء ؛ لأن ظواهر الأخبار لاتقضى على باطن الصفات فلايامن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ومن يقنط من رحمة ربّه إلا الضالون ، فهم إذا عاينوا صورة آمن خافوا(٢) المكرود، وإذا رأوا صورة خوف رجوا الفضل . قال الشيخ أبو العبّاس المرسى ، رضى الله عنه : «العامّة إذا

⁽١) وق التيمورية (أو غيبي عني فرجعني) .

⁽٢) رى التيمورية : (. . . إذا عاينوا صورة خوف رجوا الفضل و إذا عابنوا صورة أمن خافوا العدل) .

خوقوا خافوا ، وإذا رجوا ، والعارفون إذا خوفوا رَجُوا وإذا رُجُوا خافوا» انتهى ، وقد يفهم ذلك من حديث الغار وحديث بدر ؛ إذ قال أبو بكر فى الأول : يارسول الله ، لو نظروا إلى أقدامهم نراونا فقال عليه الصلاة والسلام : لا تحزن إنَّ الله معنا .

وكان عليه السلام يوم بدر بقول : «اللهم إن بلك هذه ااحصابة لن نعبد . فيةول أبوبكر : دع مناشدتك ربك ؛ فإنه قد وعدنا بالنصر » . فكان أبو بكر فى مقام الثقة بوعد الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف النظر ؛ لاتساع علم الله ، وهو أتم مع أن كل كمال بحسب من ظهر فيه ، فاعرف ذلك وبالله التوفيق . .

ومن موجبات الخوف ما يتضمنه البسط من الزلل وعدم الوقوف عند الحد ، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا القليل.

قلت: وذلك لأن البسط يوجب انتشار الحرارة في البدن فيستدعي استرسال النفس مع ما يلاعها وذلك يتضمن سوء الأدب في الحركات والتصرفات؛ إذ لاعكن معه حفظ الحرمة لوجود الطيش الباعث على الحركة من غير اختيار فلايقف على حدّ الأدب مع ما ذكر إلا من كان متمكن النفس في الأدب متحققاً بحقائق حفظ الحرمة ، قد غيس قلبه في بحر الهيبة ، ولذلك قيل ؛ وقف على البساط وإباك والانبساط ». وقال رجل لأبي محمد الجريري(١) رحمه الله : كنت على بساط الأنس وفتح على طريق البسط فزللت زلّة فحجُبت عن مقاى فكيف السبيل إليه دُلْني على الوصول إلى ما كنت عليه .. فبكي أبو محمد وقال : با أخي الكل في قبضة هذه اللحظة ، لكني أنشدك أبياتاً لبعضهم ، وأنشد يقول :

قف بالديار فهده آثارهم تبكى الأحبة حسرة وتشوقاً كم قد وقفت بِربْعها مُسْتَخْبِراً أوسائلا عن أهلها أو مشفقداً فنُجابِني داعى الحوى في رسمها فارقت من بهوء فَعَزَّ المَلنَقي

وسئل بعض المشايخ عن تلك الزلّة فقال «انبساطُ مع الحق من غير أدب» انتهى، ثم ذكر الشيخ بعض علّة كونه موجباً لاساعة الأدب في غالب الأحوال فقال: البسط تناخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لاحظ للنفس فيه.

⁽١) أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري ، من كبار أصحاب الجنيد ، وأقمد بعد الجنيد في مكانه . مات سنة ٣١١ ه .

قلت : وموقف الحظوظ مناف للقيام بالحقوى فيما يتضمنه من الولوع والاسترمال ، بخلاف محل فقدها . قال في «لطائف المنز» : «البسط : مزلة أقدام الرجال ؛ فهو موجب لمزيد حدرهم وكثرة لجائهم . والقبض أقرب لوجود السلامة ؛ لأنه وطن العبد ؛ إذ هو في أسر قبضة الله تعالى ، وإحاطة الحق تعالى محبطة به ، ومن أين يكون للعبد البسط وليس هو شأنه (١)؟ والبسط خروج عن حكم وقته ، والذبض هو اللائق بهذه الدار ؛ إذ هي وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى » انهى .

وقد قالوا إِن القبض الأَرواح والبسط الارتياح والقبض حق الحق منك، والبسط حظَّك منه ولأَنْ تكون بحق ربّك أولى من أن تكون بحظ نفسك .

ثم أسباب القبض والبسط راجعة لعطاء أو منع ، وهما لايتحققان في صورهما ، فوجب أن تراعى الحائق ويذكب عن صور الأمور كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك.

قلت : إذا كان الأمر كذلك فكن حائفاً راجيًا في عطائه ومنعه ، راجعاً باللجاء والافتقار إليه فيهما غير مطمئن بشيء منهما ؛ إذ قد يكون في طبّه خلاف ما ظهرت به صورته . وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله الكريم (فأمًّا الإِنْسَان إذا مَا ابْشَلاهُ رَبّه فَأَكْرَمَهُ وَنَعْمَهُ فَيقولُ رَبّي أَهَانَن ، كَلَّا .)(٢) أي ليس الأمر ربي أكرَمَن ، وأمًّا إذا ما ابْشلاه فقلدر عليه رِزْقه فيقول ربّي أهانن ، كلًا .)(٢) أي ليس الأمر كذلك ، بل قد يكون المنع (٣) عطاء ، والعطاء إهانة ، أو على مقتضى صورته فلا تفرح بشيء ولاتحزن عليه من حيث وجوده ، فافهم . شم المنع في العطاء بأن يكون صارفاً عن الله ومشغلاً عنه كما قيل : ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم ، فأمًّا صورة العطاء في المنع في المنا في النا المؤلف مأن قال :

منى فنتح لك بابَ الفهم في المنع عاد المنع وهو عين العطاء .

قلت : لأنه يردّك إلى مولاك ، ويصلك به من جهة مابه تولّاك ، والنعمة ماوصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق وسيأتى مزيد بيان عند قوله بعد : (متى أعطاك أشهدك برّه ومتى منعك أشهدك قهره).

⁽١) وفي النسخة الحطية بدار الكتب (وهذا شأنه) .

⁽٢) آية ١٦ من سورة الفجر .

⁽٣) وفي التيمورية (بل قد يكون المنع كراماً) .

ومن مقتضيات الفهم عن الله وجود الرضا عنه سبحانه وتعالى ؛ لأن الرضا عن الله جنة معجلة وحالة حسنة ، ومفتاح كل خير وبر ، وقال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه : «الرضا باب الله الأعظم ومستراح العابدين وجنة الدنيا». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤمن بكل خير على كل حال إذ نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله (الحديث) وقد عد المؤلف فى التنوير ، وجوه الفهم ، وأنهاها إلى عشرة ، ثم بين جميعها بما هو متأكد على كل مريد صادق وبالله التوفيق . ومن وجوه المنع فى العطاء والعطاء فى المنع ماذكره المؤلف بأن قال :

الأُكوان ظاهرها غرّة وباطنها عبرة .

قلت : فمن نظر إلى ظاهرها أسرته ، ومن نظر إلى باطنها هَدَه (١) وإن اشتغل بها صوفته ، وإن اطمأن إليها صرعته ، وإن أعرض عنها فاتحته بما فيها ، فالعاقل ينبسط بإدبارها أكثر من إقبالها ويتحرّز في إقبالها أشد من إدبارها ، وكذلك كان السلف رضى الله عنهم إذا أقبلت الدنيا عليهم قالوا : فرب عجلت عقوبته ، وإذا أقبل الفقر قالوا : مرحباً بشعار الصالحين . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم من كل آفة وهفوة قد عُرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض فأبي إلا أن يجوع يوماً ويشبع يوماً ، ولما سألته ابنته وقُرّة عينه فاطمة رضى الله عنها خادماً ليما وجدته من الألم عند طحن الرحى دلّها على ذكر مولاها عند نومها قائلاً : ألا أدلّك على ماهو خير وجدته من الألم عند طحن الرحى دلّها على ذكر مولاها عند نومها قائلاً : ألا أدلّك على ماهو خير أربعا وثلاثين وذلك خير لكما من الخادم . . . الحديث) كل ذلك فراراً من زينة الدنيا وغِرّتِها ورجعاً إلى مادلً عليه وجود عبْرتها ، أليست بدار فناء وزوال ومحل نقص وارتحال ، لكن العبد مبتلّى بنفسه معلّقًا بأسباب معاشه ورياشه فوجب أن يتناول على قدر حاجته . والنظر إلى ما وراء مبتلّى بنفسه معلّقًا بأسباب معاشه ورياشه فوجب أن يتناول على قدر حاجته . والنظر إلى ما وراء ذلك إنما هو من نفسه الخبيثة . وإن لم ينظر فلغلبة وارد الحقيقة عليه كما قال :

فالنفس تنظر إلى ظاهر غِرَّتِها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها.

قلت فإذا نظرت إليها النفس وقع البسط والقبض بإقبالها وإدبارها ، وإذا نظر إليها القلب وقع البسط والقبض على حسب ماكوشف من حالها ومن أجل ذلك قال بعضهم : «تركت الدنيا للسرعة فنائها وقلّة غنائها وكثرة عنائها وخسّة شركائها».

(وقال بعض العلماء : ماسطع لى زينة من زخرف الدنيا إِلَّا كُشف لى باطنه فظهر عندى عزوف عنها) .

⁽۱) وفى : ت (ومن نظر إلى باطنها غمته) .

قال الشيخ أبوطالب المكيّ رضى الله عنه : فهذه عناية من الله لمن والله من أوليائه المقربين ، فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يعتبر بآخره ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ، ومن كوشف بعاقبتها لم يستهوه (١) زخرفها ، وكان عيسى عليه السلام يقول : ويلكم علماء السوء مثلكُم مثل قناة خَبث ، ظاهرها جِصِّ وباطنها نَتَن ، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بترك النظر إلى الدنيا فقال عزَّ وعلا (وَلاَ تَمُدَنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَامَتَّعْنَا به أَزْوَاجًا منهم زَهْرَهُ الحياةِ الدنيا لينفتنهُم فيه . . الآية)(٢) فني هذه الآية : أن الدنيا فتنة والنظر إليها مذموم وإن لم يكن حرامًا علينا لأن فيه عليه السلام أسوة لنا كما لنا أسوة به صلى الله عليه وسلم . ومن وجوه العبرة رؤية الفنا كما أن من الغِرَّة رؤية النظر لما يحصل بها من الغِزَّ والغني وعلى (٣) ذلك نبه المؤلف إذ قال :

إِن أَردت أَن يكون لك عزُّ لايفني فلاتستعزنَّ بعزّ يفني .

قلت : وكل عزّ فى الدنيا فهو فان لأَنه إنما يكون بأسياما وهى فانية وما ترتَّب على الفانى زال بزواله . قال فى «التنوير» : «فإن اعتززت بالله دام عزلُك ، وإن اعتززت بغير الله فلا بقاء لعزّك ، إذ لابقاء لمن أَنت به متعزز .

قال : وأنشد بعض الفضلاء لنفسه :

اجعل بربك شأن عـــز ك يستقـــر ويثبت في عـــزك ميت فإن عـــزك ميت

آن القبض والبسط بإدبار الدنيا وإقبالها ليس بشيء ومن وجوه ما يقع بد العز ويحصل به البسط بوجوده والقبض بزواله الخوارق والكرامات التي من أكبرها طي الأرض فلذلك خصمها المؤلف على المؤلف بالبسط فقائد أن القبض بزواله الخوارق والكرامات التي من أكبرها طي الأرض فلذلك خصها المؤلف بالتنبيه فقال :

⁽١) وني ت : (لم يسر بماجلها) . (٢) آية ١٣١ من سورة مله .

 ⁽٣) وفي نسخة الدار ؛ (وأن النظر إليها مذموم - وإن لم يكن حراماً علينا - لأن فيه أسوة لنا به عليه السلام . من وجوه المبرة بروية الفناء كما أنه من وجوه الغرة النظر لما يحصل بها من العز والغي (.

⁽ه) آية ٩٧ من سور طه . (ه) وق ت : تمزل .

الْضَيُّ الْحَقْيْقِي أَنْ تَطْوَى مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ حَتَّى تَرَى الآخرة أَقْرَبَ إِلَيْكَ مَنْكُ .

قنت : يقول ظاهر الطيّ من الفعل والكرامة كطيّ الأيام بلاطعام ولاشراب ، أوطي الأرض بحيث ية طعها دون مشي ولا تعب في أقرب مدة ، كلاهما لاعبرة به إنما هو رسمي خارج، وإلمَا العلى الحقيق طي الدنيا بالزهد ، كما قال بعضهم في قوله عليه السلام : «الدنيا خَطُوة عَوْمِنَ أَى أَنَّهُ يَنْخَطَّاهَا بِالزهد ، وكقول بشر رضي الله عنه : من دخل طريقتنا يومين فقد حاز مَنْتُ الْمَارِينِ ؛ قيل : لأَنه يترك في الأُولِ الدنيا ، وفي الثاني : التعلُّق بالآخرة ، وفي الثالث يكون لربّه بلاعلّة ، وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : «ليس الشأن من تُطوى له الأَرض فإذا هو ممكة أو حيث شاء من البلاد ، إنما الشأن من تُطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربّه». وقال بعض المشايخ: «لاتعجبوا ممن لم يضع في جيبه شيئاً فيخرج منه ما يريد ، ولكن . تعجبوا من يضع في جيبه شيئاً فيدخل يده فلم يجده فلا يتغيّر». وقيل لأبي (١)محمد المرتعش، رحمه الله : « إِن فلانا عمتمي على الماء ، فقال : عندي من مكَّنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من (٢) المشي على الماء والحوى » انتهى .

فرؤية الدنيا بعين الفناء والزوال يوجب طيّها عن نظر العبد وزهده فيها ؟ لاستشعاره أنها قرِب من أن يرحل إليها وأدنى من أن يستعيد شأنها(٣) . ودليل ذلك ماجرى مع الأَيام من التغيّر والانتقال : ألانرى أن الليالى والأيام يبليان كلُّ جديد ويأتيان بكل موعود . (وسيأتي إن شاء الله في قول المؤلف لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها). والله الموفق للصواب ومما يأتى بالقبض والبسط عطاء الخلق ومنعهم ، وعطاءُ الله تعالى ومنعه ، وإليهما يرجع جميع ماذكر والأَصل أن كل ما يأتى من الله بلا واسطة فهو رحمة ونعمة ، وكل ما يأتى بواسطة الخلق عكسة . إِلَّا أَن يتأَيِّد بِأُمرِ من الله . وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إِذ قال :

العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله عزوجل إحسان .

⁽۱۱ نه : ابو محمد عبد الله بن محمد المرتعش ، تینسابوری ، قال عنه الفشیری : « کان کبیر الشأن ومات ببغداد سنة ۳۲۸ ». وَقُالَ الْمُدْرِي ﴿ عَجَالُهِا الْدَلْيَا فِي النَّصُوفَ ثَلَاثُهُ : الشَّبَلِّي فِي الْإِشَارِ الَّه ، و المرتمش في النكث ، وجعفر الخلدي في الحكايات » .

⁽٢) وق التيمورية (أعظم ممن مكنه من المثنى على الماه . . . إلخ) .

٣١) . في تحييمورية (يستفه لشأمها ربن دلائل ذلك ما يجرى مع الأيام من التغيير . . الخ) .

قلت : وذلك لأن المنع منه تعالى يقتضى اللجاء إليه والدوام بين يديه ، وحسنَ الاختيار في وجّه به إليك ؛ إذ لا يمنعك من بخل ولا عدم ولا افتقار ولا احتياج ، وإنما بمنعك رحمةً بك ، فالعطاء منه هو العطاء ، والمنع منه هو عين العطاء لمن فهم مراده به . ولكن لايفهم العطاء في المنع الله عند وقال أبو حبيب البدوى رضى الله عنه لسفيان الثورى رحمه الله : (مالى أطلب الشيء من الله تعالى فيمنعنى قال : مَنْع الله إيّاك عطاء ؛ لأنه لم يمنعك من بخل ولا عُدْم » . وقال الشيخ محى محى الدين بن عربي : «إذا منعك فذلك عطاؤه ، وإذا أعطاك فذلك منعه ، فاختر الترك على الأخذ » انتهى .

ولكن آخره مقيد بما إذا كان العطاء صارفاً لك عنه وهو أمر لاينحقق ، فلزم الحدر في الترك. والله أعلم . فأمّا العطاء من المخلق فهو حرمان من وجوه ثلاث : أحدها : تقلّد المنّة وقد قال الحكماء : الصبر على العدم أيسر من تقلّد المنن . والثاني : صرف الوجه إليهم والأنس بهم ، وربّما أدّى إلى الاعتماد عليهم فكان سبب الطرد والإبعاد والعباذ بالله . والثالث: شغل الوقت بهم مكافأة وغيرها طلباً للسلامة من الذل معهم ، وإلّا كنت ذليلاً فيهم . وقد قيل : «عزّ النزاهة أشرف مِن سُرور الفائدة» . وقد قال الشيخ أبو الحسروضي الله عنه : «اهرب من خير الناس أكثر ممّا تهرب من شرّهم ؛ لأن خيرهم يصيبك في قلبك وشرّهم يصيبك في بدنك ، ولاًنْ تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك ، وفيوصية على كرم الله وجهه : لاتجعل بينك وبين الله مُنعما واعدُد نعمة غير الله عليك مغرماً ؛ فلذلك قال القائل :

فلا أَلبس النَعْمي وغيرُك مُلْبسي ولاأَقْبل الدنيا وغيرُك واهب

جبر الله صدَّعَ قلوبنا بالإِقبال عليه ، ومنَّ علينا في كل حال بالدّوام بين يـديـه وحال بيننا وبين كل ما يـحول بيننا وبينه إنه منعم كريـم .

تنبيه : إذا كان منع الله عطاء ، وعطاء الخلق منعاً وحرمانا وجب الإعراض عنهم بوجود الاقبال عليه ، وذلك يقتضى وجود إكرامه وأفضاله بلامهلة ولاتراخ ، كما نبَّه عليه في افتتاح :

** لو كشــــف عن نور الولى لعبد ٠٠٠!



من أذن له في الدعاء ٠٠ فتحت له أبواب الرحمسة ٠٠ وما سسسئل الله شيئاً قط أحب الى الله من أن يسأل العفو والعافية ٠٠

وقال رضى الله عنه جَلُّ ربُّنا أَن يُعَامِلُه العبد نَقْدًا فيجازيه مُسيثةً .

قلت : بل جزاؤه كلّه معجّل وإن كان ما في الآخرة مؤجلاً و فإن المأتى قطعاً كالموجود في الحال والتنعّم بانتظار الفائدة زيادة في الإحسان بها ، وإنما كان الأمر كما ذكر لثلاثة أوجه : أحدها أنه تعالى كريم ، والكريم إذا أعطى كمّل وإذا خوّل نوّل وإذا تفضّل وصّل ، الثانى : أن العبد فقير محتاج في الحال والمآل فيقدّم له ما يحتاج إليه من معارضو أحوال وغيرها ويدخر له ما يستغنى عنه من ثواب وحسنمآب . الثالث : أن مراده تعالى من عباده المخلصين إفراد قلوبهم له المفينهم على ذلك عا يوجّهه لهم ولو لم يكن من جزائه على الطاعة إلا وجود التخصيص بالتوفيق لكان كافياً . وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

كَنِي من جزائه إِيَّاك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً.

قلت: وذلك أنك من حيث أنت لايليق بك إلا النقص ، بل هو وصفك اللازم ونقصك (٣) الملازم ، وماجرى عليك من وجوه الكمال فمنة ورحمة واجهتك منه ، قال الله تعالى : (وَلَوْلا فَصَلُ اللهِ عَلَيكُم وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنكُم مِن أَحَد أَيداً) (٣) وقال عزّ وحلا : (وَلَوْلا فَصَلُ اللهِ عَليكُم وَرحمتُهُ لاَتَبعتُم الشّيطانَ إِلّا قليلا .. الآية) (٤) وقال تعالى: (بَلِ الله يَمُن عَليكُم أن هَذَا كُمْ للإيمانِ إِن كُنتم صادقين..) (٩) إلى غير ذلك وبيان ذلك من ثلاثة أوجه ! أحدها أن الطاعة كمال لك فالمنة عليك فيها بتوفيقك لما قيه كمالك . الثانى : أنها أمان لك في الدنيا والآخر فالمنة فيها بتأمينك أو تسخيرك (١) بسهب حصول تأمينك ، الثالث ؛ أنها عزّ لك وغنى في الدارين بما أودع بيها من الخواص وما وعد عليها من الثواب . ومن أكبر خواصها وجود الحلاوة الواقعة بها والأُنسُ المتوجه بسببها ، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قاله :

⁽١) وني التيمورية (افراد قلوبهم له عز وجل فيمينهم . . .) .

⁽٢) و في ت ي (و نعتك) . (٣) آية ٢١ من سورة النور .

⁽٤) آية رقم ٨٣ من سورّة اللماء. (٥) آية ١٧ من سورة الحجرات ـ

⁽٩) وفي التيمورية : بتأمينك وتيسيرك لحصول سبب الأمن.

كني العاملين جزاءً ما هو فاتحه على قلومهم في طاعته .

قلت : يعنى حال التلبّس مها من حلاوة المناجاة ولذَّات المصافاة وسنى الحالات حتى قال بعضهم : في الدنيا جنة من دخِلها لم يشتق إلى جنة الآخرةِ ولا إلى شيءٍ (وهي طاعة الله عزُّ وجل) ، وقال غيره : ليس في الدنيا شيءٌ يشبه نعيم الجنة إلا مايجده أهل التعلُّق في قلوبهم بالليل من لذَّات (١) المناجاة . وفي الحديث : إن رجلين من الصحابة كانا في حرس السلمين من الكفار فقام أحدهما يصلى ونام الآخر فكبّد (٢) كافر قوسه وضرب المصلِّي فأصابه السهم فلم يحفل به ، ومضى في صلاته فعاوده بثَّان كذلك ثم ثالث فلما رأى ذلك أيقظ صاحبَه وقال : إنيِّ لولا خفت على السلمين ما أيقظتك ، ولكان ممّا أنّا فيه شاغلًا لى عما أصابني . . . (أو كلاماً هذا معناه) وقَطعت رجُل(٣) عروة بن الزبير رضي الله عنه لأَكلَة (٤) كانت ما وهو في صلاته فلم ينحس مها. والنقول في هذا الباب كثيرة ، وقد استبل بها ابن أبي جمرة على أنها لذَّة حسيَّة وجدانية خلافاً لبعض الفقهاء ، واستدلاله صحبح وبالله التوفيق ، ثم قال المؤلف :

وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته .

قلت : وكني العاملين ما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته أى في طاعته بطاعته وما يجري منها لحم في حال التلبّس ما وبعد ذلك من تآنسهم به وعا منه وإليه وما يصلهم به من الإمدادات العرفانية والمواريد العلمية والإِيمانية ، قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالحات سَيَجْعَلُ لَهُم الرَّحْمنُ وُدًا)(أُ) قيل : يعني فيا بينهم وبينه ، وقيل فيا بينهم وبين عباده . وقد يريد الجميع وهو صحيح مليح يؤيده حديث : إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني أحب فلانا فيحبُّه جبريل ، ثنم يُنَادَى جَبريل في أهل السَّاءَ إِن الله يَحْب فلاتاً فأُحبُّوه ، ثم يوضع له القبول في الأَرض . وهو صحيح مشتقور ، وإلى يُعتاه أشار عظامًا رحمه الله تعالى حين أَوْصي مالكُ ابن أنس رضى الله عنه إذ قال : أطع الله يحبك الناسُ وإن كرهوا : وقال على كرَّم الله وجهه : من أراد الغنى بغير مال والعزُّ بغير عشيرة فلينتقل من ذلِّ العصية إلى عزِّ الطاعة وأنشد في ذلك :

⁽١) وفي التيمورية (. . . يشبه نعيم الآخرة إلا ما يجده أهل التعلق في قلوبهم بالليل من لذة المناجاة) .

⁽٢) كبد : قبض على كبد القوس . وكبد القوس : مقبضها أ. كما جَاءٌ في المُصبَاح المنس . (٣) وفي التيمورية (وقطعت من رجل عروة بن الزبير آكلة كانت بها) ,

⁽٤) جا. في القاموس المحيط ، الأكلة ركمؤحة ، داه في العضو بأتكل منه ,

⁽٥) آية ٩٦ من سورة مريم .

إن عرفان ذي الجلال لَرِزْ . . وبَهساء ، وبَهجة وسرور وعلى العارفين منه بهماء وعليهم من المحبّة نمورٌ فهنيئاً له ارف بك رقي هو والله دهدره مسرور

فَإِذَا جَزَاءُ العملِ عَلَى ثَلَاثَةٍ أُوجِه : جَزَاءٌ قبله ، وهو التوفيق ، فيكون العمل شكراً له ، وجزاءً بعد العمل ، ويكون قبوله والفرح بالمنةفيه شكرُه ، ومن تمام ذلك التوجّه لتحصيل مثله في المستقبل بمحض المحبّة والعبودية ، وشكر اللُّه لإلجلب ولا لدفع إذ كان مستشعراً به شكر النعمة والاستغراق في المنَّة ، وعلى هذا نبَّه المؤلف إذ قال :

مَن عبده لتنيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أو صافه .

قلت : وذلك أنها تقضى بأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا يُنسى ، لا لعلَّة ولا لسبب ، بل لحق الربوبية وواجب العبودية له ، وسابق إحسانه وكرمه ؛ إذ حقه واجب وإحسانه سابق(١) (فعلى العبد) أن يعمل له تعالى الإلشي أ ويطلب منه الإلشيء ، الأن الكل منه وإليه ، فالعمل على الأُغراض والأُعواض إساءة أدب . والطلب له يغير العمل قيام بحق الحرمة (٢) ، وعدم الطلب رأساً فيه رائحة الاستغناء وغير ذلك لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهِا نُطْعِمُكُمْ لِوَجَّهِ اللهِ لَانْرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءُولاشكوراً ، إِنَّا يَنجَافُ مِنْ رَبِنَا ﴾٣] فجعل الإطعام لإلعلَّة ، ومخل الخوفِ يغيرُ ميحل العطاء ، فافهم ، وفيا نقل وهب من الزبور يقول الله تعالى (ومَن أظلم من عبدني لجنَّة أو نار لو لم أحلق جنة ولا ناراً لم أكن أهلاً لأَن أطاع!!

وفي المخبر : «لايكن أحدكم كالعبد السوء إن لم ينخف لم يعمل ، ولا كالأجير السوء إن لم يُعط الأجرة لم يعمل ، وإنما كان هذا أجير سوء لأنة قد أساء الظن مستعمله ولا يليق به ذلك ولم يُعط الحرمة (٤) حقها ، ولا توجّه بالمروءة في محلِّها . فافهم . وقال عليه الصلاة والسلام : «نعم العبد صُهيبُ لولم يخف الله لم يعصه» ، أي لكنه «يخافه ولا يعصيه ، فالحامل له على ترك المعصية غير الخوف مما هو أعمُّ من الرجاء. ثم العطاء والمنع للمتوجهين إنما هما رسائل تحمل هدايا التعريف ، فالاشتغال في (٥) (الجلب فيهما تضييع لحكم الوقت وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

⁽١) وفى التيمورية (. . . وإحسانه سابق وهو رب الكل ومربيهم بلطيف إحسانه فحق العبد أن يعمل له تعالى لا لشيء ويطلب

⁽٢) وفي التيمورية (والطلب له بغير العمل لنيس قياماً بحق الحدمة) .

 ⁽٣) آية رقم ٩ من سورة : الإنسان ...
 (٥) وق نسخة (فالأشتفال بالجلب و الدفع فيهما تفهييع ... البخ) .

متى أعطاك أشهدك برَّه ومنى منعك أشهدُ ك قهره فهو فى كل ذلك مُتَعرِّف إليك ومقبل بوجود الطفه عليك .

قلت : فالتقلبات للتعريف والعبادات للتصريف والكل رحمة ولطف إذا أقبل عليك بما وجه إليك أو وجه عليك مما أو فيه عينك فوجب عليك الإقبال عليه بمعرفة منته والتعرف لما واجهك به من قهره أو رحمته ، والإقبال على عبادته شكراً له على ما أولى وأسدى في عطائه ومنعه ، فالمؤمن شغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً ، لكن غلبة الحوى وعدم الفهم هو الداعي للإعراض في محل الإقبال وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال :

إنما يؤلك المنع لعدم فهمك عن الله فيه .

قلت ؛ لأنك لو فهمت عنه تسلّيت بما فهمته من لطفه وإبراره في منعه وعطائه ؛ إذ الكل رحمة وكرامة ولطف (كما يأتي من قوله منظن انفكاك لطفه عن قدّره فذلك لقصور نظره وقد مرّ قوله مي فتح لك ياب الفهم عاد المنع هو عين العطاء ، وعن قريب يأتي قوله ليخفف ألم البلاء عنك عِلمُك بأن الله سبحانه وتعالى هو الميلي لك) وبالجملة : فمن علم أن الله تعالى رحيم به ومتفضّل عليه ولطيف به لم يتألم بما يواجهه منه ، وقد ذكر في أول «التنوير» وجوها من الفهم يتعيّن النظر فيها على كل لبيب عاقل . وبالله التوفيق .

ثم من وجوه المنع في العطاء ما ذكره بأن قال :

ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول.

قلت : والطاعة عطاءً ، وعدم القبول منع مصحوب بعطاء ، بل عطاءً مصحوب بمنع فعاد منعاً ، إذ لاعبرة بعمل لاقبول فيه . وباب القبول ثلاثة أمور : أحدها : التّقوى (إنّما يتقبل الله من المتقين) فكل عمل لاتقوى معه تعب لافائدة له ، إلّا ما يُرجى من أنس النفس به ليسهل عليها عند تلبّس التقوى (١) الثانى : الإخلاص : إذ لا يُقبل إلاما أريد به وجهه ، لحديث : يقول الله تعالى (أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه) (٢) الثالث : اتقانه بالسنّة واتباع الحق ؟ إذ لا يقبل الله عمل عامل إلا بالصدق واتباع وشريكه الله عمل عامل إلا بالصدق واتباع

⁽١) وفى ت : (ليسهل عليها عنده تيسير التقوى) .

 ⁽۲) دوى ابن ماجه (ورواته ثقات) وروى ابن خزيمة في صحيحه والبيهتي عن أبي هريرة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام عقال : قال الله عز رجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ فمن عمل لي عملة أشرك فيه غيري فأنا منه بترى، ، وهو للذي أشرك ه .

الحق . فمن وجد هذه الثلاث فَلْيُسَر بعمله ؛ لأَنه دليل قبوله وإلا فليبك على تعبه فإنه دون حاصل ولا تحصيل . ثم قال :

وقضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول .

قلت: يقول: وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول بما يفتح به عليك من أبواب الهداية والخير التي أصولها (ثلاثة): الانكسار؛ إذ قال الله تعالى في الحديث: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى)، والتوبة (إن الله يحب التوابين) والتشمير مع الحذر الموجبين للجد والإخلاص المخلّصين من العيوب والذنوب؛ فقد ورد في الحديث: «ربّ ذنب أدخل صاحبه الجنّة». وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه: «في إشارة قوله تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) يولج الطاعة في المعصية ويولج المعصية في الطاعة فيطبع العبد الطاعة في عجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يعملها ويطلب من الله العرض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات. ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله، ويعتذر منه، ويستصغر نفسه ويعظم من لم يعمله فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأبتهما الطاعة وأيتهما المعصية ؟!». وهو معنى ماذكره المؤلف إذ قال:

معصية أورثت ذلاً واحتقاراً (١) خير من طاعة أورثت عزّا واستكباراً .

قلت: الحير في الطاعة بالذات والشر فيها بالعَرَض ، والشر في المعصية بالذات والخير فيها بالعَرَض ، وخير الطاعة من حيث إنها عبودية له وخضوع بين يديه ورجوع إليه وطلب لما عنده ، وشر المعصية في ضد ذلك ، فإذا أوجبت الطاعة ما هو بالمعصية في الذات (٢) كانت شراً ، وإذا أوجبت المعصية ما هو في الطاعة بالذات كانت خيرا ، ولذلك أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (لولا أن الذنب خير من العجب ما خلاً الله بين مؤمن وبين ذنبه أبداً) وقال عليه السلام : (لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أشد من ذلك : العجب) وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : «انكسار العاصي خير من صولة المطبع» ا ه وإنما ينسيك أفعالك رؤية تقصيرها ، أو شهودُ منته تعالى المستغرق لها وهو أولى ، فلذلك اتبع المسألة بكلام جامع للمنن فقال :

نعمتان ماحرج موجود عنهما ولابدُّ لكل مكوّن منهما : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد .

قلت : إذ لابدٌ من وجود ومدد ، وإلَّا كان المخلوق معدوماً بأَولُه ، وراجعاً إلى العدم بآخره كما قال تعالى : (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكَ شَيئًا) (٣) وهذا : الإِيجاد . وقال عزَّ من قائل

⁽١) وفي نسخة : وافتقاراً . (٢) في ت : ما هو في المصية بالذات . (٣) آية ٩ من سورة مريم .

إخباراً عن قول بعض أهل التوفيق (رَلُولا نِعْمَةُ رَبَى لَكُنْتُ مِنَ المَحْضَرين) (ا)وهذا: الإمداد. فالامر إذن كما ذكر المؤنف إذ قال:

أَنْهُم عليك أُولاً بِالإِيجاد ، وثانياً بِتُوالَى الإِمداد .

قَنْتُ : يَدُولُ : وَإِنَّا كَانَ الْإِيجَادُ نَعْمَةً ؟ لأَنَّهُ تَعَالَى عَنَى عَنْكُ وأَنْتَ مَفْتَقَرَ إِلَيْهِ فَي وَجُودُك؟ إِدْ لَوْ لِمْ يَوْجَدُكُ نَكُنْتُ صَرْفَ النَّنِي وَمَحْضَ العَدْمِ .

وقد قال انشيخ أبو مدين رضى الله عنه : «الحق تعالى مستبدأً ، والوجودُ مستمدّ ، والمادة من عين الجود فلو انقطعت المادة لانهدّ الوجود» ا هـ.

ثم نعمة الإمداد تجرى بثلاث : دفع المضرّات ، وجلب الفوائد ، وتوجيه الخطاب . فالكل منه تعالى عناية ورحمة وتفضيل ، فمن أين يكون للعبد نسبة حبى يضيفها لنفسه فيتعزز أو يتكبّر . وقد أشار المؤلف إليه لأن أصل ماذكر ما قلناه من الافتقار فقال :

فاقتك لك ذاتية وورود الأسباب مذكِّرات لك بما خني عليك منها .

قنت: الفاقة: شدة الاحتياج، والفقر الذاتى: ما يلازم الذات فلا ينعدم إلا بانعدامها ولاشك أن الفاقة لازمة للعبد أبدا ولا ترتفع عنه أبدا ، لكنه قد يغفل عنها فيذكر بالأسباب الواردة عليه من الغنى والفقر والعز والذل والقوة والضعف وجميع مختلفات الأحوال التي يستشعر بها فاقته فيرجع إلى حده علاحظة أو صافه.

والفاقة الذاتية لاترفعها العوارض.

بن تؤكدها وإنما ينظر ذلك من وفِّق له فيكون فى النعمة متلبِّساً بالشكر ، وفى البلية متلبساً بإظهار الفاقة والفقر ، ومن هنا كان كما قال :

خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجودَ فاقتك .

ترجع فيه إلى مولاك على حكم ما أولاك من رخاء أو شدة بما يقتضيه كل منهما من غير تعريج على غيره أو تحقق (٢) بحالك .

وتردُّ فيه إلى وجود زلَّتك .

نتسكن النفس عن الدعوى ويدوم وقوفها بباب المولى ، ومن هنا كان أشد الناس بلاء الله الما الله الناس بلاء المراد المر

^{·)} آية ٥٧ من سورة الصافات . (٢) وفي التيمورية (إذ يتحقق محالك ما له عليك) .

الاعلى) طول العوافى والغنى لبث أربع مائة سنة ولم يتصدّع رأسه ولم يُحمَّ جسمه ولم يضرب عليه عرق ؛ فادّعى الربوبية»(١) اه. فإذا علمت أن كل ما سوى الحق موسوم بالفاقة استوحشت منه.

ومتى أوحشك مِن خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأُنس به .

إذ القلب لايخلو عن شيءٍ أَو مقابله ؛ فإذا نفر من الخلق تعلَّق بالحق ، وإذا شهد فقرهم وجد الأُنس بغني مولاه فاقبل عليه بكلِّه كما أَعرض عن الخلائق بكله ، ولذلك قيل :

الأنس بالله لا يحويه بطَّال ولا يحوزنَّهُ بالحول محتال والآنسون رجال كلهم فخُمُوا وكلهم صفوة لله عمّان

وقال القاضى عبد الرحم بن القشيرى رحمه الله : «الأنس سرور السرّ من غير ملاحظة للبر. الأنس حياة القلب بتنسَّم القُرب. الأنس بَرَد الحياة بوجد المدانات. الأنس وجد الحبيب بفقد الرقيب . الأنس دون الوصول وفوق المأمول» اه. ومتى أنس العبد به لم يحتشم من طلبه.

ومتى أطلق لسانك بالطلب .

على وجه العبودية أو غيرها انطلاقاً ضرورياً .

فاعلم أنه يريد أن يعطيك .

ما تُريد كما يريد ؛ فقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من أذن له فى الدعاء فتحت له أبواب الرحمه وماسُئِل الله شيئاً قط أحب إلى الله من أن يُسأَل الدغو والعافية » ، وفي معنى ذلك قيل :

لَو لم نرد نيل ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما علمتني الطلبا

فثهم

العارف لايزول اضطراره .

لتتبحققه بفقره وفاقته

ولايكون مع غير الله قراره .

لاستيحاشه مما سواه ، فهو مستأنس (الجنان) بقربه منطلق اللسان بذكره ؛ لذلك قيل : «من عرف الله أَطلق لسانه».

⁽١) وفي التيمورية (ولو أخذته الشقيقة ساعة و احدة في كل يوم اشغله ذلك عن دعوي الزبوبية) .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى قوله تعالى : (أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ) (١ العارف لايزال مضطراً . وفى معناه : لبعضهم :

إِنَّ إليك مع الانفاس محتاج لوكان في مَفْرِق الإكليلُ والتَّاجُ وإذا كان العبد فقبراً بكل وجه ، فالحق تعالى هو الذي

أنار الظواهر بـانـوار آثاره .

التي هي الإحساس المستفاد من آثنار الافعال .

وأنار السرائر بانوار أوصافه

التى هى المعارفُ الإيمانية والحقائق اليقينية ، فاعظم المنّة ظاهراً وباطنا إلا أن الظواهرَ موقوف وجودُها على الافعال ، وهى حادثة ، والسرائر مستفاد نورها من تَعجَلّى الأوصاف وهى قديمة لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر .

بالفناء والزوال وانقضت بانقضاء الوقت والنظر الحاضر

ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر .

هى ثابتة فى دار الآخرة الأَبدية ، لا انقضاءَ لها أبد الآبدين ، فكان ثبات كلَّ وزواله بحسب متعلَّقه وأصله ولذلك قيل :

إن شمس النهار تغرب باللي ل وشمس القلوب ليس تغيب»

وهذا البيت الذي استشهد به المؤلف قبل بيت آخر وهو قوله :

طلعتْ شمسُ مَن أُحبُّ بِليل واستنارتْ ، فما تَلاها غُرُوب

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : «لو كشف عن نور الولِّى لَعُبِدَ ؛ لان أوصافه من أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته » ، قال فى «لطائف المنن» فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر من أنوارهم . وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم . الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب ، وأنوار قلوب أولياء الله لاكسوف لها ولا غروب » . وقال فيه أيضاً : «نور الشمس تشهد به الآثار ، ونور اليقين شهد به المؤثر قال ؛ ولنا في هذا ;

هذه الشمس قابلتنا بنورها ولشمس اليقين أبهـــر نوراً فيهذى قد رأينا الانوار لكن باتيك قد رأينا المنيرا

⁽١) آية رقم ١٢ من سورة النمل .

** من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ..



الجزاء لا يكون الا على كامل في ذاته وقصده فهو يحتاج الى التخليص من الشوائب والاخلاص في القصد

		-	

وقال رضي الله عنه :

مُبَيِّناً توجّه الالطاف في أسباب التلف :

يخفف ألم البلاءِ عنك علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المُبْلى لك .

فإنه جميل الوصف كريم الفعل لايقصد ألم عبده إلّا لمصلحة له فضلاً ومِنَنّا ، لا أنه يجب عليه ذلك وقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم (واصْبِرْ لِحُكُم رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعَيْنُنَا)(١) وكما عوّدك ما تُحب فاصبر له على ما يُحب .

فالذي واجهتك منه الاقدار .

عا لاتريده من الأمور .

هو الذي عوَّدَك حسن الاختيار .

على بمر الدهور ؛ إن أعرضوا فهم الذين تَعَطَّفُوا ، كما قد وفوا فاصبر لهم إن أخلفوا . وقد قال الجنيد رضى الله عنه : «كنت ليلة نائماً عند السرّى السقطى (٢) رضى الله عنه ، فنبهنى وقال لى : ياسرى : خلقت الخلّق فكلّهم ادّعوا محبّى يا جنيد رأيت كانّى وقفت بين يديه ، فقال لى : ياسرى : خلقت الخلّق فكلّهم ادّعوا محبّى فخلقت الدنيا فهرب منهم تسعة أعشارهم وبتى معى العشر . فخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار عشر أعشار العشر وبتى معى عشر العشر ، فسلّطت عليهم ذرّة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر فقلت للباقين معى : لا الدنيا أردتم ، ولا الجنة أخذتم ، ولا من النار هربتم ، فماذا تريدون . فقالوا : إنك تعلم ما نريد . فقلت : إنّى مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا تقوم له الجبال الرواسي أتصبرون ؟ قالوا : إذا كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت . فهؤلاء عبادى حقّاً » ، ثم إن

مَنْ ظنَّ انفكاك لطفه عن قَدَره فذلك لقصور نظره.

⁽١) آية رقم ٤٨ من سورة : الطور .

⁽۲) هو ؛ أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى . خال الجنيد وأستاذه . كان أوحد زمانه فى الورع وعلوم التوحيد ، بغدادى المولد والوفاة ، كان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته أخذ عن الكرخى وسمع الحديث من الفضيل وروى عنه البهتهد . ومن أقواله . عجهاً لضميف كيف يعصي قوياً » و « أحدد أن تكون ثناء منشوراً وعيهاً مستوراً » توفي سنة ۲۹۷ ه .

فى العقلبات والعاديات ، والشرعبات ؛ أمّا العقلبات فما من بلاء إلّا والعقل قاض بإمكان مافوقه ، فالاقتصار على مادون المقدور عليه لطف ، وهذا يتبين أن أهل النار ملطوف بهم . وأما العاديات فما وجدت قط بليّة لشخص إلّا وُجِد ما هو أعظم منها بغيره ، ولا اجتمعت البلايا على شخص واحد أبدا فإن من أعظم المصائب الفقر فى الشيب والموت فى الشباب ولا يمكن اجماعهما . وأما الشرعيات ، فما من بليّة إلّا وهى مكفّرة من ذنوب صاحبها أو موجبة له ثواباً أو مخففة عنه عقاباً أو مبشّرة له محنفعة دنيوية أو معرفة جلالية (١) أو حقارة نفس فقد قال صلى الله عليه وسلم (ما يصيب المؤمن مِن وصب ولا نصب إلّا كُفيِّر به من خطاياه ، حتى الشوكة يشاكها) وقال عليه السلام : (حمّى يوم تكفّر ذنوب سنة) وقال عليه الصلاة والسلام : (الحمّى حظ كل مؤمن من النار ...) وأحاديث هذا الباب كثيرة وتفاصيلها غزيرة . وهى كلها تحمله على شكر أو صبر .

ولايخاف عليك أن تلتبس الطريق عليك.

فى ذلك فلا تدرى ما تَمْسِك فى ذلك : الشكرُ اعتباراً بِلطفه أَو الصبرُ اعتباراً بحكمه . وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك .

الحامل على وجود الشفقة على النفس والرفق بها حتى يودّى إلى الضجر ، وقد قال أحمد بن خضرويه (٢) رضى الله عنه : «الحق واضح والطريق لائح والداعى قد أسمع فما التحيّر بعد هذا إلا من العَمى » وقال أبو عمّان رضى الله عنه : الخلق كلهم مع الله في مقام الشكر وهم يظنون أنهم في مقام الصبر » اه. وإنما كانت البلايا نعماً لعباده ؛ لأنها تردّ العبد إلى حدوده ، فيتحقّق عرفانه بنفسه ، وبحسب ذلك تحصل له المعرفة بربّه

فسيحان من ستر سر الخصوصية.

التي هي : المعرفة والولاية

بظهور صفات البشرية.

التي هي : الفقر والذل والضعف المحقق لغني المولى وعزِّه وقوَّته في باطن العبد . وظهر بعظمة الربوبية .

التي دلائلها وشواهدها مثبوتة .

⁽¹⁾ فى نسخة : يعز جلالة .

⁽١) هو : أبو حامد أحمد بن خضرويه الباخي من كبار مشايخ حراسان ، عمر خمساً وتسعين سنة و تونى سنة ، ٢٤ هـ .

فى إظهار وصف العبودية .

فبقدر ما يظهر على العبد من آثار الأوصاف الدالة على عجزه وفقره وذله وضعفه يتبين وجود غيى الحق وعزه وقدرته ، فبقدر ظهور آثار البشرية يقع سر الخصوصية ومن ظهور البشرية يتحقق وصف العبودية فتثبت الخصوصية للمختص إذ يتبين عظمة الربوبية لذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : «العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية» ا ه.

فإذن تحقق الخصوصية في التحقق بالعبودية ، والتحقق في العبودية بترك كل ماسوى الحق له وبـــه .

فلا تطالب الربُّ بتأخر مطلبك.

وهو وجود الخصوصية ؛ إذ لانستحق عليه شيئاً بطلبك .

ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك

وهو التحقق بالعبودية بامتثال أمره والاستسلام لقهره.

ومتى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأَمره .

من حيث هو عبودية له أوتصديق لوعده

ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره.

رضا بفعله أُو تفويضاً له في حكمه .

فقد أعظم المنَّةَ عليك

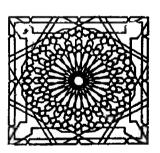
إذ أراح ظاهرك من مخالفته وباطنك من الاعتراض عليه ومنازعته . وقد قال وهب رضى الله عنه : «قرأت في بعض الكتب يقول الله تعالى : عبدى أطعنى فيها أمرتك ولا تعلمنى عا يصلحك أنا أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى ، ولست بناظر في حق عبد حتى ينظر العبد في حقى » وقال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : «من لم يكن في دعائه تاركا لاختياره راضياً باختيار الله تعالى فهو مستدرج مغرور وهو ممن قبل له «اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته » . فإن كان مع اختيار الحق تعالى له لامع اختياره لنفسه كان مجاباً وإن لم يعط ، والأعمال بخواتيمها » اهوإنما كان الامتثال والاستسلام أعظم منه لأنه .

ليس كل من ثبت تخصيصه

بالخصائص من الكرامات والعلوم وغيرها

كَمُل تخليصه ِ.

من العلل والآفات ونحوها ولذلك ، لمّا ذكر عند سهل رضى الله عنه شيئاً فى الكرامات والآيات فقال : وما الآية ، وما الكرامات ، هى أشياءٌ تنقضى لوقتها . عندى من مكّنه الله من أن يبدل خُلقا مذموما بخلق محمود أفضل حالاً من صاحبها» . وقال بعضهم «ليس العجب ممن يدخل يده فى جيبه لشيء وضعه هناك فلم يعجده فلم ينغير » . وقيل لأبى يزيد رضى الله عنه «إن فلاناً يمشى على الماء . قال : الحوت أعجب من ذلك إذ هو شأنه ، وقيل له : إن فلانا يطير فى الهواء قال : الطير أعجب من ذلك إذ هو حاله . وقيل فى لعنة الله » قال يديي مكة ويرجع من يومه قال : إبليس يطوف الأرض كلّها فى لحظة وهو فى لعنة الله » قال يحيى (١) بن معاذ رضى الله عنه : إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق العارفين (٢) وهو أعلى فطريقه طريق العارفين (٢) وهو أعلى درجة من الجميع » اه . ففهم أن الكرامات أدنى المراتب . وفى «لطائف المنن » فيها كلام طويل والله الموفق للصواب .



⁽۱) هو : أبو ذكريا بحيى بن معاذ الرازى الواعظ قال عنه القشيرى : « نسيج و حده فى وفته ، محر ج من فيسابور إلى بلخ وأقام بها مدة ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨ هـ » .

 ⁽٢) وفى التيمورية (. . . وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقة طريق المحبة و هو أعلى من الذى قبله وإذا رأيته يشير
 إلى الذكر و هو معلق به فطريقة طريق العارفين (.

** العبودية جــوهرة أظهر بها الربوبية ..



الخلق كلهم مع الله في مقام الشكر . . وهم يظنون انهم في مقلسام الصبر . .

وڤال رضي الله عنه

مُبَيِّناً أحكام الأوراد ومنبِّها على المقصود منها والمراد

لايستحقر الورد

ا الله هو إقامة الطاعة في الأوقات.

إلَّا جهول

بحق ربّه وبحظ نفسه ؛ لأنه استحقر ماعظم مولاه ولم يعمل في أسباب نجاته وفوزه .

إذ الوارد

اللى هو ثواب الورد وثمراته .

يوجد في الدار الآخرة.

حسب ما جاء به الوعد الصدق

والورد الذي به حصول الوارد ينطوى بانطواء هذه الدار.

فبحسب انطوائه انطواء تمرته ؟ إذ زيادتها زيادة فيه ، ونقصانها نقص فيه وهو لا يخلف.

وأولى ما يعتني به

ويجهد في نحصيله

ما لم يخلف وجوده .

لقواته وذلك كل وقت ونفس من أوقات من العبد وأنفاسه لذلك قال أبو سلمان لابن أبى الحواري(١) : يا أحمد جوع قليل ، وعرى قليل ، وصبر قليل(٢) وقد انفضت عنك أيام الدييا اله ثم .

⁽۱) هو : أبو الحسين أحمد بن أبى الحوارى ؛ من أهل دمشق صحب أبا سليان الدارنى وغيره . مات سنة ٣٣٠ ه ، يروى هنه أن طلب العلم ثلاثين سنة ، فلما بلغ حمل كتبه إلى البحر فأغرقها وقال : ياعلم لم أفعل بك هذا هوافاً مك ولا أستخفاظ عقك ، بل كنت أطلب لأمتدى بك إلى ربى والآن أستغنيت عنك ، ومن حكم « لا دليل على الله سواه » .

⁽٢) وفي نسخة ; جمع تبليلا ، راعر قليلا ، راصبر فليلا . . .

الورد هو طاابه منك.

فهو حقَّه عليك

والوارد أنت نطلبه منه

فهو حظّك منه

وأين ما هو طالبه منك

من حقَّه الواجب وأمره اللازم.

مما هو مطلبك منه

من حظّك الناقص وغرضك القالص^(۱) قضائح الله أحق وشرط الله أوثق ، وإنما الولائح لمن أعتق ، وقد قالوا : «كن طالب الاستقامة ولاتكن طالب الكرامة ، فإن نَفْسك تهتر بطلب الكرامة ومولاك بطالبك بالاستقامة . ولأن تكون بحق ربك خير لك من أن تكون بعظ نفسك » . وقال أبو سلمان رضى الله عنه : «لو خيرت بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت الركعتين لأنى في الركعتين بحق ربي وفي الفردوس بحظ نفسي » انتهى . فبان تفضيل الورد على الوارد .

ورود الإمداد

من ثواب وعيرد

بحسب الاستعاداد

من إقامة ورد ونحود ، فمن كمل استعداده حصل مراده. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله نعالى يرم الفيامة : (ادخلوا الجنة برحمتى وتقاسموها بأعمالكم ، وتلا قوله تعالى : «وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) وأيضاً .

شروق الأنوار

اليقيسية الاعانية.

على حسب صفاء الأسرار

القلبية وصفاء الأسرار القلبية على قدر البعد من الأغيار بحسب الأوراد والأذكار. قال في «لطائف

أَلِي (١) يَقَالُ ظُلُ قَالِصَ إِذَ نَعْصَ ﴾ وقلص الشيء عمني الزوى و الكش .

⁽١) ق نسخة ; الماكوت .

اشن » واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار المكنونات (١) في أصناف الطاعات فإن ما فاته من الطاعات صنف وأعوزه من الموافقات جنس فقد فاته من النور بمقدار ذلك فلا تهملوا شيئاً من الطاعات ، ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات ، ولا ترضوا لأنفسكم بما رضى المدعون بجرى الحقائق على ألسنتهم وخلوها من قلوبهم » انتهى . والناس قسمان عاقل وغير عاقل .

فالغافل(٢) إذا أصبح نظر فيا يفعل

من أمور دينه ودنياه ، فإن فاته مقصوده تكدرت حاله وتغيّر مزاجه لاستشعاره فوات المقصود بفوات سببه ، وذلك من اعتاده على عمله فهو فى نقص دائم مع ظنه الكمال .

والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به

تكليفاً فيطلبه وتعريفاً فيرضى به ويستسلم له ، فهو لايعامل وقته إلا بما اقتضاه أمرهُ لذلك قال أبو أيوب السختيانى رضى الله عنه : «إذا لم يكن ماتريد فارد مايكون» وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : «أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر» ، وقال الشيخ أبو مدين ، رضى الله عنه : «إحرص على أن تصبح مفوضاً مستسلماً لعله ينظر إليك فيرحمك» ، وقال عمد الواحد بن أبى زيد رضى الله عنه : «الرضا باب الله الأعظم ومستراح العابدين وجنة الدنيا» وكان سيدى رضى الله عنه كلما دخلت عليه أنشدنى هذين البيتين ، ويقول إنهما لبعض العارفين :

اتبع رياح القضا ودُرْ لها حيثُ دارت وسَلِّم لها تسلما وسِرْ بها حيثُ سارت

والمقصود أن العبد يعزم على طاعة مولاه بالاتقصير ؛ فإن قصر به الحال فلا ينبغى أن يرجع إلى عتب نفسه ، إلا أن يكون ذلك عن سبب منه وشاهده فى قضية أهل الوادى إذ ناموا عن الصلاة فقال عليه الصلاة والسلام : لاروع عليكم ، إن الله قبض أرواحكم . . وحديث على إذ سأله عن سبب عدم صلاته من الليل فقال : إن الله قبض أرواحنا فقال عليه الصلاة والسلام : وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » . فافهم ما أشرنا إليه .

إنما استوحش العبّاد والزهَّاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيءٍ.

قلت : العبّاد عاملون على التحصيل فهم مستوحشون من الخلق لاستشعارهم فواته بمخالطتهم لأحد وجوه ثلاثة : الاشتغال بمعالجة أمرهم . ونظر النفس لما يجرى مِن قِبَلهم ، ونقص العمل (۱) في نسخة الملكوت (۲) الغافل عن التوحيد وأن كل شيء بقضاء الله وقدره « فالغافل إذا أصبح اول خاطر يرد عليه نسبة الفحل إلى نفسد ، فيقول : ماذا أفعل اليوم . . . »

بما يقع منهم إقبالاً وإدباراً في جهتهم إذ يمنعون من العبادة أو يشغلون عن كمالها فيدخل بسببهم النقص عليها ، والزمّاد عاملون على السلامة فيستوحشون من الخلق لما يخشونه من دخول العلل والآفات عليهم كالنلوّن في الحال والتقصير في العمل ودخول مالا يعنى في المعاملات ، وكل ذلك من رؤية النفس والخلائق في النفي والإثبات وهو علامة خلوّ القلب من مشاهدة الحق بالخلق كما قال:

فلوشهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء .

قلت : بل كانوا يستأنسون بكل شيء لرؤية مطلوبهم فى كل شيء ورجوعهم له بكل شيء ؟ إذ غلب على قلوبهم النظر إليه دون كل شيء فهم مستأنسون بكل شيء من أجل ظهور نسبته فيه ، مستوحشون من كل شيء لعدم تعلُّقهم بذلك الشيء» انتهى.

سمعت شيخنا أبا العباس الحضرى رضى الله عنه يقول: ليس الرجل الذى لايدخل الظلمة، ولا الذى يدخل الظلمة بالنور». وقال أيضاً رضى الله عنه: «ليس الرجل الذى يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرِّقُها إنما الرجل الذى يعرف كيفية إمساكها وفى فيمسكها»، قلت: وذلك لأنها حيّة، وليس الشأن فى قتل الحيّة إنما الشأن فى إمساكها، وفى الحديث: «المؤمن إلف مألوف ولاخير فيمن لايألف ولايؤلف). ثم من فوائد مشاهدة الخلائق: (التحقق فى) التوحيد والمعرفة برؤية المختلفات لأن لها أثراً فى النفس بخلاف الأمور المتجردة من وجه واحد. والرؤية فى تلك الدار بالبصر على قدرها فى هذه الدار بالبصيرة ؛ فأعظم الناس معرفة أكثرهم فى الآخرة رؤيةً لا أكثرهم عبادة وأقواهم زهداً ، فلزم مراعاة السبب لتحصيل السبب. وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال:

أَمْرِكَ في هذه الدار بالنظر في مكوّناته وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته .

قلت: فتراه فى تلك الدار بالباصرة كما رأيته فى هذه الدار بالبصيرة ، وذلك بقدر قوة المعرفة ومقوياتُها مشاهدة المختلفات من أفعال المخلق ، ولذلك اختار الأكابر من العارفين سكنى المدن العظام التى يشاهد فيها الآثار الغريبة والمختلفة كثيراً ، ومن تأمّل ذلك وجده واضحاً ، وقد سئل بعضهم : كيف يُرى الله فى الآخرة ؟ فقال : هى رؤية وجود ، لا أنّه فى مكان محدود . وقال بعضهم وقال بعضهم : يُرى نفسه لمخلوقاته ، وليس فى جهة من نفسه ولا من مخلوقاته . وقال بعضهم ، حديث الساق إن العلامة التى بينهم وبينه معرفتهم إبّاه بلا كيف ، قلت : وعلم ذلك حاصل شواهد الصنع إذلا وصول إليه إلّا بذلك كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

علم منك أنك لاتصبر عنه فأشهدك مابرز منه .

قلت : إنما لاتصبر عنه لثلاثة أمور : افتقارك إليه ، وإحسانه إليك ، وكمال جماله الذى لاحسن فوقه ولامزيد عليه . وإنما أحالك على مابرز منه ؛ لأنه لاوصول إليه إلابذلك لأن عَيْن الحَدَثِ لا تنفتح لشعاع شمس الأزل ، فالمخلوق إنما ينتهى إلى مثله ، وإنما يعرف ماكان من شكله ، فتقدير كلام المؤلف : علم منك أذلك لاتصبر عنه لما أنت عليه من الاحتياج وما هو عليه من الكمال فأشهدك مابرز منه إذ لاوصول إليه إلا به . فافهم . وكما تنوعت الموجودات بالاعتبار والتوجّه تنوعت العبادات للادّكار والإعانة وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذقال :

لمَّا علم الحقُّ منك وجودَ الملل لوّن لك الطاعات وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك في الأَوقات .

قلت : الملل : ثقل فى النفس عن العمل يعرض من الإكثار . والشره : خفة تدعُو للإكثار والتعجيل ، ثم هى داعية الملل التى بسببها يحدث ويجرى فلما كانت الأعمالُ متلوّنةً انتفى الملل بالاستراحة من لون إلى لون فيها .

ولما كان لكل عمل وقت انتنى الشرّه بالحجر. وفى الشره آفات ثلاث: تأُديتُه إلى الملل المؤدّى للترك أو النقص ، ووقوع الإعجاب برؤية الجملة التي لها أثر فى النفس ، بخلاف ما تفرّق ، وحصول الدعوى بالتشمير .

وقد قيل : مثل النفس في شرهها كذباب مرّ برغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب لأكله فلزق بين جناحيه فقتله . وآخر أتاه من أوله حتى خرج من آخره سليماً . فافهم . ثم ماوقع من التلوين والحجر ، فيه ثلاثة أمور : إعانة للموفّق ، وحجة على المخذول ، وكرامة للمحقق بتيسير أسباب العبودية . والله أعلم . وإذا كان الأمر كذلك فالواجب ماذكر إذ قال

أن التكون همتك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة .

قلت : لأن ذلك هو المقصود منك إذ لو كان المقصود الوجود ماكان حجر ولا غيره . وإقامة الصلاة : القيام بحقوقها وحدودها الشرطية والكمالية بقدر الطاقة فإن ذلك يختلف باختلاف الناس كما قال :

فما كل مصلِّ مقيمٌ.

قلت : ولا كل مقيم مقيم ولا كل عامل مستقيم . قال القاضي أبو بكربن العربي رضي الله

عنه فى قول عمر رضى الله عنه : «من حفظها وحافظ عليها(١) ولقد رأيت من يحافظ عليها آلافاً لا أحصيها ، فأما من يحفظها بالخشوع والإقبال فما أعد منهم خمسة » انتهى بتقريب لعناه . ثم فى الصلاة ست خصال هى علامة الإقامة ذكر المؤلف أولها بأن قال :

الصلاة طهارة للقلوب واستفتاح لباب الغيوب.

قلت : طهارة الغلوب من الذنوب ؛ إذ أنها تنهى عن الفحشاءِ والمنكر ، وتكفِّر السيئات. وتفتح أبواب الغيوب بما فيها من التجليات التي أشار إليها بـأن قال :

الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة.

قلت : لأنها محل لقرب العبد من ربّه ، والوقوف بين يدى مولاه بلا واسطة سوى ذكره ، والقيام بوظائف العبودية على المواجهة والمعاينة ، وتفسير ذلك في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل ، إذا قال الحمدلله رب العالمين يقول الله تعالى : أثنى على عبدى فإذا قال الرحمن الرحيم قال الله : مجدى عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين قال الله تعالى : فوض إلى عبدى فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال الله : هذه لعبدى ولعبدى ما سأل (٢) . . الحديث والمناجاة لغة المسارة ، والمصافاة من الصفاء فالعبد يصافى ربه بقلبه فيصافيه ربّه بما يلقيه إليه من رحمته ، ويسارره بما في نفسه فيلتي إليه من أسراره مايليق به ويقابله بما ذكر من خطابه ، وإلا فالرب تعالى منزّه عن المساررة الحسيّة المعهودة في قياس البشرية ، ثم زاد في شأن الصلاة فقال :

تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار.

قلت : المراد بالأسرار هنا : دقائق العلوم والمعارف وقد يراد بها قوابل المعلومات ، والأول أولى فيجد المصلى في كلِّ سورة معنى ، بل من كل آية ، بل من كل حرف ، ويتجدد ذلك عليه بتَجدد الأيام والاوقات على قدر الفيض والقصد والهمّة وتشرق فيها شوارق الأنوار كذلك ؟

⁽١) وزاد فى التيمورية . . . من حفظها وحافظ عليها (تمام كلام عمر فهو لما سواها أحفظ ومن ضيعها فهو لما سواها ضيع ، ولقد رأيت . . . إلخ . .

⁽٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى بين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل » وفى رواية : فنصفها لى ونصفها لعبدى ، فاذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال نه تعالى : حمد في عبدى ، فاذا قال : (الله يوم الدين) قال : بجد في معالى : حمد في عبدى ، فاذا قال : (إياك نعبد وإياك نستمين) قال : هذا بيني وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فاذا قال : (إهدنا الصراط المستقيم مراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل » يقول الحافظ المنذرى : قوله (قسمت مراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل » والله أعلم . روى الحديث الإمام مسلم .

فهى الجامعة للعلوم والمعارف والإِشارات والدقائق واللطائف وغيرها مما هو معلوم ويسرى حتى إلى الجوارح والقوالب فيظهر عليها سمة الباطن ونور العمل وأسراره ، حتى لقد قيل : «من كشرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» . وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن الترمذى (١) . رضى الله عنه : «دعا الله الموخدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهيئاً لهم ألوان الضيافات لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه ، فالأفعال كالأطعمة ، والأقوال كالأشربة فهى عُرسُ الموحدين هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات ، حتى لايَبْقى عليهم دنسٌ ولاغبار » انتهى .

وقد ذكره فى التنبيه مع نقول وأقوال أخر يطول ذكرها فانظر ذلك ، وبالله التوفيق . ثم مع هذه الفوائد العظيمة ، فالحق سبحانه قد أعان عليها بكثرة ثوابها وقلَّة أعدادها كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

عَلِم وجودَ الضعف منك فقلِّل أعدادها وعلم احتياجَك إلى فضله فكثُر إمدادها .

قلت : وذلك بأن جعل ثواب الخمس خمسين ؛ إذ الحسنة بعشر أمثالها ، وكان قد أوجب خمسين ثم حطّها إلى الخمس . وخاطب نبيّه محمداً فى ذلك بقوله (هُنَّ خمس وهُنَّ خمسون ، ما يُبدّل القول لدى الحسنة بعشر أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأغفر ... الحديث) ، ثم شأن القوم إنما يذكرون الثواب لاستشعار فضله تعالى وكرمه لالقصد العوض ؛ فلذلك كل ماذكره المؤلف عقبه ما ينفى قصده فذكر ذلك هنا بأن قال :

متى طلبت عِوضًا عن عمل طُولبت بوجود الصدق فيه.

قلت : لأن الجزاء لا يكون إلا على كامل فى ذاته وقصده فهو يحتاج إلى التخليص من الشوائب والاخلاص فى القصد ، وجامع ذلك كلَّه حصول الصّدق ، وهو لا يتم إلَّا بالتبرّى من الحول والقوة والتبرّى لا يصح مع رؤية العمل (٢) فضلاً عن طلب ثوابه لاستغراقه بشهوده المنَّة ، هذا وأعمالنا خليَّة عن - الإخلاص والتخليص لما نحن عليه من النقص والتخليط ، فالأولى بنا الفرار إلى الله

⁽۱) هو : أبو عبد الله محمد بن على الترمذي , من كبار الشيوخ ، وله نصائيف في علوم القرآن . والمرمذي نسبة إلى « ترمذ» مدينة على طرف نهر بلخ المسمى بجبحون . قال الحافظ بن النجار في تاريخه : كان الترمذي إماماً من أئمة المسلمين . له التصانيف الكثيرة في التصوف وأصول الدين ومماني الحديث . وقال الكلاباذي في كتابه «التعرف » هو : من أئمة الصوفية، وقال ابن عطاء الله : كان الشاذلي و المرسى يمظمانه ويقولان : هو أحد الأوتاد الأربحة .

⁽٢) وفي نسخة : مع روئية «عمل».

كما قال خير النَّساج رضى الله عنه : «ميراث أعمالك ما يليق بأَفعالك ، فاطلب ميراث فضله وكرمه ، فهو أولى بك» انتهى . ثم نبّه المؤلف على أن الشرط المذكور مفقود فقال :

ويكفى المريب غنيمته وجدانُ السلامة .

قلت : إذا كانت أعمالك مدخولة وأفعالك معلولة فأنت صاحب ريبة ، وما كان كذلك فرأس غنيمته السلامة من عقوبة ماهو عليه فى عمله فضلاً عن غيره ، فافهم . ثم أقام المؤلف الحجة على ماذكر بأن قال :

لاتطلب عِوضًا عن عمل لست له فاعلا.

قلت : بل الفاعل له مولاك ، وبحسب هذا فقصدك (١) فيه بأن لاتطلب العوض عليه لأنك لا تطلب العوض عليه وبالجملة فلا لا تطلب العوض على فعل غيرك . وذلك قبيح مردود في الجملة وعلى التفصيل . وبالجملة فلا عوض إلا بعد صدق ولا صدق إلا بعدم طلب العوض ، فلزم الثاني للزوم الأول . والله أعلم . ثم قال :

يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا .

قلت : لما هو عليه من العلل والآفات فوجب الرجوع إلى الله بالافتقار المحض فيما عنده دون وسيلة ولاسبب لأن الأعمال كلّها مدخولة ومع اندخالها فهى منّة وإفضال فلا استحقاق بها على كل حال . فافهم . ثم جملة الأمر وكماله فيما ذكره إذ قال :

إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرُ فَضَلَهُ عَلَيْكُ خَلَقَ لَكُ الْعَمَلُ ونسبه إليك.

قلت : يعنى خلق القدرة لك على العمل ووفَّقك إليه وأعانك فيه وردّ نسبته إليك فهو سبحانه خلق الطاعة ونسبها إلينا وأثابنا عليها ولسنا بأهل لذلك كما نبّه عليه المؤلف ببأن قال:

لانهاية لمذامِّك إِن أرجعك إِليك ولا تَفْرُغُ مدائحُك إِن أَظهر جودهُ عليك.

قلت : لأذك من حيث أنت محل كل نقص وريبة ،ومن حيث فضله مُظهر كل خير وإفضال حدّث عن البحر في الوجهين والاحرج .

تنبيه :

رأس(۲) الورد نسيان وجوده بوجوده وهذا الذي افتتح به

⁽١) وفى ت : « فصدقك بأن لا تطلب العوض على فعل غير ك a .

⁽٢) وفي التيمورية : رأس الورع نسيان وجودك بوجوده .

* خر أوقاتك وقت تشبهد فيه ما فاتك!



قيل لبعض المختصين: بم أدركت ما أدركت الما أدركت الفضل التوحيد ، وخسست مته خدمة العبيد ، وأطعته فيما أمرنى ونهسانى ، و فكلما سألته أعطانى ، ،

	. `	

وقال رضى الله عنه : كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً .

قلت : أوصاف الربوبية أربعة ، هي : الغني ، والعز ، والقدرة ، والقوة . والتعلُّق بها أن تكون ناظراً إليها معتمداً عليها دون نظر لشيء سواها.

وأوصاف العبودية أربعة ، هي : الفقر ، والذل ، والعجز ، والضعف . والتحقّق بها أن نراها لازمة لك فلا تنفك عن النظر إليها في حال من أحوالك .

ثم التعلُّق بأوصافه يقتضى التحقق بأوصافك ، والتحقق بأوصافك يفضى بك إلى التعلُّق ببأوصافه لكن يختلف البساط ؛ فتارة يغلب عليك الغنى بالله ، وتارة يغلب عليك الفقر إلى الله ، فإذا غلب عليك الفقر إليه رجعت إليه بمواقف الأدب فإذا غلب عليك الفقر إليه رجعت إليه بمواقف الأدب فالأول : مَحلُ البسط والكرامة ، والثانى موقف الأدب والتعظيم . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبع ألفاً من صاع إظهاراً للغنى بالله ، وشد على بطنه حجراً من الجوع إظهاراً للفقر إلى الله ، وإنما أظاهر الأول في محل احتياج الناس إليه وفقا لمقصوده (١) ، وتنمية لأحواله . وأظهر الثانى لتأديبهم وتعليمهم وهو المقصود (٢) ، ولذلك ماكان يظهر شيئاً من الخوارق إلا في محل الاحتياج وخوف تزلزل الضعفاء ، ومن تأمَّل السير عرف ذلك وبالله التوفيق .

ثم (٣) التحقق بأوصافك من التحلِّي بأوصافه تحلية توجب عليك التحفظ من الدعوة كما نبُّه عليه المؤلف إذ قال :

منعك أن تدَّعي ماليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين ؟

قلت : ظهور وصفه عليك وتحلِّيك به كمالٌ يليق بك ، بحيث نصير غنياً به ، عزيزاً به ، قادراً به ، قويًا به ، حتى تصير «باسم الله» منك موافقة «لِكُنْ» من الله فلا تريد شيئاً إلَّا كان ، ولا تفتقر لشيء ولاتذل له ولا به ، ولا تضعف عن شيء ولا تعجز عن شيء ، بل تكون قادراً

⁽١) وفي التيمورية (قضاء لعقولهم وتنمية لأحوالهم) .

⁽٢) وفي ت : ثم التحقق بأوصافك أولى بك من التخلق بأوصافه و إذا تحليت بأوصافه و جب التحفظ من الدعوى .

⁽٣) و في نسخة الدار : (ثم التحقق بأوصافك أو لى من التحل بأوصافه وإذ تحليت وجب عليك التحفظ من المدعين) .

على كل شيء بمولاك غنياً به عن كل شيء عزيزاً به فى كل شيء قويًا به عند كل شيء لايسوع لك ادّعاء شيء من ذلك ، بل يؤكد عليك الرجوع إلى وصفك والقيام معه من الفقر والذل والعجز والضعف لأن مابيدك عارية مجازية ، والعارية مؤدّاة ، والمجاز مرفوع بالحقيقة . فالزم التذلّل والافتقار في جميع أحوالك . فافهم .

ثم المنع المذكور واقع شرعاً ومروءة وحكمة ، فيحرم ادِّعاءُ ملك الغير ولا يليق من حيث المروءة والنفوس متسلطة على ذلك بمقتضى الغيرة (١) التى صُبت عليها وكل ذلك فيها ذكر فقد قال رسول الله عليه وسلم : (لَا أَحَد أُغْيَرُ مِن الله .. الحديث) والغيرة في حقّه منع ماهو له من وصف أو حق أن يكون لغيره لاكما يفهم في حق المخلوقات من العرض والجبلّة (١) ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى (العظمة إزارى والكبرياء ردائى مَن نازعنى فيهما قذفته في النار .. الحديث) يريد : أنهما وصفان مختصان به تعالى فمن ادّعاهما كان كمن يدعى إزار شخص وقميصه لايمكنه أن يسلم له فيه إلَّا بعجزه ، ولاعجز الله تعالى ، فوجب هلاكه ، ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم . ثم ظهور حلية الأوصاف عليك لايصح الا بخروجك عنك كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

كيف تُخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوايد.

قلت : خروق العوايد لك بظهور ماليس من شأنك على يديك ، واتصافك عا لايقتضيه وصفك من الكمالات الجارية عليك كما يليق بك ، وعلامة ذلك : جرى الكرامات والدلائل على يديك ، وخرق العوائد منك بترك مألُوفاتِك وعادتك الرديئة وذلك كله مجموع في تحققك بأوصافك وتعلُقك بأوصافه ، فإن قمت بذلك كان لك ما تريد كما تريد ، وإلا فأنت بعيد ؛ لأن الجزاء من جنس العمل أبدأ ، فمن خرق عوائده خرقت له العوائد على نسبة ذلك وإلاّ بقي حيث كان . قبل لبعض المختصين : بم أدركت ما أدركت ؟ قال : وحدَّته بأفضل التوحيد ، وخدمته حدمة العبيد ، وأطعته فيا أمرني وبهاني ، فكلَّما سألتُه أعطاني » . وفي الإشارة عن الله سبحانه «عبدي أنا الذي أقول للشيء كن فيكون فأطمني أجعلك تقول للشيء كن فيكون » . وفي المحتج يقول الله تعالى : (ما تقرَّب إلى المتقرِّبون عمثل أداء ما افترضته عليهم ولايزال عبدي يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، فلئن عبدي يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، فلئن

⁽١) وفى نسخة الدار بمقتضى الفطرة .

سأَّذَى لأُعطينَه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه (١) الحديث ، وهو عبارة عن غاية الإكرام بالتصرف دون حجر ولاتوقُف . ثم مجموعُ خرق العوائد من نفسك في التزام الأَّدب ، إلا في الجدِّ في الطلب ، وهذا ما بيَّنه إذ قال :

ما الشأَّن وجود الطلب إنما الشأَّن أَن تُرزق حسنَ الأَّدب .

قلت : يقول ليس الشأن في هذا الطريق وجود الطلب ؛ لأن ما عند الله لايُنال بالأَسباب ، وإنما الشأْن أن ترزق حسنُ الأَدب ؛ لأَن به تتحقق العبودية وقد قال تعالى : (لنبلوهم أَيهم أَحسن عملاً(٢)) لم يقل أكثرهم طلباً ولا أعظمهم جدًّا فيه .

والأدب يختلف باختلاف الأقوال والأحوال ، لكنه يرجع لثلاثة : إقامة الفرائض ، واتّباع السنن ، ومجاملة الخلق كما قال عليه السلام (اتق الله حيثًا كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن (٣) وهذه هي الأصول التي من تركها حُرِمَ الوصول . والله أعلم .

ثم رأس الآداب كلها راجع للزوم وصفك مع التعلَّق بوصفه ، وذلك بما ذكره بأن قالى: ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلَّة والافتقار _.

قلت : لأن ذلك يقتضى الرجوع إليه بلا علَّة والوقوث بين يديه على نعت المسكنة والذلَّة . وخير أوقاتك وقت تشهد فيه مافاتك (٤) وتردّ فيه إلى وجود ذلَّتك . وانشدوا في ذلك :

أدب العبيد تذلَّل والعبد لا يَدَع الأدب فإذا تكامل ذلُّه نال المودَّة واقترب

والظاهر أن الاضطرار هو فاعل الطلب ، فالتقدير : ماطلب لك الحواثج من الله مثل الاضطرار ولا أسرع لك بالمواهب منه لقوله تعالى : (أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ... (٥) الآية) ويحتمل أن يكون المراد : لامطلوب منك مثل الاضطرار ، وذلك لأَنه متيسّر عليك ؛ إذ هو

⁽۱) ورد فى صحيح البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه : من عاد لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افتر ضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنتسمعه اللى عبدى بشىء أحب اللى يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها ، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذ بى لأعيذته » .

⁽٢) الكهف: ٧ و الآية الكريمة : إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لئيلوهم أيهم أحسن عملا .

⁽r) وواء الإمام أحمد ورواء الترمذي وغيرهما .

⁽ع) وفي التيمورية (تشهد فيه رجود فاقتك (وكذلك في نسخة الدار .

⁽ه) من آية ٢٢ من سورة النمل.

وصفك ، وبه تصل إلى رضوان الله مولاك . قال أبو يزيد رضى الله عنه «قيل لى : جرابك(١) مملومً بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلَّة والافتقار».

ومن فوائد الفاقات ثلاث: الإعراض عن الكل ، والإقبال على الحق بالكل ، ووقوف العبد عند حدّه دون دعوى . وذلك جملة الخير وكماله . ومن أسباب ذلك : العلم عا أنت عليه من النقص في حالك حتى أن أعمالك كلها مساوى وحقائقك كلها دعاوى ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال : لو أنّك لاتصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً .

قلت : لأنها لانتناهى ؛ لكثرتها وتسلسلها وتواترها وتواردها على كل شيء منك ، طاعة كانت أو غيرها حتى إنك إذا تأملت وجدت أعمالك كلها(٢) دعاوى ولو كنت أصدق الصادقين ، وتجد أحوالك كلها دعاوى ولو كنت أخلص المخلصين ، وقد نبّه على ذلك قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً) فافهم وهذا ماقال :

ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه ستر وصفك بوصفه (٣) فوصلك إليه بما منه إليك.

من إحسان وستر وإفضال :

لابما منك إليه

من أُحوال وعلوم وأُعمال .

تنبيه :

خاتمة هذا الباب مع الذي يليه ظاهر المناسبة لأنها إذا كانت الدعاوى والمساوى، لاتنقضى فليس إلّا جميل ستره كما قال :

وغطا نعتك بنعته .

فغمس فقرك في غناه وضعفك في قوَّته وعجز ك في قدرته وذُلَّك في عزّته فظهر عليك الكمال به لاينفسك كما قال :

⁽١) وفي التيمورية : (خز ائتنا مملوءة) .

 ⁽۲) وفى نسخة الدار (إذ تأملت وجدت أحوالك كلها دعاوى و لو كنت أصدق الصادقين و بجد أحوالك كلها مساوى و لو كنت و أس المخلصين) .

⁽٣) وى نسخة الدار والتيمورية تعديل لهذه العبارة كالاتى (ستر وصفه بوصفه وغطى نعتك بنعته. نغمس فقرك ى غناه وضعفك فى قوته وعجزك فى قدرته وذلك فى عزته فظهر عليك الكمال به لا بنفسك كما قال فوصلك إليه بما منه إليك من إحسان وسبر وإفضال لا بما منك إليه من أحوال وعلوم وأعمال فاتهم .

تنبيه : خاتمة هذا الباب مع الذي يليه ظاهرة المناسبة لأنه إذ كانت الدعاوي والمساوى لا تنقضي فليس لها إلا جميل سره كما قال . وقال رضي الله عنه لولا جميل ستره لم يكن عمل . . . إلخ) .

* البقين اذا أشرق كشــــف عن الدنيا والآخرة



((البقين نور يجمله الله في قلب المؤمن حتى يشاهد به أمور آخرته ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها))

		,	
•			

وقال رضى الله عنه : لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول .

قلت : بل ولا للوجود ؛ لأن النفس مجبولة على ضد الخير فلا تعمله إلا بوقاية تكون بينها وبين وصفها الأصلى كما أشار إليه قوله تعالى : (ومن يوق شع نفسه فأولئك هم المفلحون) وبعد الدخول فى العمل فهى أصل العلل والآفات فلا يصدر منها إلّا ناقص وإن صدر كاملاً لحقته العلل من الملاحظات وطلب الأعواض والأغراض ، فالعمل يحتاج إلى التخليص والإخلاص ، وهما مفقودان أو فى حكم المفقودين ؛ فالقبول من فضل الله وكرمه دون واسطة ، وقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه : إذا طالبهم بالإخلاص تلاشت أعمالهم ، وإذا تلاشت أعمالهم ، وإذا تلاشت أعمالهم ، وأد فقرهم وفاقتهم فتبرً وا عن كل شيء لهم ومنهم» . انتهى .

ومن بيان ذلك ماذكره فقال:

أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته .

قلت : لأنك في الطاعة مصحوب بالعلل والدعاوى والآفات من الرياء والعجب والنظر إلى نفسك وعدم التحفظ وقلة الاحترام مع الغفلة عن ذلك كله ، وفي المعصية مصحوب بالافتقار والاضطرار مقرون بالذلّة والاحتقار ، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لعبادى الصديقين : لايغتروا فإنى إن أقم عليهم عدل وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا تقنطوا فإنه لايكبر على ذنب أغفره لهم» وقال أبو القاسم (١) النصراباذي رضى الله عنه : «العبادات إلى طلب العفو عن تقصيرها أحوج منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها ». وقال أبو يزيد رضى الله عنه ؛ «توبة المعصية واحدة ، وتوبة الطاعة ألف توبة ».

ولا يمختص الستر بالواقع بل يجرى في الواقع والمتوقع كما بينه المؤلف إذ قال:

الستر على قسمين : سنر عن المعصية ، وسنر فيها .

⁽۱) واسمه : إبراهيم بن محمد النصر اباذى ، نيسابورى الأصل والمولد ، شيخ خراسان فى وقته جاور بمكة سنة ست وستين وثلاثمائة ، ومات بها سنة سبع وستين وثلاثمائة ، وكان عالماً بالحديث كثير الرواية . والنصر اباذى نسبة إلى « نصر اباذ » محلة من محال نيسا ور .

قلت : فالستر عنها حجاب بين العبد وبينها حتى لايراها وإذا رآها فلا يستحسنها ، وإذا استحسنها(١) فلا يقع فيها : عصمة من الله لمن عصمه وحفظ منه لمن حفظه .

والعصمة : الامتناع من الذنب مع استحالة الوقوع فيه ، وذلك واجب للأنبياء عليهم السلام . والحفظ : الامتناع من الذنب مع جواز الوقوع فيه ، والكل بِستره الجميل وفضله الكامل ، وإلا فلاعاصم من أمر الله إلا من رحم . والستر فيها : حجاب عن الفضيحة بعد الوقوع . والناس في ذلك نوعان ذكرهما المؤلف بأن قال :

العامَّة يطلبون الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق .

قلت : فهم لايفرون منها أولاً وابتداء ولايرون الفضيحة آخراً وانتهاء ، والدلك صح منهم الرياء والتصنع تستراً وتجملاً ، وذلك من قصور همهم ونقص إيمانهم ، وإذا وجدوها دون فضيحة لم يرجعوا عنها ، ثم إذا كان طلبهم للستر فرارهم من ذلك شفقة على عباد الله من الوقيعة فهم أولى لافتدائهم ونحو ذلك فقد يُرجى لهم لاسيما إن اقترن ذلك بالتوبة والانابة (٢) والله أعلم .

ثم قال:

والخاصة بطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الله الملك الحق.

قلت: فهم يفرون منها ابتداء وان طلبوا سترها انتهاء . فلايضرهم ذلك ، وذلك من تعظيمهم لمولاهم . وتحقيق إيمانهم ، ثم هم فيه على مراتبهم ، فمنهم من يطلب ذلك لمخوف العذاب ، ومنهم من يطلبه الخوف الحجاب ، ومنهم من يطلبه خوفا من فوات الثواب ، ومنهم من يطلبه اشفاقا من الطرد عن الباب ، ومنهم من يطلبه اتقاء للطرد عن الباب والابعاد عن المخياب ، إلى غير ذلك ، وكل ذلك راجع لما ذكر من السقوط من نظر الملك المحق على وجه الاتفاق والرحمة ، لأن ذلك يقتضى فوت كل خير وحصول كل شر وأكملهم من يطلب ذلك حياة وهيبه ، وإجلالاً وتعظيماً حتى لو غُفر ذنبه ما سقط خَجله كما قال الفضيل ابن عياض (٣) رحمه الله «وآسوأتاه منك وإن غفرت » .

⁽١) وفي التيمورية (وإذا لم يستحسنها) .

⁽۲) وفى ت «ثم إن كان طلبهم الستر من الله تعالى فقد رجدوا إليه بما لا يرضاه لهم من حيث مرادهم فكان رجوعهم حجة عليهم لا فم إلا أن يكون فرارهم من ذلك شفقة على عباد الله من الوقيعة فيهم أو الاقتدا. بهم أو نحو ذلك ، فقد يرجى لهم) .

⁽٣) هو : أبو على الفضيل بن مسعود بن بشر التميمى . حرسانى من ناحية مرو . قيل إنه ولد بسمرةند . مات بمكة فى المحرم سنة سبع وتمانين ومائة . كان إماماً ربانياً صمدياً عابداً شديد الحوف دائم الفكر .

وقد يتركّبُ من القسمين قسم ثالث وهو طلب الستر فيها إذا حصلت وعنها وإذا لم تحصل، وذلك مقتضى الحقيقة والشريعة لكن إن كان ذلك من حيث ما أمر الله فصحيح مليح. وإلّا فالالتفات للخلائق نقص، والله الموفّق. وإذا كان المانع من المعصية وجود الستر عنها، ومن الفضيحة فيها ذلك فإكرام الخلق إذنْ راجع لستره، سواءٌ كنت مطيعاً أو عاصياً، وهذا مانبّه عليه المؤلف إذ قال:

من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره .

قلت : وذلك لأنك من حيث أنت محل كل عيب أصلاً وقصلاً سواءً كنت مطيعاً أو عاصياً ، منعماً كنت أو مبتلى فلله در القائل : ما هناك إلا فضله ولا تعيش إلا في ستره ، ولو كشف الغطا لكشف عن أمر عظيم » فالعباد إنما يتعاملون بستر الله سبحانه إذ لو كشف البواطن والضائر مانظر أحد في أحد ولقلا الإنسان أحب الناس ، فوجب الحمد لربنا على ستره كما قال :

فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك.

القائل:

قلت : إذ لولا وجود ستره ما جرى لك شكر من غيره ، فلا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تذمن أحداً على مالم يؤتك الله ، وإن كان شكر الخلائق واجباً فمن حيث إنه مأمور به صار من شكر الله ، وسر وجوبه التحرر من رق إحسانهم والقيام بمجازاة امتنانهم ، فمجاز الشكر لمن له مجاز الإحسان ، وحقيقة الشكر لمن له حقيقة الفضل والامتنان ، فافهم .

ومن برهان ماذكر من أن المشكور فينا ستره أن علم الخلائق بعيوبنا يوجب نفرتهم عنًا ، وهو نعالى عليم بعني الحفي من أمرنا ، ومع هذا أجرى فضله وإحسانه علينا . وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ما صحبك إِلًّا من صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك إِلًّا مولاك الكريم.

قلت : يقول ماصحبك حقّ الصحبة إلّا من صحبك مع علمه بعيبك تفصيلاً واطّلع عليه تأصلاً وتحصلاً لأنه لايتركك بذلّة ولاير دك بنقص ويرفق بك في كل حال من أحوالك ، ولا يعلم عيبك على التفصيل إلّا خالقُك ومولاك ، ثم مع ذلك فهو بأمرك وينهاك وتعصى أمره فلا يدعك لأحد من خلقه ، بل يرأف بك رأفة تدعوك للانحياش إليه إن غفلت ، ولو علم الخلائق بعض البعض مما علم الله منك مانظروا إليك ، بل كانوا يرجمونك ويوذونك على فعلك إلّا من هو ناظر إليك بربّك متخلّقاً بالرحمة الإلهية في حفظك ، وقليل ماهم : بل أقل من القليل ، ولله درّ

جَنْبُ الناس كيف شئت تجدم عقارباً وَقلِّب الناس كيف شئت تجدم

ثم ذكر المؤلف برهاناً آخر يدعو إلى الانحياش إلى الله وترك ماسواه كالذى قبله والذى قبلهما ققال:

خير من تصحبه من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه

قلت : وليس ذاك إلا مولاك ؟ لأن صحبة الخلائق كلها مقرونة بالعلل ، فلا يصحبك أحد إلّا لما يعود إليه من نفع أو دفع ضرّ حتى أن من صحبك لذاتك فإنما أجاب فيك داعية نفسه وعاد عليه منك تبريد حرقة الشوق والمحبة من قلبه واستلذاذه بالانصال والوصلة عما يريده من صحبته والربّ تعالى غيّ منزّه عن الأغراض والأعواض ؟ فهو يعطيك ولا يأخذ منك ، ويريحك ولا يستريح إليك ، فاعط الأدب حقّه بأن لاتعرّج على غيره أبداً . وبالله التوفيق .

ثم ذكر المؤلف هنا من إطلاق الصحبة ماقد وقع فى حديث (اللهم أنت الصاحب فى السفر..) فعمَّم قومٌ جواز إطلاقه حيث لا إبهام ، ومنعه آخرون إلاَّ حيث وَرَدَ فلعل الشيخُ ممن يرى جوازه.

وكذلك وقع للإمام أبي حامد وجماعة من أثمة هذه الطريقة ، والله أعلم . وإذن قد بان لك أن صحبة الخلق لاعبرة بها من حيث هم ؛ فالدنيا أيضاً كذلك لأنها فانية زائلة ، لكن حجاب الوهم وضعف اليقين بَعَد ذلك!! كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

لو أشرق نورُ اليقين لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها .

قلت : لأن الآتى قطعاً كالموجود فى الحال ، ولأن بادى النقص شاهد بدخول تلك فى هذه فهى عينها لمن عقل حكمها ، وإن كانت أحكامها مختلفة . وقد قال أحمد بن عاصم الانطاكي ، رضى الله عنه ، : «اليقين نور يجعله الله فى قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته ويخرق به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها » . وقال حارثة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا سأله : كيف أصبحت ياحارثة؟ قال : أصبحت مؤمناً حقًا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك؟ قال : كأنّى يعرش ربنى قد صب ، وبأهل الجنّة فى الجنّة يتنعمون ، وبأهل النار فى النار يتعاوون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم ، عبد نور الله قلبه . . الحديث) وقال عليه السلام : (إن النور إذا

دخل القلب انفسح وانشرح ، قيل : يارسول الله ، وهل لذلك من علامة يعرف ب ؟ قال : التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله ، انتهى ثم قال :

ولرأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كِسْفَةُ الفناءِ عليها .

قلت : هو من تتمة الكلام الذى قبله ؛ فاليقين إذا أَشرق كشف عن الدنيا والآخرة ، إذ شأنه الكشف فيحصل العلم بأن الآخرة خير من الدنيا . والكَشفة : من الكسوف ، وهو : التغيير وظهور كسفة الفناء على هذه الدار بما يعرض عليها من عوارض النقص والتغيير والانقلاب ، كضعف القوّة ، وخلق(١) الجدّة ، أَو غير ذلك . فافهم . فخرج من جملة ماذكر أن الدنيا ناقصة زائلة ، وأن الدخلق لااستقلال لهم ولا كمال بل ولا وجود على الحقيقة(٢) ، فالاشتغال بهم تعلّق بالوهم دون حقيقة ، كما قال :

ما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لاشيء معه ، وإنما حجبك عنه توهُّم موجود معه .

قلت: فاشتغالك بثناء الخلق وذمّهم، وتعلّقك بالستر لأجلهم، وانتظار المنافع من قبكهم، وتوجهك للدنيا بالكل حتى حُجبت به عن مولاك، من تعلقك بالوهم القاضى باعتبار ذلك كلّه وثبوت نسبته فى الوجود، وذلك من وجود رؤية وجود ذلك كله مع الحق سبحانه، وذلك باطل ووَهمٌ ، لما قضى به التحقيق من أنه تعلى المنفرد بالخلق والتدبير والمتوحّد بالحكم والتقدير فالكل به وإليه فهو الموجود وحده لاغيره. قال فى «لطائف المنن»: «وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلّ والظلّ لاموجود باعتبار جميع مراتب الوجود، ولامعدوم باعتبار جميع مراتب العدم وإذا أثبتت ظليّة الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر ؛ لأن الشيء إنما يشبه باعتبار جميع مراتب العدم وإذا أثبتت ظليّة الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر ؛ لأن الشيء إنما يشبه باعتبار في الأنبار لاتعوق السفن عن التسيار ومن هنا يتبين لك أيضاً أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله تعالى للزم أن يكون أقرب وحودياً بينك وبين الله تعالى للزم أن يكون أقرب من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب التهى .

وهو كالبيان لما هنا فافهم ، وبحسب هذا فالنظر إلى صفاته يقضى باضمحلال مخلوقاته وهو كالبيان لما هنا فافهم ، وبحسب هذا فالنظر إلى صفاته يقضى باضمحلال مخلوقاته

⁽١) فكل جديدها ، أي : (الدنيا) خلق أي : يبلي و تذهب جدته .

⁽٢) لأن الوجود الحقيق إنما هو وجود واجب الوجود .

لوظهرت صفاته اضمحلت مكوناته

قلت : إذ لا ثبات للخلق مع ظهور آثار الحق (ياعجباً ، كيف يظهر الوجود في العدم؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القِدم (لايكون ذلك أبدا ، وليس إلا هو وحده . بيان ذلك فيا اتبع هذه الجملة به إذ قال :

لولا ظهوره في المكوِّنات .

أى بآثار أوصافه القدسية التي هي اتقانها بالعلم ، وتخصيصها بالإِرادة ، وإِبرازهابالقدرة . ما وقع عليها وجود أبصار .

قلت : يريد لا بالبصائر ولا بالأبصار لأنها كانت تكون عدماً محضاً ونفيا صرفا ، فما ظهر في الكون سوى آثار أوصافه فالظاهر إذن أوصافه ورؤية غيرها بلاهي من الوقوف مع الوهم المقيد بالصور دون رجوع للحقيقة الرافعة للوهم ، فافهم . ثم ظهور الأكوان إتما هو للدلالة عليه ؛ فإذا ظهر لم يكن لشيء وجود معه لثبوت أحديته وظهورها بما ظهر من فعله الموصل إليه . وهذا ماذكره بأن قال :

أظهر كل شيءٍ لأَنه الباطن.

یعنی الذی لاوصول إلى معرفته إلا م ظهر منه الدلالته علیه من حیث ولاه ذلك. وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر.

يعبى لايصح ظهور شيء مع ظهور، لاستتاره في وجوده وعدم استقلاله بوجوده ؛ فيحكمة ظهور الخلق لوجود التعريف وحصول المعرفة ينفي وجودهم ، فسبحان الظاهر الباطن العليم .

ثم دلالة المخلوقات إنما هو بما فيها من حُكْمِه وحِكْمتِه لابأَعيانها لعدم جدوى ذلك ونفى إفادته . وهذا مانبَه عليه المؤلف إذ قال :

أباح لك أن تنظر في المكوِّنات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات.

قلت : عبَّر بأباح ؛ ليشعر بأن النظر والاستدلال غير واجب ، أو أشعاراً بأن المطلوب أولاً تحصيل العيان لا إقامة الدليل والبرهان لأنه يؤذن بالغيبة ، وهي نقص عند ذوى الأبصار ، حتى لقد قال مريد لشيخه : إن فلاناً يستدلُّ على وحدانية الله بألف دليل . فقال الشيخ : يا بُنيّ لوعرف الله ما استدل عليه . فبلغ ذلك العالم فقال : صَدَق ؛ هم يشاهدون على العيان ونخن بنظر من وراء السُتر .

وقال مريدٌ لشيخه : يا أُستاذ ، أين الله ؟ قال : أسحقك الله !! أتطلب مع العين أين؟! والذي في المكنونات مادلت عليه من عجائب القدرة والإرادة والعلم إتقاناً وتخصيصاً وإبرازاً على اتساع ذلك ، وإنما لم يأذن في الوقوف مع ذَوَاتها لأنها حجاب صارف مانع عما وراءه ، كما تقدّم في غير ماموضع ، والله أعلم . ثم نزع المؤلف بالآية الكريمة ويسَط المعنى فيها بأن قال : قل انظروا ماذا في السموات ولم يقل أنظروا السموات .

قلت : فأشار بني ؛ لأن موقع النظر ما احتوت عليه ، فهي ظرف لما يقع النظر عليه ، لا أنها هي المقصودة به ن ، ثم زاد ذلك بياناً فقال :

فتح لك باب الإفهام .

قلت : يعنى بما أتى به من ذكر الظرفية الدالة على معنى زائد على أعيانها ، وأنّه هو الذي يتعلّق النظر به فإن تأوّل متأوّل بما يردُه لأعيانها لم يبعد ولكن الوقوف مع النظر أولى من التأويل وإخراج اللفظ عن معنى بهدى إليه ولايقدح فى حقيقة مادل عليه ليس بصواب . فافهم ثم قال : ولم يقل أنظروا السموات لئلا يدلّك على وجود الأجرام .

قلت : وذلك لأن الدلالة عليها لافائدة فيها ، بل هي صارفة بالاشتغال بها عن عين الحقيقة وتحقيقها وذلك أكبر المصائب وأعظم الآفات والنوائب ، ولله درّ القائل :

ما القد ٢ ما الطرف الكحيل وما اللها لولاك تشهد في حسلاه وتُرْمَــقُ وجملة الأَمر وكُليته ، ومداره ، وحقيقته ، ومبناه ، ووجهه ، ومعناه راجع لما ختم به الباب إذ قال:

الأكوان ثابتة بإثباته وممحوَّة بأحدية ذاته .

قلت : يقول : إنك إذا نظرت الخلق من حيث إثبات الحق لهم رأيتهم وجوداً وإذا نظرت إليهم من حيث ماهم عليه من الفقر والنقص وعدم الاستقلال رأيتهم محواً . قال فى «التنوير » عند كلامه على الأسباب وحكم النظر إليها مانصه : «والقول الفصل فى ذلك أنه لابد من الأسباب وجوداً ، ومن الغيبة عنها شهوداً فاثبتها من حيث أثبتها بحكمته ، ولاتستند إليها لعلمك بأحديته » اه وهو عين المراد ومخ المعرفة فى مراعاة الأسباب ، وبالله التوفيق .

تنبيه : إذا كانت الأُكوان معتبرة من حيث هو تعالى الذى أوجدها وجب أن لايُنظر في إقبالها وإدبارها إلا إليه ، فإذا أثنى عليك الخلائق فانظر لنفسك بحكم الحقيقة ترها مذمومة ضرورة .

	•		
		·	
		·	

* به أجهــل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس



((الزهاد اذا مدحــوا انقبضوا لشــهودهم الثناء من الخلق ٠٠ والعـارفون اذا مدحوا اتبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق ٠٠)

قال رضي الله عنه: الناس بمدحونك بما يظنون فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لِما تعلمه منها .

قلت : مدح الناس للعبد على حسب ظنّهم فيه من الخير والصلاح الذى اقتضاه ظاهر حاله لايدفع ماهو عليه من النقص في جميع أحواله ، فوجب أن لايقف في مدحهم ولا يلتفت إليهم، بل يذم نفسه بما يعلمه منها . وذلك على وجوه ثلاثة : أحدها : أن ينظر لما جبلت عليه من النقص والإساءة فلايراها أهلاً لما ذُكرتْ به ، وأنّ ذلك من فضله تعالى ومنّته ؛ إذ لايليق به من حيث ذاته وذلك رأس الذمّ لها . الثانى : أن ينظر لما تضمنه مامدحت به من التقصير والإساءة فيذكّرها به كالرياء في العمل والتزيين ونحوه . الثالث : أن يثبت لها ما جهلته أو غفلت عنه من سيئات أخر بأعمال خفية ؛ إذ لكل إنسان حبيئة من عمله و (الإنسان على نفسه بصيرة) هذا كلّه إن كان مامدح به موجوداً فيه ، وإلّا فيذمّها بالتقصير والنقص عماً ذكرت به إن لم يثبت لها ، والمتشبّع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور . فافهم .

ثم نظر العبد مُولاه يذخِّره بحقارة نفسه ، وهذا ماذكره المؤلف بأن قال :

المؤمن إذا مدِح استحيى من الله أن يُثنّى عليه بوصف لايشهده من نفسه .

قلت : مراده : المؤمن الكامل . وقوله إذا مدح : يريد بما فيه أو بما ليس فيه ، فإنه إن مُدح بما فيه فليس منه فيستحى من الله تعالى(١) أن قد ستره فيما هو فيه وهو يجرى عليه ثناءُه الجميل بما لم يكن من شأنه فهو لايشهده من نفسه وجوداً وإن كان موجوداً فكيف بشهوده موجوداً ولا وجود . فافهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن إذا ملح ربا الإيمان فى قلبه . الحديث) فالمدح لايُدُم من حيث ذاته ، ولا يُحمد من حيث ذاته ، فلذلك قد يكون موصلاً للكمال أو موصلاً للنقص ، أو غير موصل لشيء منهما(٢) كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

⁽۱) زاد فی التیموریة بعد (. . . فیستحی من الله تعالی : أن یکون له نسبة مع مولاه فیما من به علیه و أولاه ، فیأخل ق شکره ، و شهود منته حیاء من ذکره معه ، و إن مدح بما لیس فیه فیستحی من الله أن قد ستره بما هو یه و هو مجری علیه . . . الخ).

 ⁽۲) وزاد في التيمورية بعد قوله أو غير موصل لشيء مهما (ولكل دليل ووجه ومن وجوهه المذمومة كونه بالباطل وقبوله على
 ذلك أكبر وأعظم (كما أشار إليه المؤلف).

أجهل الناس من ترك يقين ماعنده لظن ماعند الناس.

قلت : يقين ماعنده هو ماعليه من ذنوبه وعيوبه . وظن ماعند الناس هو ماظهر عليه من خالص أعماله وصالح أحواله بلى يقين ماعنده عجزه ونقصه وتقصيره وإساءته . وظن ماعند الناس كون ذلك منه حقيقة . والخروج عن ذلك كلّه إنما هو بالثناء على الله لاَّجل ستره . وهذا ماذكره إذ قال :

إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فاثن عليه بما هو أهله.

قلت : يقول : إذا أطلق الثناء عليك عموماً أوخصوصاً بأمر عام أو خاص ولم تر نفسك أهلاً له من حيث نقصُك وقصُورُك فارجع لمولاك بالثناء عليه إذ أظهر عليك مالست بأهل له من حيث ذاتك ذاكراً نعمته فيها واجهك به من ذلك ؛ إذ ستر القبيح وأظهر الجميل ولم يؤاخذ بالجريرة . والناس ثلاثة : رجل رأى نفسه مستحقاً للمدح والثناء فهلك ، ورجل رأى نفسه ليس بأهل ولم يشعر بإحسان الله إليه ، فاشتغل بذم نفسه وتوبيخها على ما هى متلبسة به وما فرط منها فسليم من آفاتها ، ورجل رأى نفسه كعروس افتضت بزنا وأهلها يريدون لها الزفاف فتطلب الستر عند المواجهة وتنظر لنقصها في الحال قائلة : إذا وصلت إليه فسترنى تم لى ولكم مانريد، وإلا فأنتم يتم أمركم وأنا كما شاء وحكم ، وعلى هذا يتنزل قول على كرَّم الله وجهه عندما سمع الشناء عليه : «اللهم اجعلى خيراً مما يظنون ، ولا تؤاخذنا ما لايعلمون ، واغفر لنا ما يقولون» ومن وراء هذه مراتب أهل الحقيقة ، وهم ثلاثة : من لايبالى بإقبال ولا إدبار ، ومن يعتبر بإدبار الخلق دون إقبالهم لشعوره بالانفراد للحق ، ومن يرى الخلق أقلام الحق وهم العارفون الذين ذكرهم المؤلف بأن قال :

الزهاد إذا مُدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق ، والعارفون إذا مُدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق .

قلت : شهود أفعال الخلق من حيث هم من نقص المعرفة بالحق وشهودها من حيث إجرائها عليه من المعرفة به ، وبحسب هذا فالعارف يرى الخلق أقلام الحق إذا أثنوا عليه فرح بذلك من حيث مولاهم ، لا من حيث هم فيزيده ذلك شكراً لمولاه وسكونا إليه وفراراً ممّا سواه ، وغيره يرى أفعالهم من حيث هم فيقبل ويدبر بحسب مايواجهه منهم ، فإن كان راغباً فرح بالمدح من حيث شمون عندهم وظهورها بينهم فيكون المدح في حقّه ذبحاً لكونه يدعوه لمراءاتهم

والتصنّع والتزيّن لهم ، وإن كان زاهداً لم يقبل ذلك منهم ، بل يسكن لذمّهم أكثر من مَدْحهم، ولإدبارهم أكثر من إقبالهم رجوعاً لقوله عليه السلام (احثوا التراب فى وجوه المادحين) ولقوله عليه السلام (المدح هو الذبح) ولقوله عليه السلام لمن مُدح عنده : (قطعتم عُنق صاحبكم) . وعمل العارفين فى ذلك على الحديث الصحيح (١) (إنالله إذا أحبّ عبداً نادى جبريل إني أحبّ فلاناً فأحبوه أحبّ فلاناً فأحبوه أحبّ فلاناً فأحبوه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السموات ثم يوضع له القبول فى الأرض) اه ولا يتصور تأويله كما تُؤولت الأحاديث الأخر ، فلزم حمله على وجهه والعمل به للخاص لالعموم الخلق ، وبالله التوفيق . ثم حال العارف والعامي فى الصورة واحد افترقا بالحقيقة التي بيّنها المؤلف إذ قال :

متى أُعطيت بَسَطَك العطاءُ وإذا مُنعت قبضك المنعُ فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقِك فى عبودتيك .

قلت: هذه علامة يعرف بها المريد حاله في العطاء والمنع والمدح والذم ؛ فإذا كان يقبل ذلك ويرده من حيث الطبع والعادة ومن حيث هو إقبال وإدبار فذلك دليل نقصه إذ هو كالطفل في إقباله وإدباره لايشعر بما وراء العطاء والمنع ولا يفرح ولايحزن إلالهما ، وهو من مراعاته للمخلق في حاله فيحتاج لمقابلتهم بالقبص (٢) من الفرار من المدح والفرح بالذم حتى يستوى عنده الحالان ، أو يكون الذم أشهى إليه ، أو تغلب عليه الحقيقة فيفرح بمولاه ويحزن لمولاه . وعلامة صدقة في ذلك وجود العدل في الرضا والغضب فلايتجاوز الحد في مدح محسن وإكرامه ، ولا في خم مسيء وإهماله . وقد قال أبو عنمان الحيرى (٣) رضى الله عنه : الايكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء : في المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل».

: مــينت

توقُّف المدح والذم داع لوجود العصيان بمقابلة الذامِّ والمادح بخلاف الحق واغترار النقس به وسكونها إليه وحبّه بالباطل وذلك يوجب التوبة والرجوع إلى الاستقامة .

⁽۱) روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إلى أحب فلاتاً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى في الماء فيقول إن الله يجب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل الساء ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول إنى أبغض فلاناً فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل الساء إن الله تعالى يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض ».

⁽٢) وفي التيمورية (فيحتَّاج إلى مقابلتهم بالنقيض) .

⁽٣) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى . من « الرى » وأقام بنيسابور وقرأ على أبي حفص الحداد وأقام عنده وتخرج يه وزوجه أبو حفص ابنته . مات سنة ثمان وتسعين ومائتين هجرية .

** مطالع الأنوار القلوب والأسرار



((اذا اراد الله أن يعرفك وليا من أوليائه طهوى عنك وجههود بشريته . • وأشههك وجهود خصوصيته))

		•	
		•	
	•		

قال رضى الله عنه : إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربِّك .

بل اجعله مفتاح الرجوع إليه بالتوبة والإنابة رجاءً في الله وخوفاً منه ؛ لأن اليأس من رحمة الله كوجود الاغترار بالله ، ولا يُعظّم الشيطان عندك الأمر بما عسى أن يكون تقدَّم الك من كسر التوبة ولا بما تعلمه من نفسك من قلَّة الوقار والخشية ، ولا بما تراه من عظم الذنب وكبر السيئة ؛ فإن الله لا يتعاظمه ذنب يغفره .

قال الإمام أبو حامد رضى الله عنه: «وكما اتخذت الذنب والعودَ إليه حرفةً فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة ، فما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب فى اليوم سبعين مرة » وقد ذكر ذلك فى حال من استقام بعد عظم الذنب وقبائح الأُمور ، فلا أعظم ذنباً من فرعون وقد قال تعالى (فَقُولاً لَهُ قَوْلاً لَينًا لَعَلّهُ يَتَذَكَرُ أُو يَخْشَى .. الاية (١) ثم الذنب الواقع منك قد يكون آخر ذنب قُدًر عليك كما قال :

. . .

فقد يكون ذلك آخر ذنب قدّر عليك.

قلت : وذلك يأن يصرفك الحق عنه أو يصرفه عنك بأحد وجوه ثلاثة : أن تستقيم على التوبة فلا تراجعه أبداً لوجود صدقك ، أو تعاجلك المنية قبل العود إلى مثله ، أو تصرفك الموانع عن فعله ، فمن العصمة أن لاتجد ومن العصمة أن لاتقدر ، وإن لم يكن شي من ذلك فالذنب الماضى قد مُحى عنك بوجود التوبة فلم يكن عليك غير هذا الأخير ، وكنت في غيبة عن الذنب وغروب عن العزم إلى وقوع الثاني فبرئت من الإصرار وهو من العظائم وهذا أس الغنيمة ، وبالله التوفيق . ثم الحامل على التوبة إنّما هو رجاة أو ما في معناه ، أو خوف أو ما في معناه ، ولكل منهما باعث يحضه أو سبب يتوصّل به إليه ذكره المؤلف بأن قال :

إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك ، وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن فاشهد ما منك إليه .

قلت : وإن أردت أن ينْفتح لك كل منهما فاشهد كلّ واحد فى عين الآخر وعند ذلك يستوى رجاك وخوفك فتكون على كمال فى حالك . والذى منه إليك ثلاث : نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد ، ونعمة الإبعاد : إبعاد البليّات والمحن ، وهي (١) الوزر ، ونسيان الذكر ، وإنما

⁽١) آية ٤٤ من سورة طه .

⁽٢) زاد ى التيمورية (ونعمة الأبعاد أبعاد البلايا والمحن وهي نعمة الدفع كما أن اللتين قبلهما نعمة النقع واللبي منك إلهه ثلاث : مخالفة الأمر ومقارفة الوزر ونسيان الذكر وإنما يتحقق . . . إلخ) .

يتحقق شهود كل بثلاث: ذكر النعم أو ضدّها تفصيلاً وإلزامها دليلاً ، وتكراره الذكر بكرة وأصيلاً. وينتنى بثلاث: الاشتغال بوجه الحكم والحكمة فى الواقع ، والقناعة بالجملة قبل التفصيل فإنه يزيد فى الجرأة ولايشنى غلَّة ، فاعتبار ذلك بالحفظ والذكر حتى كأنَّه نصب عينيه حتى يشكر النعمة ويتبرأ من وجود النقمة ، وبالله التوفيق.

ثم الحزن أعمّ من أن يكون مع خوف أم لا ، والرجاء أعم من أن يكون فى الجنة أو غيرها . يعمّ ، والقبض حال الحزن والبسط حال الرجاء وتختلف نفعاً بحسب القوة والضعف فى الحال الوارد عليهما ، فوجب الوقوف مع ما يظهر من ذلك للجهل بمحل الفائدة . كما قال :

ربُّما أفادك في ليل القبض مالم تستفده في اشراق نهار البسط.

وربما كان العكس ، فاقبل ماواجهك منهما من غير مبالاة بغيره ، واقبل فى ذلك ماقال الله تعالى فى حق الآباء والأبناء :

(لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً) .

أشار بالآية إلى أن البسط من بساط الجَمال ، وهو أصل وجودنا ؛ فهو بمثابة الأب ، والقبضُ نتيجة أفعالنا فهو مثابة الابن وعدم (٢) تحصيل الثانى فلذلك قال :

مطالع الأُنوار القلوب والاسرار .

قلت : لأن أصلها فهم أو علم ، فالفهوم للقلوب والعلوم للإسرار ؛ وقد قال شيخنا أبو العباس الحضرى رضى الله عنه ، بعد كلام ذكره في كتب له ، : «والفهم في ذلك بحسب واردات القلوب وبحسب النور الموضوع في باظن القلب ، ثم قال : وأي نور هو فإن الأنوار مختلفة : نور الطبع ، ونور العقل ، ونور الروح ، ونور القلب ، ونور سويداء القلب ، ونور السر وهو أعظم الأنوار وأجلها وأكملها قال : ولكل نور من هذه الأنوار نور تأويل وننزيل وتحويل وتنقيل . ولكل مقام منها شرح ماتسعه الصدور فضلاً عن السطور وما يعلم جنود ربك إلاهو» .

وقد بيُّنا هذه الأُنوار في مواضعها ، وبالله التوفيق.

تُم مرجع الأَنوار وإِن تعددت لِأَصلَيْن (١) ذكرهما المؤلف بأن قال :

⁽١) زاد فى التيمورية بعد ذلك (ثم تتائج أنوار القلوب والأسرار وهي غير محكومة عليها نوجب أن نتحاشي ولا نخالف لتغويت الأول وعدم تحصيل الثانى . . . إلخ) .

⁽٢) وهما : القلوب والأمامرار .

نور مستودع في القلوب مدده النور الوارد من خزائن الغيوب.

قلت : فالنور المستودع فى القلوب هو المطبوع (٢) فى باطن القلب الفائض من نور مشاهدة يوم الميثاق يوم (ألستُ بربكم قالوا بلى) فهو للقلب بمثابة نور العين به تُبْصر ، لكن بعد ورود نور الإلهام الوارد من خزائن الغيوب ، الذى هو بمثابة الشمس المنبسطة على المنظور فيه ولا يحصل الإبصار إلا باجماعهما كما قيل :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع ولاينفع مسموع إذا لم يك مطبوع كما لاتنفع العمين وضوء الشمس ممنوع

ثم هذا النور باعتبار انبساطه نوعان ذكرهما المؤلف بأن قال :

نور ينكشف لك به عن آثاره ونور ينكشف لك به عن أوصافه.

قلت : وكلاهما باطنان ؛ فإذا كشف لك به عن آثاره رأيتها على مايليق بها من النقص والزوال في هذه الدار ، وعلى ماهى عليه من البقاء والدوام والكمال في تلك الدار ؛ فترجو وتخاف وتطلب النجاة والثواب لعلمك بالدنيا وانقراضها وعلمك بالآخرة ودوامها وما أعده الله لمن أطاعه بل وما توعد به لمن عصاه ،وإذا كشف لك عن أوصافه تعالى رأيت النقص في كل شيء بكماله ،فناء كل شيء في وجوده ،إذ لوظهرت صفاته اضمحلت مكوناته فلم يبق لك مع غيره قرارولاعمًا سواه خيار . ثم هذه الأنوار إنما توجب ماقلناه مع تمكتها من القلب لامع ظهورها في عوالمه فقط ، ولذلك قال بعضهم : إذا كان الإيمان في ظاهر القلب ، يعني على الفؤاد ، كان المؤمن يحب الله حبًا متوسطاً ، فإذا دخل الإيمان باطن القلب وكان في سويدائه أحبه الحب البالغ ، انتهى .

ثم الأُنوار قد تكون حجاباً كما تكون الأَغيار حجاباً ، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف بأَن قال : ربما وقفت القلوب مع الأُنوار كما حَجبت النفوسُ بكثائف الأَغيار .

قلت : يقول قد تقف القلوب مع الأنوار فتحجب عن المنور بوقوفها كما تقف النفوس مع الأُغيار فتحجب بوجودها عن الأنوار .

ب شم وجوه الوقوف مع الأنوار ثلاثة : أخدها : الأنس بها ، والتعشّق بوجودها استحلاءً لها وحبًا فيها . الثانى : القنوع بها والنظر إليها مع عدم الالتفات لما بعدها . الثالث : رؤية أنها الغاية . التي ليس شيءٌ وراءها وقد تقدّم من كلام ابن الجلاء : «من وقف بهمته على مادون الحق فاته اللحق لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك» . ولله در ابن الفارض حيث يقول :

⁽١) وفي نسخة ، المرضوع .

وإن اكتني غيرى بطيف خياله فأنا الذي بوصاله لاأكتني

وكثائف الأَغيار معناه الأَغيار الكثيفة ، فهو من إضافة الشيءِ إلى نفسه . والأَغيار جمع غَيْر بالفتحة والسكون ، وهو يطلق على كل شيء سوى الحقّ سبحانه وتعالى ، وتقدّم معنى هذه الحكمة عند قوله : «ما أرادت همَّةُ سالك أن تقف عندما كشف لها» ، فانظره وفي معناه للشيخ أبي الحسن التَسْتُرى رحمه الله تعالى ورحمنا بهم جميعاً:

تَقيَّدت بـالأَّوهـام لما تـداخلت عليك ونـور الـعقـل أورثـك السـجنـا وهمتَ بِمَأْنُوار فهمنا أُصولها ومنبعها من أين كان فما همنا وقد تحجب الأَنوار للعبد مثلما تبعده أوصاف نفس حوت ضغنا وأَى وصال في القضية يُدُّعي وأكملُ من في الناس لم يدَّع الأَمنا

ثم ذكر المؤلف حكمة ستر أسرار الأولياء عن عوام الخلق وعدم اطلاعهم عليها فقال: سترأنوار السرائربكثائف الظواهر إجلالًالهاأن تبتذل بوجو دالإظهار ويُنادى عليها بلسان الاشتهار .

يقول : ستر الله تعالى أنوار السرائر التي هي ما يتحقق به الأولياء والعارفون من أحوال المنازلات ومنازلات الأحوال وحقائق المعارف ومعارف الحقائق بكثائف الظواهر وظواهر الكثافة . التي هي أوصاف البشرية؛ إذ جعلهامظهراً لهاوموقفًا فيهاوغير منفكَّة عنهاحتي أنالجاهل ليندفع عن الولى من أجلهاكما اندفع الكافر عن الأنبياء بذلك ؛ إذ قالوا: (ماهذا إِلَّابشر مثلكم بأكل مَّا تأكلوت منه ويشرب مما تشربون) وقالوا مالهذا الرسول يأْكل الطعام ويمشى فى الأَسواق . . ؟ إلى غير ذلك . وما سترها الحق نعالى بذلك إِلَّا غَيْرةً عليها وصيانة لها عن المدّعين كما تقدّم في قوله: «صيانة لها أَن ِيدُّعيها العباد بوجود الاستعداد وإجلالاً لها عن الابتذال والاشتهار » كما بيُّنا ؛ لأَن ماكان من العزيز لايكون إلا عزيزاً وما يحصل به الإكرام والتخصيص إذا صار مبتذلاً بطل سرُّ الاختصاص

به . قال في «لطائف المنن » : فأولياءُ الله تعالى : أهل كهف الإيواءِ فقليل من يعرفهم » قال : وقد سمعته (يعني شيخه أبا العباس المرسي) يقول : «معرفة الولِّي أصعبُ من معرفة الله ؛ لأن الله تعالى ظاهر بكماله وجماله ،وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كماتأكل ويشرب كماتشرب قال فيه: «وإذا أُراد اللهأن يعرفكولياً منأوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجودخصوصيته» انتهى .

وبحسبه فلا وصول للوليّ إِلَّا بالله ؛ لأَنه في حجاب الفطرة . وبالله التوفيق .

تنبيه : لمَّا كان الولى مستوراً عن الأغيار ، ولا يُعرف إلَّا بكشف الحجب والأستار كانت الدلالة عليه من حيثُ الدلالةُ على مولاه ؛إذ لا يُعرف إلَّا به ،ولا يُطلب إلَّاله ،ولا يُوصل إلَّابه لا بسواه(١).

⁽١) في نسخة الدار (إذ لا يعرف إلا بطلب الإله ولا يوصل به سواه) .

** او کنت صـــادقا مع مولاك ما أحببت أن يرى عملك غيره ٠



(حظ النفس في المعصية ظاهر جلى وحظها في الطاعة باطن خفي))

وقال رضى الله عنه سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلَّا من حيث الدليل عليه .

قلت : صدَّر بالتسبيح لوجوده ثلاثة : الإشعار بعظمة الأمر وكبره ، وإنه لكذلك ، والتنبيه على أَنْ أولياء الله منزْهون بتنزيه كما أشارت إليه الآية في تبرئة المؤمنين ، إذ قال تعالى : (لَوْلاَ إذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّم بِهَذا سُبْحَانَك . الآبة (١) والإشارة لعدم المساواة في الدلالة التي أشعر بها كلامه ومقصود الكلام ، كما أن الله تعالى لايُعرف إلَّا بتوفيقه كذلك لايُعرف كذلك الوَلَّ لايُعرف إلاّ بابدا من أوصافه ، وكما أن الله لايعرف إلَّا بتوفيقه كذلك لايُعرف الولَّ إلَّا (بتوصيل الحق له . وأيضاً لاتتصور معرفة الولِّ إلَّا بعد معرفة الله لأنه لايطلب الولى الولَّ عن عرف الولاية ، ولا يعرفها إلا من صدَّق بالاختصاص وذلك من اتساع الإيمان بالقدرة، وهو فتح من الله تعالى لذلك قال بعضهم » : «الإيمان بطريقتنا هذه ولاية » .

قال في «التنوير»: وذلك لأن الإِيمان بالفتح لايكون إلَّا بفتح» انتهى.

ثم الولى يُعرف بثلاث : إيثار الحق ، والإعراض عن الخلق ، والتزام السّنة بالصدق ، فقد قال أبو على الجرجانى : رضى الله عنه : «الولى هو الفانى فى حاله ، الباقى فى مشاهدة الحق ، تولى الله نعالى سياسته فتوالت عليه أنوار التولى . ثم لم يكن له عن نفسه إخبار ، ولامع غير الله تعالى قرار . وفى «الإشارة» عن الله نعالى إنما سميت الأولياء أولياء ؛ لأنهم يلونى دون من سواى من خلتى » انتهى . .

وحاصله أن الولى هو من تولاه الله فلم يدعه لغيره ظاهراً ولاباطناً ، وتولَّى الله فلم يُعرجُ على غيره بحال ، وبحسب هذا فكل من والا هم محفوظ بحفظه ، وواصل إليه على قدر نصيبه وحظه كما قال

⁽١) آية ١٦ من سورة النور .

⁽٢) ما بين القوسين ساقط في التيمورية . وفي نسخة الدار : ومقصود الكلام كما أن الله لا يعرف إلا بتوفيقه كذلك الولى لا يعرف إلا بتوصيل الحق له وأيضاً لا تتصور معرفة الولى إلا بعد معرفة الله لا يطلب الولى إلا مي عرف الولى ولا يعرفها إلا من قد صدق بالاعتصاص ، وذلك من اتساع الإيمان بالقدرة .

ولم يُوصل إليهم إلَّا من أراد أن يوصله إليه .

قلت : المراد بالوصول هذا معرفة الولى على وجه يقتضى القيام بحق حرمته عند أمره ونهيه ، والتعلق بحاله وهمته ولاشك أن ذلك مفتاح الوصول ؛ لأنه يوجب الاهتمام من الولى عن يقع (١) له ذلك فيشتغل قلبُه به فيكرمه مولاه بنظره لن تعلق به ذلك فيتولاه بإحسانه إكراماً لعبده واراحة له من شغل قلبه بغيره ، فإنه يغار على قلوب أوليائه أن يظهرفيها غيره ، ولهذا يقول الناس لأهل الخير : «خاطرك» أى ليكن لك بى اهتمام لعل الله أن يكرمك بقضاء حاجتي لمكان اهتمامك .

وأيضاً فإن من شأن أولياء الله تعالى الاهتمام وحُسن الإِخاء ، والفتوة ، والله تعالى يُغيى (٢) بهم إذا شهدوا وينوب عنهم إذا فقدوا، فلذلك قيل: «الولى إذا أراد أغنى (٣)، وقد استقر صحيحا أنه ماخالط أحد وليًا معتقداً به قط إلّا نفعه الله نعالى منه بنيته على قدر همّته ، كما قيل على قدر أهل العزم تأتى العزائم . وقد قال شيخنا أبو العباس الحضرى رضى الله عنه في كتابه وصدور المراتب ، : « فهنيئًا لمن ذاق أوذاق من بعض ماذاق (٤) أو رأى من ذاق ، فقد قيل المطر قريب عهد بربه فيستحب البروز فيه والتبرك عند نزول المطر ، هكذا ذكره الشارع صلى الله عليه وسلم ، وهو مطر من السحاب ، فما ظنك بالمؤمن العارف بالله ، فمن الأحرى والأولى المنظر إلى العارف بالله وأسادق بالله والساير لله بالله ، النظر إليه أقوى بالتأثير وفيه سعادة الدنبا رالآخرة عند مصادفة المحل والتوفيق . وقد تقدّم من كلام الشيخ أبى محمد بن عبد السلام يُوصى الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنهما «واصحب من إذا ذكر ذكر الله فإن الله يُغنى به إذا شهد ويدوب عنه إذا فقد ، ذكّره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتيح الغيوب » انتهى .

ومما يدل على أن رؤية العارف تزيد في نور المعرفة وغيرها قولُ أنسَ رضى الله عنه : ما نفضنا التراب من أيدينا من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وجدنا النقص في قلوبنا . الحديث) . وبالجملة ، فأولياء الله تعالى أبواب الله ، ومعرفتهم مفاتيح نلك الأبرواب ، وأسنان ذلك المفتاح حفظ الحرمة وحسن المخدمة ودوام الحشمة ، واتساع الرحمة ، فمن عاملهم بدلك فتح له ، وإلاً فهو على خطر .

⁽١) وفي نسخة الدار بمن منه نفع اك فيشتغل قلبه . . . إلخ) .

⁽٢) في سخة التيمورية يعتني وفي نسخة الدار يعين .

⁽٣) وفي نسخة الدار غنا أهي . (٤) لعلها : من .

ربها أطاهان على فيمب ملكون وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد .

قلت : يعول . رب أكرمك العنى بحانه بالاظلاع على غيب الملكوت الذي هو الاطلاع على مكنون العلم بقائلة رأى عين ، بل يحصل على مكنون العلم بقائلة وأن عين ، بل يحصل لك منه مالا عين رأت ولا أذن سمت ولا خطر على قلب بشر . ومع ذلك لم يُطلعك على شيءٍ من أسرار العباد أي : خَنْي أمورهم رحمة بك وبهم وإبقاءً عليك وعليهم وإلّا فما فتح لك خير مما حُجب عنك . وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال !:

من اطَّلع على أسرار العباد ولم يتخلَّق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لِجرّ الوبال إليه.

قلت : المتخلّق بالرحمة الإلهية هو أن يكون واسع الرحمة لعباد الله قد وسع الناس بسطه وخلقه فكان لهم أباً ، وكانوا عنده في الحق سواة ، كما جاء في وصفه عليه السلام (و كان بالمُوّمِنين رَحيمًا) يرحم المذنبين ويعطف على المساكين ويصفح عن الجاهلين ويُحسن للمسيئين ؛ إذْ كان خُلقه القرآن ، كما قالت أم المؤمنين وتلت قوله تعالى : (خُذِ العَفْوَ وَأُمُر بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَن الْجَاهِلِين) فمن كان متخلِفًا بهذا الخلق كان اطلاعه إكراماً له ورحمة لعباد الله ، وإلا فكما قال المؤلف : فتنة في الحال عليه وسبباً يجر إليه المكروه وسوء العقبي وهو الوبال(٢) لانه يضر نفسه بثلاث : بتزكية نفسه برؤية الفضل لها وتضييق رحمة الله على عباده ، وإيذائه عباد الله بهتك أستارهم ، وهو أصل كل بلاءٍ ، فيرحم الله القائل :

ارحم بني جميع الخلق كلَّهم وانظر إليهم بعين اللطف والشَّفقَة وقر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع في كل خلق حقَّ من خَلَقَهُ

ثم الاطلاع إمَّا أن يكون على محصية أو على طاعة ، وذلك يجرى لحظ النفس فيها كما يجرى في العمل بهما . وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

حظ النف، في المحصية ظاهر جيلي وحظها في الطاعة باطن خني .

قلت : يقول حظ النفس في المعصية فِعلاً واطلاعاً ظاهر جلى ؛ لأنها من بساط الحظوظ ومواقف النقص والريبة ففعلها بعظ نفساني ولولاه ماتصور وجودها لأن أصلها إحدى ثلاث : خوفُ الخَلقِ ، وهم الرزق ، والرضا عن النفس ، والاطلاع عليها مصحوب بحظ النفس ، وهو

⁽١) وفى نسخة الدار و دقيق المعار ف .

⁽٢) وزاد في نسخة الدار (وهو الوبال لأنه يجر إليه الوبال في إلمآلُ لأنه يضر نفسه . . إلخ) .

منيستشعر معه من التزكية ، ومايجده من لذة الاطلاع على نقص الغير الموجب لارتفاعه عليه وتمكنه منه ، ونحو ذلك وحظّها في الطاعة باطن خني فعلاً واطّلاعاً ؛ فإن فعلها قُربة ربما احتوت على رباء أو تصنّع أو تزيّن ، أوقصد غرض أو عوض والاطلاع عليها حسن ، لكن ربما جرَّ لتزكية النفس وإظهار سرّ المطّلع عليه وتعظيمه لأجله . وتعظيم حاله بأن يرى الصالحين ويقف على أهل الفضل والدّين إلى غير ذلك من الدسائس(١) التي لايطّلع عليها إلّا أو لو البصائر . و المقصود هنا أن الطاعة قد تحتوى على حظ كما تحتوى عليه المعصية ولكنه خني لاينظر إلا بتدقيق ومساعدة(٢) من التوفيق ، لأنه كما ذكر وقال :

ومداواة مايخي صعب علاجه .

قلت : يقول : وصعوبة علاجه على قدر خفاقه ؛ لأنَّ المداواة تابعة للمعرفة بأَصل العلَّة وسببها وعرضها فإذا كانت خفية وبَعُد الوصولُ إليها ، فلا يُمكن مداواتُها إلَّا بمشقَّة ، ومن العلل الخفيَّة في الأَعمال دخول الرياء في الخلق كما قال : (٣)

ربُّما دخل الرياءُ عليك من حيث لاينظر الخلق إليك.

قلت : وذلك لأن الرياء راجع لرؤية العامل للخلق ، لالرؤيتهم إيّاه ، فكل من نظر للخلق في عمله فهو مُرائى ، ولو كان في جوف بيت ، بل في صخرة مطبقة في قعر البحر ، ومن لم يداخله نظر إليهم في أعمالهم بكل حال فهو مخلص ولو كان في وسط أهل الأرض بأجمعهم ، وسواءٌ كان يعمل لأجلهم أو يترك لأجلهم ، وغير ذلك ، فقد قال الفضيل بن عياض رضى الله عنه : «العمل لأجل الناس جوابه كما نقله النووى في «الأذكار» عن الفضيل بن عياض : العمل لأجل الناس شرك . وترك العمل لأجلهم رياء ، وترك العمل لأجل الناس شرك . والإخلاص أن يعافيك الله تعالى منهما (٤) انتهى .

ثم إن للرياء الداخل في الخلوة وجوهاً منها الاستشراف لعلم المخلق بحاله من حيث(°) هداية عباده فلذلك قال :

⁽١) وفى نسخة الدار (إلى غير ذلك من الدنيا) .

⁽٢) وفي نسخة الدار لا يظهر إلا بنظر دقيق .

⁽٣) وفي التيمورية (في الخلوة) وكذا في نسخة الدار .

⁽٤) وفى التيمورية : قال بن عياض : (العمل لأجل الناس رياء وترك العمل لأجل الناس شرك و الإخلاص أن . . . إلخ) وكذك في نسخة الدار .

⁽٥) وفى التيمورية (الاستشراف لعلم الخلق بحاله من حيث هو لا من حيث منته تعالى ولا من حيث هداية عباده فلذلك . . إلخ).

استشرافك أن يُعلم الخلقُ بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك .

قلت: لأنك لوكنت صادقاً مع مولاك ما أحببت أن يرى عملك عيرُه ، فقد قال بعضهم: ما صَدَق الله أحد قط إلا أحب أن يكون فى جُب لايُعرف. وقال أحمد بن أبى الحوارى ، رضى الله عنه: « من أحب أن يُعرف بشيءٍ من الخير أو يذكر به فقد أشرك فى عبادته ، لأن من خدم على المحبّة لايحب أن يرى خدمته غيرُ مخدومه ». وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : من آحب أن يطلع الناس على عمله فهو مرائى ، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب»(١). وقال ابراهيم بن أدهم(٢) رضى الله عنه : «ما صدق الله من أحب الشهرة » وإنما الخلاص من الرياء وغيره بالنظر إلى الحق ورفض ماسواه بكل حال كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

· غَيِّب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك .

قلت: يقول لا تنظر لنظر الخلق إليك وانظر لنظر الله إليك ؛ فإنه يراك فى كل حال ويطلع على خق الخيى من حالك ، والخلق لا يعلمون منك إلا الظاهر ثم إذا نظر إليك بالرحمة لم يضرك نظرهم بنقضها (٣) ، وإن نظرك بالنقمة لم ينفعك نظرهم بالرحمة ، قال الله سبحانه (وإن عسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله . الآية) وقد كان بعض الصالحين يقول : « يا مُرائى قلب من نرائى بيد من تعصيه » . وقيل لبعضهم : بِم يستعين العبد على حفظ بصره ؟ قال : بعلمه أن الله تعالى سائق نظره إلى مايريد أن ينظر (٤) إليه . ثم قال :

وغِب عن وجود إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك.

قلت: يقول أُنظر لإِقباله تعالى عليك بنسيان إِقبالِ الخلق عليك حتى لاتبالى بهم فى إِقبال ولا إدبار اكتفاء بربًك. قال فى «لطائف المنن»: اعلم أن مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاغتناء بجوده (٥) قال سبحانه: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)(١) وقال (أَلَيْسَ اللهُ بِكَاف عَبْده)(٧)

⁽١) وفي التيمورية (قال سهل بن عبد الله من أحب أن يطلع الخلائق على ما بينه وبين الله تعالى فهو غافل وقال أبو الحير الأقطع من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء . . . إلخ) وكذلك في نسخة الدار .

 ⁽۲) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمى : زاهد مشهور . أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلا ف في نسبته ومسكته ووفاته
 ولعل الراجح أنه مات في بلاد الروم سنة ١٦١ هـ ٧٨٨ م .

⁽٣) وفي نسخة الدار بنقيضها .

⁽٤) وفى التيمورية (بعلمه أنْ نظر الله سابق نظره إلى ما يريد أنْ ينظر إليه) ركذلك في نسخة الدار .

⁽ه) وفي التيمورية (والأغتناء بشهوده). (٦) آية ٣ من سورة الطلاق.

⁽٧) آية ٣٦ من سورة الزمر .

وَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهِ يَرَى ﴾ () . وقال (أُوَلَمْ يَكُفُ سِرَبُكُ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهيد ﴾ (٢) فعبنى أمَّرِهم في بداياتهم على الفرار من الخلق ، والإنفراد بالملك الحق ، وإخفاءِ الأعمال وكتم الاحوال تحقيقاً لفناتهم وتثبيتاً لزهدهم وعملاً على سلامة فلوجم وحبًّا في إخلاص أعمالهم لسيِّدهم ؟ حي إذ عَكَن اليقين وأُيِّدوا بالرسوخ والتمكين ، وتحقفوا بحقيقة الدناء ، وردُّو ا إِلَى وجود الْبِقَاءِ . فَهِنَاكُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى سَتَرَهُم ، وإِنْ شَاءَ أَظَهْرِهُمْ هَادِينَ الْجَادَهُ ، وإِنْ شَاءَ سَتَرِهُمْ فَاقْتَطْعُهُمْ عن كل شيء وإليه . وظهور الولى ليس بإرادته لنفسه ، ولكن بإراده الله تعالى له ، بل مطلبه إِنْ كَانَ لَهِ مطلب الخفاءُ لا الجلاءُ كما قدُّمنا ، فلما لم يكن الظهور مطلبهم ، وأراد سبحانه إظهارهم فأظهرهم نولًاهم في ذلك بتأييده وإرادة (٣) مزيده ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم لعيد الرحمن أين سمرة : «الاتطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها ، وإن أُعطيتها عن مسأَّلة وكلت إليها» . ومن تحقق بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولاخفاءً ، بـل إرادتــه وقف على انحتيار سيده له . قال الشيخ أبو العبَّاس رضي الله عنه : «من أحبُّ الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحبُّ الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبداً لله فسواءٌ عليه أظهره أو أُخفاه» . ثم أساس هذا الأمر كلُّه وجودُ المعرفة والمحبة والفناء كما قال :

من عرف الحق شهده في كل شيءٍ .

قلت : فكان كل شيء عنده ، وله ، ويحسب ذلك فهو لاينظر التيء سواه ، إذ محال آن يراد ويشهد معه سواه ، يل كما قيل :

> مذ عرفت الآله لم أر غيراً ' وكذا الغير عند. لمنا ممنوع

والمعرفة : تحقق العارف بما يقتضيه جلال معروفه ، حتى يصير ذلك التحقق كأنه صفةً له لا تتحول ولا تترَكز عن ولا تجرى أحوالُه إلا على مقتضاها ، وبحسب ذلك فيكون نُصب قلبه ى كل وقت وعلى كل حالة .

نم شهود الحق إلى الفناء فيه رجوعاً بالكل إليه وذلك يوصّل إليه كما قيل : ومن فنيي به غاب عن كل شيءٍ .

⁽¹⁾ آية ١٤ من سورة العلق . (٢) أية ٥٣ من سورة فسلت .

⁽٣) وفي نسخة الدار (وواردات).

قلت : الفناء : شهود حقّ بلا خلق ، لاندراج حكم الفعل في الصفة من حيث إنه أثرها ، وبذلك لا يبقى خبر عن الفعل من حيث هو والصفة مضافة لموصوفها فليس إلّا هو وحده ، وذلك عين الغيبة عن كل شيء به ؛ لرجوع كل شيء إليه . ثم المعرفة كما توجب الفناء والغيبة تقتضى وجود الإيثار (١) ، والمحبة يلازمها الإيثار كما قال :

ومن أحبُّه لم يوتُّر عليه شيئًا .

[[] قلت : وذلك لأن حقيقة المحبّة (٢) أخد جمال المحبوب بحبّة القلب حتى لا يدعه لغيره في حال من أحواله ، ولذلك قيل : المحبّة الإيثارُ بدوام المحبّين (٣) . وادّعى بعض المريدين شيئًا من المحبّة فقال له أستاذه : يابي ، هل ابتلاك بغيره فآثرتَه عليه ؟ ! . وقد قال بعضهم : « أبتِ (٤) المحبة أن تستعمل مُحبأ بغير محبوبه فصاحت الغيرة لا نجد قومًا يومنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادً الله ورسوله » انتهى .

وقد ذكر المولّف في هذه المقامات الثلاث ، التي هي : المعرفة ، والفناء ، والمحبة ، عُمّد أَبواب الولاية ، فكأنه يقول : والولى الذي ذكرتُ لك أُولاً هو العارف بالله والفاني فيه والمحب له ، ومن لا يكن له نصيب من هذه كلّها فليس له في الولاية من نصيب . جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه .

ثم من لازِم المحبَّة وجودُ الشوق إلى الرؤية ، وطلب الوصلة والقربة ، وهو أمر موجود لمن عرف كمال وصف مولاه ؛ إذلا مسافة ولا علَّة ولا غيبة ، وإنما هو حجاب العزَّة بوجودِ القُربِ كما قال :

إنما حجب الحق عنك لشدَّة قربه منك .

قلت: قرب الحق سبحانه وتعالى ليس بالمداناة ، ولا بالمسافات ، ولا بالمناسبة (٥) ؛ لأن كلّها معال عايه تعالى ؛ فهو إذن قُرب إحاطة بالعلم والقدرة والإرادة . كما يلبق بجلاله وكماله ، وقد تحقّق أن قدرته وإرادته عامنا التصرّف في وجود العبد والعلم محيط به في عموم (٦) أوقاته وأحواله ، والمتصرف في الشيء بما هو به وجوده أو تمام وجوده ، أو انتظام وجوده أقرب إليه من

⁽١) وفي التيمورية (. . . والغيبة يقتضي وجودها المحبة والمحبة يلازمها الإيثار كما قال) .

⁽٢) وفي نسخة الدار (لأن حقيقة المحبة أخذ جمال المحبوب بمحبة القلب حتى لا يدعيه لغيره في مال من امواله) .

 ⁽٣) وق التيمورية (بدوام الحنين) وكذا في نسخة الدار
 (١) وفي نسخة الدار (آية المحية).

⁽ه) وفي نسخة الدار (ولا في المناسبات).

⁽٦) وفي نسخة الدار (إن قدرته وإرادته عامة والتصرف في وجود العبد محقق به في عموم أوقاته وأحواله . . . إلخ) .

وجوده (۱ والحجب للخاق إنما وقع بوجودهم أو موجودهم . ثم كلما اتسع موجودهم واتسع مظاهر النصريف استد احتجابهم باشتغالهم وذلك عين مظهر قرب الإحاطة ؛ فشدّة القُرب هي الحجاب عن القرب وعن المقرب (وَلَوْ شَاءً رَبُّكَ مَا فَعَلُوه) (۲) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُم وَلَكِنْ للحجاب عن القرب وعن المقرب (وَلَوْ شَاءً رَبُّكَ مَا فَعَلُوه) لله عنه في بعض مناجاته : « ياقريب أنت لا تبضرون) ٢٠ و بدنك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه في بعض مناجاته : « ياقريب أنت القريب وأنا المبعد . قربك منى أيناً سَنى من غيرك ، وبُعْدِي عنْك ردَّني للطلب منك ، فكن لي بفضلك حتى تمحو إرادتي بإرادتك با قوى ياعزيز » وإذا كان الأمر كما ذكر فهو أيضًا كما قال المؤلف :

استَتَر لِشَدَة ظهورد . وخفي عن الأَبصار لعظيم نوره .

قنت: يمتول: ظهور الحق سبحانه بأفعاله هو الذي يستر الخلائق عن رويته ، وذلك من ظهور نور أوصافه الذي هو أثرها المظهر لجميع الكائنات (٤) عن الروية المعنوية في هذه الدار ، وبقدر تعلّقه بها يكون انصرافه في الآخرة حسب سنة الله تعالى ؛ فشدَّة الظهور هو المانع من الروية . وقد مثلوا ذلك بمحسوس هو ضوء الشمس مع بصر الخفّاش ، ولله المثل الأعلى إذ كلما ازداد نورها ازداد عمى ، وعلى دلك قالوا: «الناظر في التوحيد كالناظر للشمس كلما ازداد نظرًا ازداد عمى » وقال بعضهم : « عين الحدث لا تنفتح لشعاع شمس الأزل ، وندرك منها في كمال وجودنا كما يدرك الخفاش من باهر الشمس . حدُّ العقول الإثبات والتنزيه ، ثم التغلب (٥) في التنزيه على موقف العجز هو محل ظهور كمال العزَّ ، ولذلك قال الصدِّيق رضي الله عنه : سبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » .

والخارج من هذا كله أن الحق سبحانه ظاهر بجلاله وكماله ظهورًا أُوجب قصور الكل عن إدراك جلاله ، فتجليه عين الحجاب عنه ، وربّك الفتاح العلم .

تنييه :

وإذا كان هو الظاهر ومُظهر الظاهر فما عنده لا يُنال بطلب ولا يدفع بسبب ، وإِنما أَمَر بالأَسباب والطلب لمحض العبودية وهذا ما نبَّه عليه وبيَّنه في .

⁽٣) آية ٨٥ من سورة الواقعة .

^(؛) وزاد فى التيمورية بعد قوله الكائنات (. . . المصرف للموجودات وبقدر مواجهة العبد بقدر انصرا فه عن الروئية المعنوية فى هذه الدار) ركذا فى نسخة الدار .

⁽٥) وفى التيمورية (ثم اتصلت في التنزيه إلى موقف العجز وهل محو ظهور . .) .

والحقيقة من عين الحكمة والحقيقة من عين الحكم !



الثواب يتعلق بالأعمال ٠٠ والآحوال بساط الكرامات ٠٠ وهما الوسائل عند الطلب ٠٠

	·		

وقال رضى الله عنه لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه .

قلت : الطلب على وجه التسبب هو أن ترى وقوع ما تريده مازوما به أو الازما له ، بحكم سنة الله تعالى على وجه الاينفك ، الأن السبب ما يازم من عدمه العدم ومن وجوده الوجود ، وذلك وإن كان يقتضيه ظاهر النصوص فباطن الحقيقة يدفعه ، وهى الأصل ، فوجب مراعاتها وتأويل النصوص بأن ذلك على وجه المقارنة والتوقيف بأن تعتقد بأن الدعاء عبودية اقترنت بسبب الحاجة كافتران الصلاة بوقتها ، ورتبت عليها الإجابة كما رتب ثواب الأعمال عليها . فالعطاء من وجه الفضل والعمل لمحض العبودية واقترانها الإظهار الحكمة ، ولذلك قال بعضهم : « فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يدية ، وإلا فالرب يفعل ما يشاء » . ووجه انتفاء الفهم باعتقاد السببية أنه إن أعطى لم يشكر وإن شكر كان شكره ضعيفًا لملاحظته سببًا في التحصيل ؛ الأن الفرح بالمنة دون استشعار سبب أقوى منه مع استشعاره وإن مَنع لم يرض ، وإن رضى فلا من حيث روية اختيار الحق تعالى ، بل من حيث روية تقصيره ، وهو نقص ، والمطلوب في ذلك ما ذكره اختيار الحق تعالى ، بل من حيث روية تقصيره ، وهو نقص ، والمطلوب في ذلك ما ذكره النقال :

وليكن طلبك لإظهار العبودية وقيامًا بحقوق الربوبية .

قلت : وهما متلازمان بل كل واحد منهما عين الآخر ؛ فالصدق في العبودية عين القيام بحقوق الربوبية وبالعكس ، لكن يختلف البساط.

:1

وعلامة (۱) الصدق على هذا الوجه ثلاث: التفويض في القصد ، والتوكّل في التوجّه ، والرضا بالواقع من عطاءٍ أو منع ؛ فيقوم بشكر العطاء ويقابل المنع بالقبول دون اعتراض ولا تردد ، وينبني ذلك على التحقق بخالص التوحيد وعقد القلب بالامتثال في كل وجه ، وكل من كان قصده الظفر عقصوده فهو بعيد ، ومن كان مقصوده بثّ شكوى فقره لمولاه فهو في محل القرب ؛ فإن أضاف لذلك قصد المناجاة بدعائه فهو أحسن ، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لا يكن حظك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك دون الفرح عناجاة مولاك ، فتكون من المحجوبين » ا ه .

⁽١) وفي التيمورية (وعلاقة العللب على هذا الوجه) وكذلك في نسخة الدار .

نم ذكر برهان ما ذكر وبيّنه بأن قال :

كيف يكرن طلبك اللاحق سببًا في عطائه السابق ؟

ورت : كبف يكون طلبك اللاحق فيا لا يزال سبباً في عطائه السابق في الأزل ذلك لا يصح أبدًا ؛ لامتحالة تقديم المتأخر وتناً خير المتقدّم ، وقد جفّ القلّم بما أنت لاق ، وفرغ ربّك من أربع : خلّق وخلّق ورزق وأجل . قال الواسطى (۱) رحمه الله : « أقسامٌ سبقت ، ونعوتٌ أجريت ، كيف تنال بأعمال أو تُكسب بسعايات » انتهى .

تُم راد المُؤلف قوَّة في البرهان وإيضاحًا لمعناه بمأن قال :

جل حكم الأَّزل أن يضاف إلى العِلل .

قلت : وذلك لأن العلل محدثة مسبوقة ، وحكم الأزل سابق غير مسبوق . وقد سئل ذوالنون رضى الله عنه عن التوحيد ، فقال : أن تعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا مزاج وصُنْعُهُ لها بلا علاج ، وعلَّة كل شيء صنعه ، ولا علَّة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ولا فى الأرضين السَّفْلَى مدبر غير الله ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » انتهى .

ومن شواهد ننى العلَّة ما جرى فى وجودك ايجادًا أَو مراداً ؛ إِذا لايصحُ أَن يكون شيءُ من ذلك عن سبب منك وهذا ما توجه ببيانه فافتتحه بـأَن قال :

عنايتهُ فيك لا لشيءٍ منك .

قلت : أراد بعنايته فيك : ما أظهر فيك من أعتنائه بشأنك إذْ أوجدك من العدم ، وأمدك بالنعم ، وحصّك بالكرم ، وعَرَّفَك بانفراده بالوحدانية ، واتّصافه بالصفات العليه ، من البقاء والقيدم إلى غير ذلك مما أنت محتاج إليه ، وهو غنى عنك فيه وفى غيره ، وذلك كلّه جار لك من غير استحقاق ولا وسيلة سابقة إذ كنت عدمًا محضًا ، ونفيًا صِرفًا كما أشار إليه إذ قال : وأبن كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته .

قلت : لم تكن شيئًا مذكورًا أولاً ولا آخرًا (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ولَمْ تَكُ شَيثًا) (٢) (ولَوْلاً نِعْمَة رَبَى لَكُنْت مِنَ المحْضرِين) (٢) قابلتك عنايته بإيجادك وإيجاد ما أنت محتاج إليه ، بل ما هو من ذلك ، وواجهتك رعايته في ذلك حتى حفظه عليك وحفظ وجودك مع ذلك إن قلت

١) الواسطى . . . هو : أبو بكر محمد بن موسى الواسطى . خرسانى الأصل من « فرغانة » . عالم كبير الشأن أقام بمرو .
 بها بعد العشرين و الثلاثمائة من الهجرة .

 ⁽۲) سورة مريم : ۹ .
 (۳) آية ۷ من سورة الصافات .

بالأعمال فلا جسم حتى يعمل ، وإن قلت بالأُحُوال فلا قلب حتى ينشأ عنه الحال ، وإن قلت لما عسى أن يكون من ذلك فأنت فقير إلى رحمته وهو غنى عنك ، فلم يبق إلا فضله وكرمه كما بينه الموَّلف إذا قال :

لم يكن في أزله إخلاص أعمال ولا وجودُ أحوال بل لم يكن إلا محض الإِفضال وعظيم النواك

قلت: يقول: الثواب يتعلَّق بالأعمال. والأحوال بساط الكرامات، وهما الوسائل عند الطلب، ولم يكونا في محل القسمة الأزلية ولا في وقتها، ولا وقت؛ فلا يصح أن يكون علَّة في شيء بل علَّة كل شيء إحسانه وكرمه، ولا علَّة ؛ وكيف يَدخل في أفعاله العلل وهو الفاعل المختار الغني عن الكل، وإذا لم يكن أزلاً إلَّا محض الإقضال وهو العطاء بلا علَّة، وعظم النوال وهو التَّفضُل بلا سبب، فلا يكون في الأزل ذلك، فيرحم الله القائل:

بلا عمل مني إليه اكتسبته سوى محض فضل لا بشيء يُعلل

وهذا يستوى فيه العباد ، لكن لهم وجوه من الاختصاص قدتتشوف النفوس لوجهها فيقح الجواب بالنظر إلى المشيئة دون علَّة . وهذا ما ذكره الموَّلف بأَن قال :

اعلم أن العباد يتشوُّقون إلى ظهور سزّ العناية فقال : يختص برحمته من يشاء .

قلت: يعنى أنه لاحجر عليه فى أفعاله ، فالتخصيص بحكم منه غير مُعلَّلِ وإن كان لحكمة فهو الموجد لها والمبدىء والمنشىء ، فلا علَّة لصنعه وعلَّة كل شيء صنعه ، وإنما يتشوّف العباد لما ذكر ؛ لوجوه ثلاث : معرفة الأشياء بأصولها ، وهى شيء جبلت النفوس على طلبه ، وتعرف الأسباب الموصلة ليتوجّه بها من أراد ذلك ، وما فى النفوس من الدعاوى الداعية لفهم أن لها قوة تتوصَّل بها لما تريده ، فردَّت لعلمه تعالى ومشيئته حتى لاتبتى لها دعوى ولاتصح لها أسباب ، ولا يجرى لها نظر فى أفعال الحق تعالى ، لكن الربوبية كما اقتضت عموم التصرّف وجب لها عموم التصريف ، وكل بحكمه لها عموم التصريف ، وكل بحكمه وحكمته كما أشار بأن قال :

وعَلَم أَنه لو خَلَّاهم وذلك لتركوا العمل اعتماداً على الأزل.

قلت : وذلك لايصح لهم من حيث الحكمة وإن صحَّ من طريق الحُكم ؛ لأن أفعال العباد مظاهرُ لمقتضيات الأسماء وآثار الصفات :

فقال إن رحمة الله قريب من المحسنين(١).

قلت : فجعل الرحمة بساط الاحسان ؛ لأن الإحسان بسبب الرحمة ، فمتى وُجد الإحسان علمنا أن الرحمة هي الموجبة له ؛ فرحمة الله هي الوسيلة إلى رحمته (٢) لاغيرها . وقد أشار نصُّ الآية وخُطُّها لذلك ؛ فإن كتبوها بالتاءِ : قيل إشارة لما دخل عليها من رائحة الفعل وهو المقدّر قبلها . أعنى قولهم التقدير : إِن وجودَ رحمة الله . والداعى لهذا التقدير وصفُ الرحمة بالتذكير في قوله «قريب» ولم يقل قريبة . فافهم . فالأعمال إذن علامات لاموجبات ، كما أشار إليه من قال في قوله نعالي (وهم يُسأَلُون) إِذْ قال يسأَلُون عن فعله فيهم ، فتأَمل ذلك . والمراد كلُّه على جمع الشريعة بالحقيقة وهو فيها ذكره المؤلف إذ قال :

إلى المشيئة يستند كل شيءٍ لأَن وقوع ما لم يشأُ محال وليست تستند هي إلى شيءٍ .

قلت : يقول الأَمر والنهي لله والأَحكام ، والأَسبابُ والفوائدُ وغيرها لايصدر شيءٌ من ذلك إِلَّا بِالمُشْيِئَةِ ، وعلى ظهور أَثْرِها نترتبِ الأَحكامِ (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلَ صَدْرَهَ ضَيِّقًا حَرَجاً . الآية)(٣) فإذن قاعدة التحقيق ليس إلَّا سابقة التوفيق ، فكل شريعة حقيقة ولاينعكس ، الشريعة مُبَيِّنة والحقيقة مُعَيِّنة ، الشريعة من عين الحكمة ، والحقيقة من عين الحكم ، وهو تعالى متَّصفٌ بالقدرة والحكمة فكلاهما وَصْفُ الربِّ ، ولكلِّ منهما متعلَّق في الوجود يتعيَّن اعتباره ، ولا يصح نفيه مقابله ، فإثبات أحدهما دون الآخر نقصٌ في النظر وخطأً في العرفان ، وزلةٌ في الإدراك ، فلزم إثباتُ الجميع لشبوتهما ، وإِلَّا فَهُو ضَلَالَ أَو قَرْيْبِ مَنْهُ (اعْمَلُوا فِكُلُّ مِيسَّرُ لِمَا خُلَقَ لَهُ) فَاعْرُفُ ذَلك وبالله التوفيق .

تنبيه : لئن كان وجه التعبّد مطلوباً بالطلب (٤) في عين التقرّب فهل التبرّي دون الطلب قد يكون أَتمَ أو مساوى لاسيَّما مع إضافته لوجه من الحقيقة ؟ .

⁽١) آية ٦٦ من سورة الأعراف.

 ⁽٢) هكذا في الأصل و لعلها : « إلى إحسانه » ويفهم من كلامه أن الرحمة و الإحسان متر ادفان في المعنى » .

⁽٣) آية ١٢٥ من سورة الأنعام .

^(؛) في التيمورية (لئن كان وجه التعبد مقصوداً بالطلب في عين النبر ي فمطلق النبري دون التعبد قد يكون إنما أو . . . إلخ) وفى نسخة الدار (إذا كان وجه التعبد مطلوباً بالطلب في عين التبرى فمطلق التبرى دون الطلب قد يكون أتم أو مساوئ لاسها . إلخ)

* الفاقة لاتكون نافعةلصاحبها الا بتحقيق العبودية* * *



* * يقول أبو يزيد رضى الله عنه: ((خزائننا مملؤة بالخسمة فان أردتنا فعليك بالمذلة والافتقار)

إذ قال :

قال رضى الله عنه : ربَّما دلَّهم الأدب على ترك الطلب .

قلت : في قوله «راما» اثبات الشيء وقسيمه بطريق التجويز فكما قد يدلُّهم الأدب على ترك الطلب قد يدلُّهم على وجوده ، وقد يدلهم على التعريض وهو بينهما ، فهى إذن ثلاثاً : طلب ، وموقفه (۱) عند جريان العوائد وملاحظة الأسباب وظهور أثر الكسب والاكتساب . وتعريض، وموقفه عند تعذر الأسباب ورجحان الحقيقة بلمعان نور المشاهدة الموجب لملاحظة العبودية في عين تعظيم الربوبية ، وسكوت : وهو عند غلبة الحقيقة ونني شواهد الخليقة . وقد وقعت هذه كلُها من أنبيائه عليهم السلام في أحوال مختلفة : هذا ابراهيم عليه السلام سأل لسان صدق في الآخرين وغيره من مصالح الدين والمدنيا ، وعرض في قوله : (الذي خلقي فهو يهدين ... إلى قوله . والذي أطمع أن يغفر لى خطبتي يوم الدين) . وقال عندما زُجَّ في المنجنيق : حسى من سؤالى علمة بحالى ؛ فلم يسأل ولم يُعرِّض ، اكتفاءً بعلمه تعالى ، وذلك عند تعذّر الأسباب وذهاب شواهد الاكتساب . وإنما يكون السكوت أدباً بشرط ذكره المؤلف إذ قال :

اعتماداً على قسمته واشتغالًا بذكره عن مسألته .

قلت: فالاعتماد على قسمته هو المثير ؛ لسكون النفس عن الطلب والاشتغال بذكره هى العبادات الواقعة بدلاً منه ، بل هى أقوى منه لنبى الحظ منها على كل حال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ٢) ، وما يُسأَل الله تعالى شيئاً أحب إليه من أن يُسأَل العفو والعافية . . الحديث) . ومن أدلّه أن الدعاء غير مطلوب لذاته ولا مقصود في ذاته ماذكره المؤلف بأن قال :

⁽١) وفى ت : وموافقة ، وكذلك فى نسخة الدارولعل الأصح : وموقعه .

⁽٢) روى البهتي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب : قال الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . وروى الترمذي وحسنه عن أبي سميد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الرب تباذك وتملى : « من شغله القرآن عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام ، كفضل الله على خلقه » وقراءة القرآن ذكر .

إنما يُذكِّر من يجوز عليه الإغفال وإنما يُنبُّه من يمكن منه الإهمال .

قلت: كما لابصح أن يكون الطلب سبباً لايصح أن يكون تذكيراً ولاتنبيهاً ؛ لأنك إن قلت بالسببية فجل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل ، وإن قلت تذكيراً ، فالتذكير للإغفال ، ولا إغفال . وإن قلت تنبيها فالتنبيه الاهمال ، ولا إهمال . وكيف يصح شيء من ذلك وهو غيى كريم رحم عالم مما قل وجل من أحوالك لاتعتريه العوارض ولا تطرأ عليه الآفات ؛ إذ ذلك كلّه عليه نعالى محال . والقصد بالجميع إنما هو إظهار الفاقة لأنها محط الفوايد والعوائد كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ا ورود الفاقات أعياد المريدين.

قلت : الفاقة شدّة الحاجة ، وهي ذاتية للعبد وإنما يرد عليه مذكراتُها ، فإذا وردت أثارت ذكرها فحصل شهودها ، وخير أوقاتك وقت تشهد فيه فاقتك ، وتردّ فيه إلى وجود زلّتك ، لأن ذلك يقطعك عن غيره ويردّك إليه ، وهو رأس الفوائد وأعياد العمر عند أهل الله تعالى ؛ لأن العيد سُمّى عيداً لأنه يعود على الناس بالأفراح ، ويعودون فيه على أهاليهم بالإنفاق . ويتكرر عليهم وجوده وتظهر على كل واحد فيه حلية غناه وكماله بالزينة وغيرها ، وكذلك الفاقة هي زيتة المريدين وقائدته (۱) ، يُفطر فيها على تمر المشاهدة من صوم المجاهدة ، وينحر نفسه بسيف التبرين والمخالفة . وفي معنى ذلك :

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه ا. فقر وصبر هما ثوباى تحتهما أخرى الملابس أن تلتى الحبيب به الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى

فقلت خلعة ساق حُبّه جرعا قلب يرى الفاقة الأعياد والجمعا يوم التزاور في الثوب الذي خلعا والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعاً

ـُ ثُم أَشَار لوجوه من فوائد الفاقة وبيان كونها أُعياد المريدين فقال :

. أُ رَبُّمَا وَجِدْتُ مِنَ المُريدُ فِي الفَّاقَاتُ مَالاَتْجِدُهُ فِي الصُّومُ والصَّلاةُ .

قلت : قد يجد في الفاقات من مزيد الإيمان والعلم والمعرفة والحقيقة مالا يجده في غيرها ؛ العبودية فيها أظهر والدعوى فيها أبعد ، والنفس فيها أقرب إلى الحق وأبعد من التكبر . سوم والصلاة تعرض لهما عوارض الدعاوى ومناقضة الشوائب من الرياء وغيرهما ، فهما

⁽١) لعلها : زينة المريد وقائدته .

يفتقران إلى التخليص والإخلاص ، بخلاف الفاقة فإنها نسلب العبد من هواه وترده لمولاد وتشغله عمّا لايعنيه بما به تولّاه ، قال في «التنوير» : «في البلايا والفاقات من أسرار الألطاف مالا يفهمه إلّا أولو البصائر ، ألم تر أن البلاء يخمد النفس ويذبلها ويُخرجها عن طلب حظوظها ، ويقع مع البلايا وجود الزلّة ومع الللّة تكون النصرة ، «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة » وفي الحديث ما يؤيده . ويحسب هذا يتعين الفرح بالفاقات ، بل طلبها كما كان حال أهل الحمم العلية ، وهو عكس مانحن عليه لضعفنا ، وإلّا فهو كما بيّنه المؤلف إذ قال :

الفاقات بُسُط المواهب .

قلت: البُسط بضم الموحدة والسين جمع بساط وهو مايجرى فيه الشيء ويظهر عنده ، والمراد بالمواهب هنا ماهو أعم من الفتوحات العرفانية ويظهر لما ذكر قوله تعالى (أمن يحيب الصطر إذا دعاه ويكشف السوة ويجعلكم خلفاء الأرض . الآية) . وقد قال أبو يزيد رضى الله عنه : «خزائننا مملوءة بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالللّة والافتقار» . وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر الكيلاني ، رضى الله عنه : «أتيت جميع أبواب الحق فوجدت عليها الازدحام حيى إذا أتيت باب الذلّة والافتقار فوجدته خالياً ، فدخلت منه فالتفت فإذا أنا قد سبقت القوم وتركت الناس يزدحمون على الأبواب ؟ انتهى معناه . وقد أنشدوا في معيى ذلك :

لايبعدنك عتبنا عن بابنا فالعهد باق والوداد مصان وبحسننا وبلطفنا وبجاهنا شاع الحديث وسارت الركبان فإذا ذللت لعزنا ولجاهنا ذلّت لعزنك الملوك وهانوا.

وقد تقدَّم من نوع هذا الكلام عند قوله (إذا فَتح لك وجهة من التعرَّفُ فلا تبالى معها أن قلَّ عملك).

واعلم أن الفاقة لاتكون نافعة لصاحبها إلا بتحقيق العبودية . ذلك في أربعة أشياء : الرضا بالواقع ن غير تبرم ولا اعتراض ، والقيام بالحقوق المطلوبة في ذلك من عبادة وغيرها ، والفرار من النفس ودعاويا(١) بل من دعاوي(٢) المخلق كلهم في ذلك بالانحياش إلى الله تعالى ، والإقبال على الله باللجوء إليه وإظهار ما أذت عليه من فاقة وافتقار ؛ لامن حيث ماتحتاج بل من

⁽١) وفى التيمورية : ودواعيها . وكذا نسخة الدار .

⁽٢) وفي التيمودية (يل ومن الحلق كلهم) .

حيث (١) احتباجُك وافتقارُك ، كما أشار إليه قول موسى عليه السلام (ربّ إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) فذكر فقره لاحاجته ، واحتباجه لامطلبه (٢). وأصل ذلك كله تصحيح الفاقة ، لاوجودُها كما نبه عليه إذ قال :

إذا أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك .

قلت : تصحيح الفعر والفاقة بمعنى تأكيدهما فى النفس حتى يكون ثبوتُهُما مستشعراً فى عموم الأوقات والحالات ، وإلا فهما ثابتان لوجودك بنفس وجودك ؛ إذ فاقتك لك ذاتية . ويتحقق لك ذلك بثلاث : تقدير عدمك ، واستشعار وتتبع ذلك بالتفصيل فى شواهد أحوالك إذ مامن حركة ولاسكنة إلاوهى مشاهدة (٣) بذلك ، فمن تتبعه وجده فانتفع ، ومن أهمله غفل فاندفع ، وقد يبعد الإجمال فى محل التفصيل كما يثبت التفصيل فى محل الإجمال . ثم استشهد لما ذكر بآية الصدقة فقال :

إنما الصدقات للفقراء .

قلت : فمن صح فقره استحق الصدقة هذا ظاهر الحكم شرعاً وإشارته في محل الحقيقة جارية كذلك ، قال بعضهم : "إلهى قد صح إفلاسنا من طاعتك فمن أحق منا بصدقات عَفْوك» ، وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : وتصحيح العبودية ملازمة (ئ الفقر والعجز والذل والضعف لله تعالى ، وأضدادُها أوصاف الربوبية فمالك ولها ، فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه وقل من بساط الضعف الحقيق : ياقوى من للعاجز سواك ، ومن بساط الفقر الحقيق : ياغى من للفقير سواك ، ومن بساط الله المحقيق : ياقدير من للعاجز سواك ، ومن بساط الله مع الحقيق : ياخي من للفقير شواك ، ومن بساط الهم المحقيق : ياخي من للفقير شواك ، ومن بساط الهم المحقيق : ياقدير من للعاجز المالة واصبروا إن الله مع الحقيق : ياخرين » انتهى على تأخير وتقديم في ألفاظه ، وهو معنى ماذكره المؤلف إذ قال :

تَحقَّق بـأوصافك يَمُدك بـأوصافِه .

⁽١) وفى التيمورية (وإظهار ما أنت عليه من فاقة وافتقار لا من حيث افتقارك واحتياجك كما أشار إليه . . . إلخ) وفي نسخة الدار لا من حيث ما يحتاج .

⁽٢) وفي التيمورية (فذكر فقره لا لحاجته واحتياجه و لا لمطلبه و لعل ذلك كله) . . وفي نسخة الدار (فذكره فقره لا حتياجه لا لمطلبه) .

⁽٣) وفى التيمورية (شاهدة) .

⁽٤) وفي التيمورية (بملازمة) وكذا في نسخة الدار .

قلت : وذلك أن إقرارك بالعجز والفقر والذل والضعف يُرجعك إليه فتصير قادراً به ، غنياً به ، عزيزاً به ، قوياً به ، فيعودُ فقرُك غنى ، وعجزك قدرة وضعفُك قوة وذلك عزاً ؛ لأنك في محل الاضطرار وهو يُجيب المضطر إذا دعاه ، وفي مقام الرضا والصبر وهو مع الصابرين . فافهم ثم . ذكر المؤلف التفصيل فقال :

تَحقَّق بِذُلَّكُ يُمدك بعزْه

قلت : حتى لايكون عزُّ في الوجود إِلَّا بك وعن تغتزُّ ١٠ به

تحقُّق بعجزك يمدك بقدرته .

قلت : حتى تصير قُدرةُ القادرين من الخلق عجزًا في قدرتك .

تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته .

قلت : حتى يكون كلُّ شيء ضعيفاً في قوتك بحيث لا يُعازُّك أَحدُ إِلَّا أَذلَه الله ، ولا يغالبك أحد إلا أُعجزه الله ، ولا يقاويك أحدُ إلا أوهنه الله ، فالتحقيق بالأوصاف : بساط الكرامة عاجلاً بظهور التصرّف والخدمة والحرمة ، وآجلاً بثبوت الرحمة والنعمة . وذلك لا يدل على كمال الاستقامة وإن دلً على الاختصاص .

⁽١) وفي التيمورية (وبمن تعززت بعزته) .

		,	
	•		



يقول أبو العباس المرسى رضى الله عنه ((الولى يكون مشحونا بالعلم • • والحقـــائق لديه مشهودة حتى الذا أعطى العبارة كان كالاذن من الله تعالى له في الكلام)) •

وقال رضى الله عنه : ربِّما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة .

قلت: الكرامة أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدى ، ولا خال عن الاستقامة ، ولا مستند للأسباب ، يُظهره الله تعلى على من أراد اختصاصه من أهل طاعته في البداية أو في النهاية ، أو بينهما ، فهى تدل على اختصاص صاحبها لا على استقامته ، فيتعيّن تعظيمه واحترامه ، لا تقديمه واتباعه ، إلا أن يظهر عليه كمال الاستقامة ، وهى : الاستواة في انباع الحق ظاهرا وباطنًا على منهج السداد بلا علّة ، فهى إذن توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص بلا التفات ، ويقين بلا تردد ،وتوكّل بلا وَهَن (١) ، مُلازمها واصلٌ قطعًا ، فهى الكرامة الحقيقية لا غيرها ، وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذل رضى الله عنه : « إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان عزيد الإيقان وشهود العبان ، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبدٌ مفتر كذّاب ، مُعْتَرٌ ذو خطاً في العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل بشتاق إلى سياسة الدواب وخِلَع الرضي » . وقال « وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله فصاحبها إلى سياسة الدواب وخِلَع الرضي » . وقال « وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور » انتهى وهو عجيب نافع إن شاء الله .

والحاصل أن ظهور الكرامة وإن دلَّ على الاستقامة فلا يدل على كمالها ، فلا يعترر بها إلَّا مخدوع ، ولا يُهمل فضل الله فيها إلا مغرور ، فلزم التحقق والتحقيق ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال : من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامتُه إيَّاك فيه مع حصول النتائج

قلت: فعلامة إقامة العبد في الكرامة إدامة جريانها عليه مع حصول نتائجها وهي ثلاثة: وقوع الهداية بإنهاض النفس ، وعلو الهمّة بالتعلّق بالمعاني (٢٠) ، وكمال المعرفة بتحقق اليقين ، والرضا عن الله في كل وقت وعلى كلّ حال ؛ فقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعلى بالعلم والقدرة والإرادة ، والصفات الأزلية بجمع لا يفترق وأمر لا ينفك كأنها صفة واحدة قامّة بذات الواحد يستوى من تعرّف الله إليه بنوره ،

⁽١) وزاد في التيمورية (وتعلق بلا تردد واستسلام بلا منازعة وتفويض بلا تدبير)

⁽٢) رني نسخة ۽ بالماناة ,

ومن تعرّف إليه بفعله » (١) فهي إذن تفتح لليقين سببًا ، وتُرى المريد عجبًا ، وتُورث العارف أَدبًا ، فإن لم يكن شيء من ذلك خيف على صاحبها السلب والحرمان ؛ لأنه يرى نفسه فيها ومها فيهلك ، ثم حكم إخفامً إظهار (٢) على حسب بساطها وذلك ما بيَّنه الموَّلف إذ قال :

من عَبَّر من بساط إحسانه أَصْمَتَتُه الإِساءَة مع ربِّه ، ومن عبَّر من بساط إحسنانِ الله إليه لم يصمت إذا أساء .

قلت : في بعض النسخ «عبر » بالتشديد ، من التعبير ، وهو المناسب لقوله «أصمتته » . وفى بعضها بالتخفيف من العبور وهو الدخول ، وعليه فكأنه يقول : من دخل حضرة الحقِّ ناظرًا لنفسه إذا أراد أن يظهر ما جرى له من الكرامات وغيرها ناداه منادى الحقيقة : تذكّر كرامتك ، ولا تذكر ذلَّتك ! فيقف عند حدّه ، ويفرّ مما بداله عِوضًا من فرحة به فيكون حاله قبضًا في قبض ، وكمَّامًا في كمَّان ، وسترًا في ستر ، وهذا حال الزهاد والعبَّادِ وأهل الطاعة والأُوراد ممن لم يحظ بالمعرفة ولا تُبرّ أمن نفسه ، فأنَّما من دخل ناظرًا لإحسان مولاه ، عاملاً على ما به يتولَّاه ، راجعًا إليه فيما منَّ به عليه وأولاه ، فذلك الذي ينطلق لسانه ويسترسل بالإظهار بيانه ، فلا يحتشم عند التعبير ، ولا يبالي بما هو فيه من جليل وحقير ، إذ يرى نفسه منعدمًا من البّين ، ويشاهد تعريف الحق له كروِّية العين ، وعلى هذا يجرى قولهم « من عرف الله انطلق لسانه » (٣) وقد يكون لهما معنى غير ذلك ، فمن ها هنا اختلفت طرق الناس في الإِظهار والإِخفاء والقبول والتبرّي ، والفرار ، والفرح ، وقد يتعاقب ذلك على الشخص الواحد . والله أعلم .

تم التعبير تارة يكون على حقيقته (١) بلا تحقق ، وهو حال العلماء وأهل البداية ، فهو يهيد العلمَ والفهم دون التأثير . وتارة يكون عن تحقق وتمكن ، وهو حال أهل المعرفة والكمال ، فيفيد التُّأتير والانفعال . وهذا الذي نبُّه عليه الموَّلف إذ قال :

نسبق أَنوارُ الحكماءَ أَقوالَهم فحيث صار التنوير وصل التعبير .

قلت : أنوار الحكماء هي الظلال الواقعة في صدورهم من معاني ما فتح لهم من النحكمة ، التي هي : إصابة الحق في القول والعمل ، فهي تسبق إلى قاومهم ثم ينطقون عما يناسبها على حسب

⁽١) وفي التيمورية (. . . كأنهما صيغة و احدة قائمة بذات الواحد هل يستوى من تعريف إلى الله بتنور ، وتمن تعرف إليه بعقله؟)

 ⁽۲) وفي التيمورية (ثم حكم أخفائها وإظهارا على حسب بساطها).
 (۳) وزاد في التيمورية بعدوه الثلق اسافه (وعلى الأول بجرى قوطم من عرف الله "كل لسانه)

⁽٤) وفي ت (. . . عن حقيقة) .

حالهم منها ، فتصل إلى قلوب السامعين على حسب ذلك ، فحيث صار التنوير من قلوبهم وصل التعبير من قلوب غيرهم ، فمن كان نطقه عن نور تام أفاد المخاطب نورا تاماً ، ومن كان عن ناقص فعن ناقص، ومن كان عن هوى فهو كذلك ؛ لأن ما خرج من القلب دخل القلب وما قصر على اللسان لم يجاوز الآذان ، ثم إذا وصل القلب وعرفه لم عنعه من التمكين إلا جحود أو ضلال كحال الكفار إذا أقروا بالحقيقة ولم يصدِّقوا بها جحودًا وعنادا . حى كانوا يجعلون أصابعهم في آذابهم ، ويستغشون ثيابهم خوفاً من تمكنها لاستجلابها ، وقد ذكر المؤلف سِرُّ ذلك بأن قال :

كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز

قلت : سواء كان ذلك الكلام عاديًا أو شرعيًا أو غيره ؛ لأن الألفاظ حلية المعانى والمعانى والمعانى والمعانى والمعانى والمية وما برز من بساط ظهر أثره فيه . والناس ثلاثة : متكلم مجموع ، ومتكلّم مسموع ، ومتكلّم مدفوع ؛ فالمجموع هو الذى تنفع إشارته وتفيد عبارته ، والمسموع هو الذى تُسْتَحلى عبارته وتفهم إشارته ، والمدفوع هو الذى تمجّه الأسماع ولا يحصل به الانتفاع . وقد أشار المولّف إلى الأول والثانى بأن قال :

مَنْ أَذِن له في التعبير فُهمت في مسامع النخلق عبارته وجلَّيت إليهم إشارته .

قلت: يقول علامة كلام المأذون له أن يكون مفهوما مقبولًا محلاً مجلاً محبباً ؛ إذ قلا اختلفت النسخ ؛ فني نسخة «وحليت » بالحاء واللام بعدها باء من التحلية ، وفي نسخة بالجيم كذلك ، من « التجل » وهو الإظهار ، وفي نسخة بحاء وموحدة من المحبة ، وكذلك كان كلام الأنبياء عليهم السلام إذ لم ينكره أحد من حيث ذاته ، بل أقروا بحسنه وصرحوا بكماله وأنكروا حقيقته جحدًا وعنادًا ؛ إذ قالوا : أساطير الأولين ، وقالوا إنما يعلمه بشر ، وهذا سحر مبين ، وسحر مستمر ، وسحر يوثر . إلى غير ذلك . والإذن عبارة عن إحدى ثلاثة أوجه : عادى ، وشرعى ، وذوقى ، فالعادى التيسير والفيضان ، والشرعى نعلق الأمر الشرعى به وجوبًا أو ندبًا ، واللوق ومرجعه لانطلاق اللسان دون احتشام ولا تتبع . . قال أبو العباس المرسى رضى الله عنه : « الولى يكون مشحونًا بالعلم ، والحقائق لديه مشهودة حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن من الله تعالى له في الكلام » انتهى . ثم ذكر علامة تخلّف الإذن في التعبير وأبان عنه مأن قال :

ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يوَّذن لك فيها بالإِظهار :

قلت: الحقائق ما يقع من نكت الإلهام بالأمور العرفانية بالقلب ويتمكن منها ، ولها صورة في النفس وعبارة في الخارج ، إذا تم نورها ظهر في الباطن والظاهر ، والعبارة من نورها ما يشهد لصاحبها بالتحقق ، ثم إذا أذن له في التعبير عنه برزت بكسوة الأنوار وهداية الإستبصار ، وإلا ظهرت بنعوت الظلمة كأنها شمس اعتراها كسوف لا تكاد تُقبل لثقلها ولا تُفهم لبعدها ، ولا تُسمع لامتجاجها . قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : «كلام المأذون له يخرج وعليه حلاوة وطلاوة وكسوة ، وكلام اللذي لم يودن له يخرج مكسوف الأنوار ، حتى أن الرجلين اليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر » انتهى وربهما قبلت من الشخص لواحد في وقت واحد وخطاب لواحد في وقت واحد وخطاب واحد ، وما ذلك إلاً لاختلاف الإذن بحسب الأوقات والحالات والأشخاص . ثم ذكر الحامل على عبارة المأذون له دون غيره من وجد صادق أو قصد هداية وبينه بأن قال :

عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد :

قلت: فيضان الوجد غلبته وإتيانه بصفة من القهر لا يمكن معها المالك طربًا أو غيرة، والوجدُ: وقع الحقيقة في القلب على وجه يقع به استغراقه فيا وقع عليه ولا يصح معه المالك في كمّان الواقع غالبًا، وهداية المريد: إرشاده لما به صلاح حاله من أحد ثلاثة أمور: خروج من حيْرة في ذوقه أو استراحة في شوقه، أو ترق له في همّته أو عمله أو حالته. وقيضانُ الوجد إنما يكون من ضعيف كما أن الإرشاد لا يقع إلّامن قوى ؛ لأن مقصد الكلّ الكمّان، وهو لازم لوجوه ثلاثة: فرارًا من التلوين بالظهور، وغيْرة على أسرار الحق أن تكون مبتذلة، وتحقيقًا للهداية بالفرار من منعصات ومشوشات القلب، كما يشير إليه بقوله بَعْد (لا ينبغي للسالك أن يُعبر عن وارداته) وليس هذا خاصًا بالتعبير، بل إظهارًا لكرامات كذلك، ولكل طريق فريق بَينَهم المولف بأن قال:

فَالْأُوَّلُ حَالَ السَّالَكِينِ ، والثَّاني حَالَ أُربَّابِ المُكْنَّةَ والمتحققين :

قلت : وذلك لأن السالك تغلبه أحواله ولا يتمالك وليس من أهل القدوة قلت حتى يحتاج لأن مهدى غيره ، بل شُغلُه بنفسه وقلبه قد صرفه عن التوجيه لغيره فضلا عن الاشتغال مهدايته ،

والمتمكن قد غَلَبَ على حاله وحَكَمَ على حقائقه ، وفرغ من تهذيب نفسه فتفرغ لهداية غيره فصار ذلك واجبًا عليه أو مندوبًا له ، ثم هو لم يجب عليه إلّا بعد الأمر به . والمكنة : المتمكن في المعرفة ، وحصول المكانة فيها بحيث لا توثّر فيه عوارضُ التقلّب وإن عارضته ، وذلك لتحقق القلب والسرّ والروح بما هو فيه من حاله الذي يبديه ، ثم يتعيّن على المكنة عند قصد الهداية أن يراعي في تعبيره حق نفسه وحق المخاطب ، وحقوق عامّة أهل الطريق ، وغيرهم إن وسعه ذلك ؛ فأمًا حق نفسه بأن لا يعبّر إلّا عن ما هو متمكن فيه ومتحقّق به ، وأمًا حق المخاطب : بأن يأتيه بذلك على قدر حاله وذوقه وفهمه وعلمه ، دون اتّساع ولا ضيق (١٦) ، لينتفع به ، وإلّا تشتت في التوسع وخرج في الضيق . وأمًّا حق الغير : بأن يعبّر عبارة تفيد العام في عمومه ، ولا تدفع الخاص عن خصوصه وتكون سالة من الإبهام والإبهام حتى لا يقع إنكار ولا اعتراض . وأمًّا المريد فلا يتقيد ؛ لأن حاله حاكم عليه . ثم التفصيل من العبارة على قدر الحالة ، وهذا ما ذكره بأن قال :

العبارات قُوتُ لعائلة المستمعين:

يقول: المستمعون للحقائق وغيرهاعيال على المتكلّم فيها، وهي أقواتهم منه، لأنهم يطلبونها لقوام المعانى كما يطلبونها (٢) لقوام الأبدان، وينتفعون بها فى نفوسهم كما ينتفعون بالقوت فى أبدانهم، ويتفاوتون فى الانتفاع والتحصيل بها كما يتفاوتون فى أقواتهم انتفاعاً وتحصيلاً، فينبغى أن يراعى حقّهم فى ذلك بتهذيبه وترتيبه وتقريبه حيى تسوغه قلوبهم وتدركه عقولهم ولاينال لأحد منهم مايضره فى حال ولامآل، ولذلك بهى عن التّفيهي فى الكلام وتكلّف السجع وغيره، فتأمل ذلك. ثم قال:

ليس لك إلَّا ما أنت له آكل:

قلت : يحتمل أن يكون المخاطب في كلامه المعبّر ، ويحتمل أن يريد المعبّر له . والخارج في ذلك ثلاث تأويلات : أحدها : لبس لك إلا ما انتفعت به فلا نشتغل بنفع أحد إلّا بعد انتفاعك . الثانى : لبس لك إلّا ما يليق بك فاحرص على تحصيل (٣) مايليق بغيرك ؛ فلا تشغل

⁽١) وفى ت (ولا تضييق).

⁽۲) وفی ت (کما یطلبونه) .

⁽٣) وفي التيمورية (فاحرص علي تحصيله لا ما يليق بغيرك فلا تشتغل بنفع أحد إلا بعد انتفاعك فلا تشتغل بما هو أجنبي .عنك)

نفسك عا هوعنك أجنى . الثالث: ليس للك إلا ماسمعته فأثره (١) فيك ، لا ما تأثّر به غيرك . فإذا عرفت ذلك في جهة فالزمها فإن فتحك منها . قال في «لطائف المنن» : وإنما يكون الافتداء بشيخ دلّك الله عليه وأشهدك ما أودعه من الخصوصية لديه ، ثم ذكر أمره إلى أن قال : «وليس شيخك من سمعت منه ، إنما شيخك من أخذت عنه ، قلت وليس شيخك من واجهتك عبارته ، إنما شيخك الذي سرت فيك أشراقه (٢) ، ليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب ، ليس شيخك من واجهك مقاله ، إنما شيخك الذي نهض بك حاله ، شيخك : الذي خرج بك من سجن الهوى و دخل بك على المولى، شيخك الذي مازال يجلو مرآة قلبك حتى المذى خرج بك من سجن الهوى و دخل بك على المولى، شيخك الذي مازال يجلو مرآة قلبك حتى محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك في نور الحضرة وقال : ها أنت وربّك » .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : «الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرى بالتعظيم (٣)، الشيخ من هذّبك بأخلاقه وأدّبك بأطراقه ، وأنار باطنك بإشراقه ، الشيخ من جمعك في حضوره، وحفظك في مغيبه انتهى .

وكما يتعين على السامع ماقلناه يتعيَّن على المُلَقِي أن يختار لكل سامع مايليق به ؛ فلاَّهل الغفلة الوعظ والتذكير ، ولاَّهل الإِرادة الأَحوال . ولاَّهل المعرفة الحقائق ، وكل يعبر عن بساط حاله من نقص أوكمال ذكره بأن قال :

ربُّما عبر عن المقام من استشرفَ عليه ، وربَّما عبَّر عنه من وصل إليه.

قلت : مقصود هذا الكلام أن التعبير عن المقام لايفيد كون المعبِّر محققاً به ولا واصلاً إليه ، بل كونه مستشرفاً عليه ، فإمًا بزيادة وصوله إليه ، وإمًّا مجرداً عن ذلك . والفرق بين الحالين غامض إلَّا ببصيرة نافذة ، وتأييد ربَّاني ينشأً عن تحقق وتحقيق كما قال :

⁽١) وفى ت (فأثر) .

⁽٢) وفي التيمورية : الذي ظهرت لك إشارته .

⁽٣) وفى التيمورية (الشيخ من شهدت له ذاته بالتقديم و سرك بالتعظيم) .

وذلك مُلتبس إلا على صاحب بصيرة .

قلت : يعنى مُشتبه ومختلط لايميّزه إلا صاحب بصيرة نافذة تنظر بنور الهى فتدرك هذه من هذه ، لكن لكل شيء علامة يعرف بها ، فعلامة المتمكّن من الحقيقة الواصل إليها ثلاث : سريانها فى كلِّيته فيحظى بها كلَّ شيء من ذاته ظاهراً وباطناً ، سراً وعلانية . وجريان أفعاله ومعاملاته على مقتضاها دون احتياج لأسباب ولاغيرها . وتأثر السامع بها على قدره فلا يمجّها سامع ولا يستثقلها وإن لم يظهر فيه قبولها والعمل بها . وعلامة المعبِّر عن إشراف ، ثلاث : اهتزاز ذاته فرحاً عند التعبير ، وقصوره فى الإخبار عن المعنى الجامع المحيط والاحتياج للأسباب والمعونات فى تحصيلها فى ذاته وتوصيلها لغيره كما تقدم عند قوله «تسبق أنوار الحكماء أقوالَهم » فتأمل ذلك .

وإذا كان الأمر ملتبساً والتعبير مُضِّراً فالتماسك أولى . وعلى كونه مضراً بالمبتدى و نبّه إذ قال : لاينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته .

قلت : يعنى قبل تمكُّنه من الحقيقة واستيفائه موجبات الطريقة ؛ فإن شأن المريد شغله بنفسه ، ومتى عبَّر فقد اشتغل بغيره ، وذلك يُشوّش عليه حاله ويوجب نقصه كما قال :

فإِن ذلك مما يقل عملها في قلبه ويمنعه وجودَ الصدق مع ربّه.

قلت : أما قلّة عملها فى قلبه فإنها إذا بقيت فى باطنه تردد معناها فى نفسه تردداً يقتضى إرتسامها فى المخيال ، ثم لايزال كذلك حتى يصير ملازماً لايفارق ، ثم لايزال حتى ينطبع فيها وتنصبغ بها الحقيقة ، وإذا خرجت من القلب صارت لها صورة فى الخارج فأوجبت حديث النفس عا ينشأ عنها وما يجرى بسببها فلا تؤثّر شيئاً ، وأما منعها وجود الصدق ، فلأنها تثير ثلاثة أشياة : الفرح بها ، وهو حظٌ نفسانى ، واستشعار المزيّة ، وهو أعظم ، وتعظيم المخلائق وهو بساط الرياء والتصنّع . وقد ذكر الشيخ حكمتين : قلّة عملها ، ومنعها الصدق ، وبتى ثالث ، وهو الحرمان من التحقّق بها ؛ لأن المريد إذا تكلّم صاحب علم لاصاحب حال . وقد قال الشيخ أبو العباس

ابن العريف رضى الله عنه : "إن الحكمة إذا بطنت خصّت أهلها فدامت ونفعت ، وإذا ظهرت عموماً أنكرها من لبس من أهلها فانقطعت وارتفعت ، وفيها ظهر من الحجة كفاية لتعريف المحجة » انتهى . ثم من دعاوى التعبير طلب المنزلة في قلوب الخلق ، وذلك من التشوُّف لما عندهم وقطعُ ذلك بالنظر إلى الحق سبحانه فيما يُجريه على أيديهم كما قال :

لاتمدنُّ يدك إِلَى الأَّخذ من الخلائق حتى ترى أَن المعطى فيهم مولاك :

قلت : فأنت بعزل عنهم في عين التوجّه إليهم ، وسواءٌ كان الأُخذ منهم بسببٍ وبلا سبب فلابد من هذا الشرط ، فقد قال يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : « من استفتح باب المعاشر بغير مفاتيح الأُقدار وُكِلَ إِلَى المخلوقين . . » انتهى .

وعلامة التحقق في ذلك ثلاث: عدم حصر الجهات بترك الإشراف والتشوفات ، وسقوط الحرص في عموم الأوقات والحالات حتى لايصده الرزق عن مندوب ولا محبوب ، والتمسك بالحق في كل وقت وحال بحيث لايترخص بوجه غير مستقيم ، ولا يقابل الخلق بقلب سقيم ، فلا يذم مُعطياً ولا مانعاً ، ولا عدحهما إلّا من حيث أمر الله فيهما مع اقتصاره في ذلك عن المبالغة والميل في الطريق (١) فهذه الشروط الباطنة ، وقد جمعها مع الظاهرة بأن قال :

فإن كنت كذلك فخذ ماوافق العلم .

قلت: فإن كنت معقود القلب بالحقيقة كما ذكرنا فلاتهمل الشريعة ، بل خُذ من الله ما أُجرى على أيديهم مما وافقك العلم على أخذه وهو الحلال الطيِّب المصحوبُ بالورع أو المدَّفق عليه عند أثمة الفتوى ، أو الراجح عند إمامك أو غيره عند الضرورة . ومرجع ذلك كلِّه لفقه النفس فَعادل العلم بالحكم الأصلى وقد قال الشيخ أبو اسحق الجبنياني رحمه الله: « اكتسب بالعلم ، وكل بالورع » . وهي رخصة عظيمة . وبالله التوفيق . ثم ذكر المؤلف رحمه الله حال العارف في همته ليكون أسوة لمن سلك طريقه فقال :

ربما استحيى العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لايستحى أن يرفع منه.

١) وفي ت (والميل في الطرفين) . ﴿ ﴿ ﴿ ﴾ ۗ وَفِي تُ ﴿ فَعَادُ . . . ﴾ .

قلت: كل هذا علوّ همّه وتعظيم الربوبية ، ومن دُمّ جاء أن «علو الهمة من الإيمان » وأحسن ما يحكى فى ذلك قول بشر رحمه الله له لى بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام: «ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً للثواب. فقال على كرّم الله وجهه: وأحسن من ذلك تبه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله » قال التسترى (١) ، رحمه الله : « وأكبر من ذلك همّة العارفين تتلاشى فيها جميع المخلوقات فضلاً عن المقدورات » انتهى . والنقل فى هذا الباب كثير . وقد أشبع منه فى التنبيه فانظره .

تنبيه : لمَّا كان القبول والردِّ محل الالتباس ، وكذا أعمال (٢) الأسباب وعدمها .

⁽١) وفي ت (القشيرى) .

⁽٢) وفي ت (وكذا أسباب الأعمال)

•

-

ﷺ نحت الجبال بالأظافر ايسر من زوال الهوى اذا تمكن!



جنات المطيع ثلاثة: ((جنة المعاملة ٠٠ بعظم السنة ٠٠ وجنة الفتوح بظهور الكرامة ٠٠ والجنة العسية في الدار الآخرة)

قال رضي الله عنه إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه.

قلت : التبس : اشتبه واختلط ، والمراد (بالأمرين) أمران واجبان أو مندوبان أو مباحان أو مكروهان . لا مندوحة عنهما ولا أرجحية لأحدهما على الآخر ، ولا يمكن الجمع بينهما : كَبِر أحد الأبوين لمخالفته الآخر ، وحضور جنازتين لتساويين فى الحق ، وأخذ هدية أو تركها لن يتغيّر بالرد ولايُسر بالقبول ، والخمول بدلاً من وقوع الجاه المخوف فى المآل . وثقل الشيء على النفس على ثلاثة أوجه : ثقل من جهة الحقيقة ، وثقل من جهة المغنى ، وثقل من جهة الطبع . وهو المعتبر هنا وله علامات ثلاث : العجلة ، والأمن ، وعمى العاقبة ، فإذا توجّهت لشيء لاتعرف له مادة فى الأحكام ترجّح فيه الترك من الفعل ، فإن كان مع أمن لامع خوف ، ومع عجلة لامع تمان ، ومع عمى العاقبة لامع بصارة العاقبة فاعلم أن خفّته على النفس من هواها ، وإن ثقل عليها مع كزازة وطيش وعمى عاقبته كذلك . وعليه يتنزل كلام المؤان أولاً وآخراً بما ذكر فوقه ، ثم قال :

فإنه لايثقل عليها إلَّا ماكان حقاً.

⁽١) وفي التيمورية (النفوس الأمارة).

والحق عليها أَثْقَل من ثقيل فهى أُجرأُ فى لزوم الفراغ(١) من مواطن ميلها ، ويُستعان عليها بقصد المخالفة أبداً . وبالله التوفيق .

وماذكر فى «لطائف المنن» من ميزان الموت يليق فيه تحقيق ذلك على النفس حتى كأنه واقع ، ثم هذا يجرى فى موقف الأحكام لاغير ، والله أعلم . ثم إذا ترجّح شيءٌ بالشرع وجب ترجيحه وكان العدول عنه هوى كما قال :

من علامات اتُّباع الهوى المسارعةُ إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات

قلت: الحوى: الميل للأغراض النفسانية ، واتباعه: العمل على مقتضاه ، فالإقبال والإدبار من غير مبالاة بالشرع وإنما تسرع النفس للنوافل مع عدم القيام بحقوق الواجب لما تعتقده في ذلك من استعجال الفتح ، وأنه لايكون بالمألوف بل بالمستغربات وقد عدّ ذلك المشايخ من أعظم العبوب والآفات ؛ فقد قال بعضهم: من كانت النوافل أهم عليه من الفرائض فهو مخدوع. وقد قال محمد بن أبي الورد ، رضى الله عنه: هلاك الخلق في حرفين: اشتغال بنافلة ، وتضييع فريضة ، وعمل الجوارح بلامواطأة القلب . وإنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول ، وقال ابراهيم الخواص (٢) رضى الله عنه: إن الله لا يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة المحق انتهى.

فإذن الأَهم على العبد إقامة الفرائض ، ثم القيام بالسنن ، ثم الإِتيان عا تَيسَّر من النوافل . وإقامة الفرائض بثلاث : وجود الصدق فيها ، والقيام بلوازمها وآدابها ، ورؤية المنة لله سبحانه في وجودها ، إذ قد أعاننا مولانا على ذلك بتقليلها وتقصيرها وتقييدها بالأوقات ، وتوسيع أوقاتها وتلوينها .

وقد ذكر المؤلف هذه الخمس في هذا الكتاب بنوع من بيان المنّة ؛ فأما الأولين والاخرين في آخر باب : (لا يستحقر الورد إلَّا جهول) فانظره هناك . وأما التوسيع والتقييد فقال فيه : قيّد الطاعات بأنواع الأوقات كي لا يمنعك عنها وجود التسويف ووسع الوقت عليك كي

يُبْقِي لك حصةً في الاختيار .

⁽١) وفى التيمورية (فهى أحرى بلزوم الفرار من مواطن . .) .

⁽٢) هو : أبو اسحق إبراهيم بن أحمد الحواص . من أقران الجنيد . له في ال باضات حظ كبير مات بالري سنة ٢٩١ ه ,

قلت: فذكر فى الوجهين نعمتين عظيمتين معينتين على اتباع الحق ومراقبة الأوقات والطاعات التى بها يتوصل إلى عظم الثواب وحسن المآب. وفى ننى التسويف كرامات ثلاث: مبادرة الأمر، ومراقبة الذكر، وعمارة السر. وفى بقاء جهة الاختيار ثلاث كرامات: التوسعة بدلامن الضيق، وظهور النسبة باختيارك لنفسك، وانشراح الصدر للعبادة، وفيها لامكان (١) التفرق بها، وفي ذلك حجة على التارك والمجانب لاخفاء به على متأمل (٢).

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: «الاتؤخر طاعة وقت بوقت وقت سهماً من بفوتها أو بفوت غيرها أو مثلها جزاءً لما كفر من نعمة ذلك الوقت ، فإن لكل وقت سهماً من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية ».

قال : فقلت فى نفسى : قد أخر الصديق الوتر إلى آخر الليل ؛ فإذا على بصوت فى النوم : تلك عادة جارية ، وسُنَّة ثابتة ، ألزمه الله إباها مع المحافظة عليها ، فَأَنَّى لك بها مع الميل إلى الراحة ، والتمتع بالشهوات والدخول فى أنواع المخالفات والغفلة عن المشاهدات .. هيهات .. هيهات » انتهى فتأمله . ذكر حكمة الإيجاب فقال :

عَلَم قَلَّة نهوض العباد إلى معاملته فأُوجب عليهم وجود طاعته .

قلت : يقول : لمّا علم الحق سبحانه أن من نهض لمعاملته دون تنبيه ولا تأكيد من العباد قليل ، وأن أكثر الخلق إنما يتبعون الهوى أو يشتغلون بدنيا ونحوها عزم لهم بالإيجاب ليكون محجةً للعاقل وحجة على الغافل ، فلزمهم ذلك طوق أعناقهم كالسلاسل ، وهذا ما نبّه عليه إذ قال :

فساقهم إليها بسلاسل الإِيجاب. ..

قلت : استعار السلاسل للإيجاب ؛ لمناسبته لها من وجوه ثلاثة : عدم الانفكاك بكل حال ، وكونها قائدة أو سائقة لما يراد كرها لمن أباه طوعاً ، وتوصيلها لعين المراد ، لا من حيث تعلّقت به . والناس ثلاثة : رجل انهضته للعبادة والخدمة محض العبودية وحق الخدمة ، وهذا حُر كامل ، ورجل أنهضه لها حُسنها أو حُسن من نُسبت له وهو معامل بها ، وهذا مريد طالب أو عارف مستبشر ، ورجل أنهضه إليها وجود الثواب والعقاب ، وهذا من عوام المؤمنين وكافة أصحاب

⁽١) وفى التيمورية (وفيها إمكان التفرغ بها) .

⁽٢) وفي نسخة الدار (وفي ذلك حجة على التاوك فلا خفاء به على متأمل) .

⁽٣) وفي نسخة الدار (لا توخر طاعة وقت لوقت فتعاقب بفواتها) . ١٠٠٠

اليمين ، فأمّا من أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ، وآثر دنياه وخالف مولاه فلا حديث عليه، ثم الطاعة والمعاملة جُنّةٌ في الحال ، وموصّلة إلى الجنة في المآل ، والحق نعالى عنى عن العباد . وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

عجب ربُّك من قوم يساقون إلى الجنة بسلاسل.

قلت : يعنى أظهر العجب منهم وذلك أن الجنة محبوبة بالطبع جميلة الوصف موضع المنافع والفوائد ، والتراخى عن مثل ذلك من العجب العجاب ، وقد و م هذا الحديث في أسارى بدر حين نظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل معنى «عجب » أى : أحب .

وقيل: هو من الألفاظ الذي ينزُّه معناها وتمت كما جاءَت. ثم بين المؤلف ما أشار إليه إذ قال: أوجب عليك وجود خدمته وما أوجب عليك في الحقيقة إلا دخول جنته.

قلت : وذلك لأن الطاعة مضمنة بالجنة ؛ لأنها ثوابها ، والله تعالى لا يُخْلف وعده ، والآتى قطعًا كالموجود في الحال ، ثم جنّات المطيع ثلاثة : جنّة المعاملة ؛ بعظم المنّة ، وجنّة الفتوح بظهور الكرامة ، والجنة الحسيّة في الدار الآخرة . رزقنا الله الجميع بمنّه . وقد ثبت أن الحق تعالى غنى عنك فطاعتك لك ، وإذا كان كذلك وجب أن لا تقصر في حقوقه ؛ فإن ساعدك القدر على ذلك ، وإلا فلا تيأس من مولاك ؛ لأن ذلك قادح في يقينك ، كما قال :

من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية

قلت : وذلك لأنه استثنى منها شيئًا هو صلاح ُ حاله ، ولو كان فى غيره على خلاف ذلك ، وهذا شيء فكره باللزوم لا بالتحقيق والوقوع فلذلك كان قادحًا فى اليقين لا فى الإيمان ، فافهم . ثم أَعلم أن من قوى إيمانه بالقدرة لا يكون عنده شيء أغرب من شيء ، واستغراب المخوارق من ضعف اليقين بالقدرة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام فى حديث البقرة والذئب : آمنت به أنا وأبو بكر وعمر حين قال الناس : سبحان الله بقرة تتكلّم ودئب يتكلّم . قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : أنا وأبو بكر وعمر بلا عجب وأنتم مع التعجّب ، وإلا فالكل مؤمنون . ثم نزع المؤلف بآية حجة على ما ذكر من عموم القدرة فقال :

وكان الله على كل شيءٍ مقتدرًا .

قلت : ومن جملة الأنشياء تبديل هذا العبد من النقص إلى الكمال ، ومن القبح إلى الحسن ، وقد فعل ذلك بجماعة من الخلق كابراهيم بن أدهم ، وفضيل بن عياض ، وبشر ، المحافي ،

وعبد الله بن المبارك ، وأبى بكر الشبلى ، وذى النون المصرى وغيرهم فانظر حكاياتهم فإنها عون لك وأكثر اللجاء (١) إلى الله تعالى فيا عَسر عليك من قياد نفسك ومحاولة أمرك موقنًا أنه المالك لصلاح شأنك وتوفيقه وتسديده ولا تُفارق ذلك على ما فيك من حسن أو قبيح ، ولا تيأس من رحمة الله انتهى وهو لُبابُ ما قصد له كلام الولف ، والله أعلم . ثم ذكر حكمة الابتلاء بالنقائص فقال :

ربما وردت الظلم عليك ليعرِّفُك قدر ما منْ به عليك .

قلت : الظلم : بضم الظاء المشالة وفتح اللام جمع ظلمة ، والمراد بها ها هنا : الشهوات والغفلات والمعاصى ، وابتلاء العبد بها تارة يكون طردًا ، وتارة يكون تأديبًا ، وتارة يكون تقريبًا فإذا أثمرت إنابته كانت تأديبًا ، وإذا أثمرت تعلَّقًا بها كانت طردًا ، فاعرف ذلك ، وإنما يذكّر العبد بها إذا بُعد عن الفهم كما قال :

من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها .

قلت : ولذلك قيل : « نِعم الله مجهولة وتعرف إذا فُقدت » وقيل : « الولد العاقُ المصر على تأنيبه إنما يعرف قدر الماء من ابتكى بعطش البندية ، لا مَن كان على شاطىء الأنهار والأودية الجارية » انتهى .

ثم تواتر المنَّة واتساعها قد يُوجب الدُّهش المذموم ، فلذلك قال :

لا يدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك .

قلت: لا تدهش عن الشكر لما تراه من تُواتر النعم وكثرتها وتسلسلها ؟ فإن ذلك نقص وتقصير ، وأصله ثلاثة عيوب: أوّلها: إرادة مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا ، وذلك من قلّة المعرفة بجلاله ، الثانى : رويّة النفس ونسبتها فى الأفعال وهو من باب الاعتماد على الأعمال الثالث : اعتقاد أن الشكر رسم عقلى فيريك مقابلة ما يقتضيه (٣) معقوله بما يقتضيه معقولة

⁽١) وفى نسخة الدار (وأكثر اللجاء إلى الله فأنها مفتاح . قال فى رسالة أبى زيد رحمه الله : « وليلجأ إلى الله فيما عسر عليه من قياد نفسه ومحاولة أمره موقنا أنه المالك لصلاح شأنه وتوفيقه وتسديده لا يفارق ذلك على ما فيه من حسن أو قبح ولا تيأس من رحمة الله » انتسم .

 ⁽٢) في نسخة الدار فاذا أثمرت كانت إنابة و تقريباً .

⁽٣) وفى التيمورية: (اعتقاد أن الشكر رسم عقلى فيريد مقابلة النم على ما يقتضيه معقوله فلا يتهيأ له ما يريد مدم . إلخ) . وفي السخة الدار (اعتقاد أن الشكر رسم عقلي فيريد مقابلة ما يقتضيه معقوله عا يقتضيه معقوله فلا يتناهى له) .

فلا يتناهى له ما يريد لعدم تناهى ما يترتب عليه فيدهش ولو رآه رسمًا شرعبًا كما هو الحق لكفاه فى شكر النعمة ما وقع بأزائها من العبودية فقد قال داود عليه السلام: «الهى ، ابن آدم ما فيه شعرة إلا وفوقها نعمة وتحتها مِنْة ، فمن أين يكافئها ، فأوحى الله إليه : يا داود إنى أعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمنى » . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « لم يُنعم الله تعلى على عبد نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته » . وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، والنعمة التي ألهم بها المحمد أفضل من الأولى ؛ لأن الشكر مستوجب المزيد » انتهى . ثم هذا والنعمة التي ألهم بها المحمد أفضل من الأولى ؛ لأن الشكر مستوجب المزيد » انتهى . ثم هذا اللهش غالبًا إنما يتولّد من تمكّن الهوى من القلب وإلفه بالبطالة حتى يتعلل عمل تلك العلّة في مثل هذا المقصد ، وقد ذكر المولي فلك بأن قال :

تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداءُ العضال .

حلاوة الهوى : لذّته المداواه إلا تمكّنا وقوة ، والهوى : ثبات داعى النفس فى مقابلة داعى الحق ، وإن الذى لا نزيده المداواه إلا تمكّنا وقوة ، والهوى : ثبات داعى النفس فى مقابلة داعى الحق ، وإن شئت قلت : ميل النفس لما تريده طبعاً ، وإنما تتمكن حلاوة الهوى من القلب بثلاثة أمور : الرضا عن النفس ، والغفلة عنها ، والاسترسال مع مرادها . وإنما كان تمكنها معضلًا لوجوه ثلاثة : أحدها : أنه (۱) راقب فى النفس لازم لها ملازمة الأوصاف اواضعها فلا تسمح به إلا بعد جهد جهيد ، ولذلك قيل النفس كالنمر لا يردّها إلا القهر القوى ، والشيطان كالذئب إن أخرجته خبيد ، ولذلك قيل النفس كالنمر لا يردّها إلا القهر القوى ، والشيطان كالذئب إن أخرجته خرج ثم يأتى من موضع آخر ، الثانى : أنه لا يكون غالباً إلا ملتبسًا بحق (۱) أو معنى يحنى به كونه مُضراً إلا بعد نظر دقيق وجهد جهيد ، ولا عكن استئصاله إلا بالأصل والفرع لاحبال وقوع كونه مُضراً إلا بعد نظر دقيق وجهد جهيد ، ولا عكن استئصاله إلا بالأصل والفرع لاحبال وقوع بفتح باب التأويل والجدل الذى هو مفتاح الضلال ، قال الله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَن إِتَّخَذَ إلهَهُ مُوتَع باب التأويل والجدل الذى هو مفتاح الضلال ، قال الله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَن إِتَّخَذَ إلهَه أَى أَنه لا تفيد الأسباب فى هدايته لذلك قال بعضهم : « نَحت الجبال بالأَظافِر أَيْسرُ من زوال المُهمى إذا تمكن » . انتهى وإذا كان الأمر كذلك فلا يزيله إلا قاهر هو خوف مزعج أو شوق مقلق كما قال :

⁽١) وفي نسخة الدار (أحدها : أن ميل النفس لازم لها ملازمة الأوصاف لموصوفاتها) .

⁽٢) وفى نسخة الدار (أنه لا يكون غالبًا إلا ملتبسًا بحظ أو معى يخفيه لكونه مضرًا لا يظهر إلا بمد نظر . . . إلخ) .

لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق .

قلت: وذلك لأنهما يأتيان من بساط قهر وجلال وإذا بدت أوصاف الحق لم يبق أثر لأوصاف الخلق ؛ فالمخوف انزعاج السر لما علم من الوزر(١) عند مشاهدة القهر . والشوق : اهتياج القلق عند تمكن الحُرَق ، وقد يكون المخوف غير مزعج والشوق غير مقلق فلا يفيدان تركًا ولا توجها ، وهذا من نوع قوله بعد (الوارد يأتى من حصزة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه) . وقد قال شيخنا أبو العباس الحضرى رضى الله عنه : « واعلم أن الموعظة الحقيقية هي جذب الحق لك ولطف الحق بك وأن يخلق الله في قلبك المخوف الشديد الملازم (٢) لقلبك ، وتستحضر عظمة الله تعالى ، والمخوف من الله تعالى والشوق إلى الله تعالى ، قال الله تعالى (ففروا إلى الله) انتهى . ومن ميراث المخوف المزعج : العلم بأن الله لا يحب الهوى ولا يُقبل على صاحبه ، فلذلك قال :

كما لا بحب العمل المشترك كذلك لا بحب القلب المشترك .

قلت : العمل المشترك هو الذى يداخله ثلاثة أحوال : أحدها : الرياء : وهو العمل على رؤية الخلق ، والتصنع : رخو تحسين العمل والتكلُّف بالهيئات وغيرها لأَجل الخلق ، والعجب : وهو رؤية النفس في العمل . فالرياء قادح في صحة العمل وما بعده قادح في كماله ، والرب سبحانه وتعالى إنما يرضى بعمل خالص لوجهه ، مخلص من شوائب الالتفاتات لغيره . والقلب المشترك : هو الذي داخله الهوى والأنس بالخلق والإستناد إليهم ، أو أحد هذه الثلاثة (٣) . ومعنى المحبة منه تعالى ترجع للرضا والقبول فلذلك قال :

العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقبل عليه .

قلت: وما لا يقبله مردود على صاحبه ، وإذا رُدَّ عليه كان موكولاً إليه ، وإنما لا يقبل هذا ولا يُقبل على هذا لعزَّته وجلاله . قال الفقيه القاضى أبو عبد الله المقرى رضى الله عنه : القلب إيوان الملك ويسعى (٤) وعزَّ الملك يأنف من ذل المشاركة أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، أشار بالكلام الثانى لحديث (يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك

⁽١) وفى التيمورية (لما علم من الوارد) .

⁽٢) وفي التيمورية : (الملائم) .

⁽٣) يقول الله تمالى : ألا لله الدين الخالص . ويقول سبحانه : فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . ويقول سبحانه : « فاعبد الله مخلصاً له الدين » الزمر : ٢ .

⁽٤) وفي التيمورية (ويستني) وفي نسخة الدار (القلب ايوان الملك وعلى الملك أن يأنف من ذل المشاركة . . . اللخ) .

فيه معى غيرى تركته وشريكه (١) وبالكلام الأول لحديث (لا يسعنى أرضى ولا سمأًى ولكن يسعى قلب عبدى الموَّمن (يعنى من حيث المعرفة والاعتقاد ، لا من حيث الحلول والإيجاد ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

تنبيه : الخوف والشوق إنما يقعان من حقائق الأنوار ؛ لأنهما فرعاً التأثير بأصليهما من الذكر الناشيءُ عن التذكير وذلك إذا خلا باطن القلب لا إذا كان على ظاهره .

⁽۱) روى ابن ماجه – ورواته ثقات – عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : أثا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برء - ، وهو للذى أشرك » .

** من أتى بأب الكريم بالأدب جدير بتحصيل المقصد والأرب **



طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب • • وارتجاء الشيفاعة بلا سبب نوع من الغسرور • • وارتجاء رحمة من لايطاع حمق وجهل • •

قال رضى الله عنه : أَنوار أُذِنَ لها في الوصولوأنوار أُذِنَ لها في الدخول .

قلت: قد تقدّم غير مرّة أن الأنوار: جمع نور وهو الظل الواقع في الصدر من معاني الأمياء والصفات. وهو في الأصل نوعان: نور مستودع في القلوب، ونور وارد من خزائن الغيوب، فالمودع في القلوب عثابة نور العيون. والوارد من خزائن الغيوب عثابة نور الشمس، ثم هو على قسمين: نور وصل لظاهر القلب ولم يدخل باطنه وهو الذي أثر فيه ولم يوجب له إقدامًا ولا إحجاما كالواعظ الذي لم يُبلغ الحقيقة والعلوم التي لم يقع لها صنع(١) في الباطن، ونور دخل باطن القلب وخالط حُشاشته، فأوجب الإقدام والإحجام على حكمه، وهذا هو المعتبر المطلوب الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن النور إذا دخل المعتبر المطلوب الذي قال أنه وهل لذلك من علامة يُعرف مها ؟ قال: التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله). قال بعضهم: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب العبد لُقْمته (٢) ودنياه وكان مرّة مع نفسه ومرّة مع قلبه، فإذا دخل الإيمان في ناهر القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه » ثم مانع الأنوار من الدخول إنما هو الاشتغال بالنقائص والفضول كما نبّه عليه إذ قال:

ربما وردت عليك الأنوار فُوجَدَتُ القلب محشواً بصور الآثار فارتحلتُ من حيث نزلتُ .

قلت : يقول ربما تلمّع القلب شيئاً من المعارف ونحوها وطافت به ثم إنها لم تثبت فيه ولم تداخله فخرج من بساط الهوى ماصرفها عنه من معصية ، أو شهوة ، أو غفلة ، فذهب فى هزّ الرّعوس وتقطير العيون ، وما ذاك إلّا لما انطبع من صور الآثار فى مرآة القلب . وعلامته ثلاث : أحدها أن يتناتر بما سمع أو رأى أو ذكر ، أو تذكّر ، ولا يَجد له فى الخارج فائدة . الثانى : ان تتسع دائرة فهمه ولا ينتهى بها إلى التحقق بعلمه وإن أوصلته إلى التحقيق فيه (٣) الثالث : أن

⁽١) وفي نسخة الدار (لم يقع لها فيها صبيغ في الباطن) .

⁽٢) وفي ت (نعمته) وكذلك في نسيخة الدار .

 ⁽٣) المتحقق بعلمه هو الذي يكون سلوكه صورة لعلمه أما المتحقق في علمه فهو الداوس للعلم الذي يختلف سلوكه عن علمه
 ولو جزئياً .

عِينَ الحتَى ويجد في نفسه أين هو منه ، ويعرف الباطل ويُميّز أين هو منه ، ثم لايعمل عليهما ، ولو دخل قلبه لأمر كما ذَكَر فآكد شيء عليك طهارة قلبك وفراغه من الغير وهذا ما نبَّه عليه إذ قال :

فرغ قلبك من الأُغيار تملأه بالمعارف والأُسرار

قلت : المطلوب تطهير القلب عما سواه ؛ لأنه لايرضي معه بشريك ، وإذا فرغ العبد قلبه له ملاً ه بأسراره وأنواره ، قفيا أوحى الله لعيسى عليه السلام «أنّى إذا اطّاعت على قلب عبدى فلم أأ أجد فيه حب الدنيا ولا الآخرة ملاًته من جي » وقال بعض الحكماء رضى الله عنه : «لاتطمع أن تصحو وبك غيب ، (ولاتطمع أن تصفو وبك عيب) ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب » وأنشدوا في معنى ذلك :

حاشاهم أن يرجموك وإنما منحوا الوصال من استقام أو اهتدى وسرّ ذلك حكمة المناسبة ، فلا يوضع أرفع الأشياء ، وهي المعرفة في أقلّها وهو القلب الملوّث بالأغيار . والله أعلم . وإذا كان الأمر كذلك فالأمر راجع منك وإليك كما قال :

لاتستبطيء منه النوال ولكن استبطىء من نفسك وجود الإقبال .

قلت : وذلك ؛ لأن الإِقبال هو بساط النوال ومن أتى باب الكريم بالأدب جدير بتحصيل المقصد وَالأَرَبْ ؛ لأَنة قد أَتى الأَمر من بابه وتوسل له بوجود أسبابه . ومن كان على العكس كان جديراً بالحرمان فيرحم الله من قال :

وما رمت الدخول عليه حتى حللت مَحِلَّة العبد الذليل وما رمت الدخول على قداها وصنت النفس عن قال وقيل

وقال معروف الكرخى ، رضى الله عنه : «طلب الجنة بلاعمل ذنب من الذنوب ، وإرتجاء الشفاعة بلاسبب نوع من الغرور ، وإرتجاء رحمة من لايطاع حمق وجهل» انتهى .

والإِقبال : إِنَّما هو بإِقامة الحقوق ، وهو قسمان ، كما قال :

حقوق في الأُوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأَوقات لايمكن قضاؤها .

قلت : فالحقوق التي في الأوقات : هي أنواع العبادات ؛ كالصلاة والصوم وغيرهما الما يتسع زمانه فيمكن قضاؤه إن فات وقته لبقاء فسحة ببنه وبين الحق الآخر ، وحق الأوقات

هي ما بلزم العبد من العبودية المترتبة على حركاتها ، وسكنانها وهي متداركة (١) لا يمكن انفكاكها ولا الانفكاك عنها ، فلذلك لا يمكن قضاؤها(٢) قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : «أوقات العبد اربعة لا خامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصبة . ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحقّ منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ، ووفقه للقيام بها ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر ، وهو فرح القلب بالله ، ومن كان وقته المعصبة فسبيله التوبة والاستغفار ، ومن كان وقته البلية فسببله الرضا ، الصبر . والرضا : رضا النفس عن الله . والصبر مشتق من الإصبار وهو الغَرَضُ للسهام و كذلك الصابر بنصب نفسه غَرَضاً. لسهام القضاء ، فإن ثبت لها فهو صابر . والصبر أبنات القلب بين يدى الرب ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أعطى أفشكر واستلى فتسبر ، وظلم فغفر وظلم فاستغفر قالوا : ماذا له يارسول الله ؟ قال : أولتك لهم الأمن في الآخرة وهم المهتدون في اللدنيا) انتهى .

ومداره على مراقبة الأوقات بالبودية اللاثقة لها كما قال :

إند مامن وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره ، وأنت لم نقض حق الله فيه ٢ !

إِن قلت : ما من وقت ، (٣) وإن كان نَفَساً واحداً لأن كل نفس يقتضى تجليًا وذلك التجلّى يقتضى عبودية ، وتلك العبودية تقتضى تجليًا ؛ فأنت في كل نَفَس سالك طريقاً إلى الحق بسبحانه بنوع من السلوك ، ولذلك قيل ؛ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق (٤) ، فالحق الجليد : ما يتجدّد من الأحكام بسبب الأحوال ، مثل : شكر النعمة ، أو توبة الذنب ، أو صبر على البليّة ، أو حمد الله على طاعته . والأمر الأكيد : ما يتوجّه من ذلك الحق ؛ كالصدقة شكراً لنعمة المال ،

⁽۱) متعابعة .

⁽٣) وفي نسخة الدار (ما من وقت إلا ولله عليك فيه حق وإن كان ففساً واحداً لأن كل نفس . . . إلخ) .

⁽٤) يقولون : التوسيد واحد ، والطرق إلى الله بعدد نفوس بنى آدم ، ويعنون بذلك أن الناية واحدة وهى « التوحيد » . والتوسيد لا أختلاف فيد أما الطرق الموصلة إليه فانها كثيرة ولكنها مهما تعددت فانها تسير كلها نحو « التوحيد » . ومن هذا القبي قول الشاعر :

ورد المظالم تحقيقاً للتوبة ، وعدم الشكوى عند البليّة ، وإعمال الأسباب فى دفعها وتخفيفها ، إلى غير ذلك . وإذا كان الأمر كذاك فالأوقات كلها مستحقة ، لما وجد فيها ، فلا يصح الحاقل الاشتغال بغيرها من حقوق الغير من نفس أو خلق ؛ إد لاحق لهم وإن كانت صورته لهم محقيقة الأمر فيه لله نعالى ، فإذا قصد له كان معاملته معه ، وإلّا فهو تضييع لحقّه تعلى مع القيام بصورته ، فأما المخالفة فلا حديث عليها ؛ إذ ليست بحق ، ولهذا اعتنى بحفظ الحواس وعد الأنفاس ، حتى قيل «إن حقيقة التصوف: قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق . وإنما الولاء لمن اعتق» . ثم نبه على ما يوجب الحقوق ويقتضى النهوض لها من غير فترة ولا تقصير ، فقال :

مافات من عمرك لا عوض له وماحصل لك منه لاقيمة له:

قلت : يقول : مافات من عمرك خالياً عن الفوائد الدينية والدنيوية والقيام بالحقوق اللازمة لاعوض له يستدرك به فائته ؛ لأن الآتى له من الحق مثل الذى للماضى ففوات الأول فوات الثانى ، وما حصلت فائدته وعائدته لاقيمة له ؛ لأن القيمة إنما تكون لما له مثل ، ولا مثل له فأعزُ شيء الوقت ، وأنشدوا في ذلك :

السباق السياق قولا وفعلا حلنر النفس حسرة المسبوق

وقال الحسن رضى الله عنه : «أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشدٌ منكم حرصاً على دنانيركم ودراهمكم».

وقال علىّ كرم الله وجهه : «بقية العمر مالها ثمن يُدرك بها مافات ويحيي بها مامات» . وأنشدوا فيه :

«بقية العُمر عندى مالها ثمن وإِن غَدًا خيرُ محبوب من الزمن «يستدرك المرءُ فيها كلَّ فائته (٢) من الزمان وبمحو السوء بالحسن

ثم من بواعث القيام (٣) بالحقوق وجودُ العبودية ، (وهي ثمرة المحبة ، فمحبة الغير هي الحاملة على العبودية) . وترك حقوق الحق به ، وبالعكس العكس فلذلك قال :

⁽١) في نسخة الدار (حتى قيل إن حقيقة الصوفية : التصوف قضاء حق الله أحق) .

⁽٢) رجعنا في تصحيح أبيات الشعر إلى شرح ابن عباد .

⁽٢) وفى التيمورية (من بواعث القيام بالحقوق الحرمة والمحبة وبالعكس فلذلك . . إلخ (وفى نسخة الدار) نم من بواعث الم بالحقوق وجود العبودية وترك حقوق الحق به ، وبالعكس العكس ، فلذلك قال (ما أحببت شيئاً إلا كنت . . . إلخ) .

ما أحببت شيئاً إِلَّا كنت له عبداً وهو لايحب أن تكون لغيره عبداً .

قلت : أما كون المحبة تملُّكُ المحبوب فواضح ، من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه يَبذل ولا يُبذَل له ، الثانى : أنه محكوم عليه ولا يَحكُم . الثالث : أنه في قبضة التصريف من غير تصرّف ، بل هو ميت بين يدى محبوبه ، ولذلك قيل : المحبة أن نهب كلَّك لمن أنت له مُحبّ حتى لايبقى لك منك شيء . وأمَّا أنه تعالى لايحب أن تكون عبداً لغيره إعزازاً لك وتكرمة ؛ ولأن عز المُلك يَأْني ذلّ المشاركة . وإذا كان الأمر كذلك فاختر لنفسك على بصيرة وحسن نظر ، فيرّحم الله الفارض حيث يقول :

أنت القتيل بأى من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى

وقد قال الجنيد رضى الله عنه : إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيءٌ مما سواه لك مُسْتَرِقُ(١) . وسُئل عمن خرج من الدنيا ولم يبق عليه إلَّا قدر مَصّ نواة ، فقال : المكاتَبُ عبد ما بتى عليه درهم » انتهى .

ثم ذكر أن حبّه لعبوديتك لا لحاجة منه لك ، بل لإظهار فضله عليك وإحسانه لديك فقال : لاتنفعه طاعتك ولاتضرّه معصيتك وإنما أمرك مهذه ومهاك عن هذه لما يعود عليك .

لايزيد في عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزّه إدبار من أدبر عنه .

قلت : لأنه العزيز لذاته ، الذي لايحتاج لزيادة في عزّه ولا يلحقه نقض في ذلك لكمال وصفه . وقد ذكر صريح ذلك في المناجاة حيث يقول : «أَنت الغَيْي بذاتك عَنْ أَن يُصل إليك

⁽١) وتكلة كلمة الجنيد رضي الله عن : وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية ـ

النفع منك ، فكيف لاتكون غنياً عنى » وفى الحديث الصحيح «يقول الله : يا عبادى كلّكم ضالًا للّا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، ياعبادى كلّكم جاثع إلّا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، ياعبادى كلّكم عار إلّا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم ياعبادى كلّكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى ، ياعبادى إنّى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما ، فلا تظللوا ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أوفيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومَن إلا نفسه ، ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فيساًلنى كل واحد منهم مسألته ، ثم سألنى كل واحد مثل ما سألنى الجميع ما نقص ذلك من مُلكى إلّا كما ينقص المخيط إذا غُمس فى البحر» المنتهى على تقديم وتأخير في بعض ألفاظه ، وهو ينبوع المعارف والمعاملات التى على بساط المحقيقة . وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه : إذا تمّ النور حصل الإقبال ، فصفت المحبَّة في بساط العبودية ، وتمَّ الأَمر بالطاعة والغناء به عنها علماً بأَنها لاتجلب ولاتدفع لكمال غناء الحق ومجده .

⁽۱) في صحيح مسلم روى عن أبي ذر رضى الله عنه عن الذي صلى الله عليه وسلم فيما يروى الله عز وجل : ياعبادى إني حرمت الفللم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاسبدوني أهدكم ، ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعبوني أطعمكم . ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جبيعاً فاستغفروني أغفر لكم ، ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفى فتنفموني ، ياعبادى لو ياعبادى لو أن أو لكم وآخركم وأنسكم وأنسكم كانوا على أتى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكى شيئاً ، ياعبادى لو أن أو لكم وآخركم وجنكم وأنسكم كانوا على قلب أفجر رجل واحد منكم ما نقص من ملكى شيئاً ، ياعبادى لو أن أو لكم وآخركم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك نما عندى إلا كما ينقص المخيط وإذا دمل البحر ، ياعبادى إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن

* الحق برهانه في نفسه وسلطانه في ذاته ٠٠ فصاحبة غير محجوب ولا مفاوب ٠٠



من علامات الاكتفاء بالله ثلاث: الرضا عن الله ٠٠ والاهتمام بامره ٠٠ وعدم الالتفات لفيره ٠

قال رضى الله عنه وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به .

فلت : الوصول مما يعجري في "دلام الذوم ، وحقيقتُه : وصولَ الفابِ للعلم بعجلال الله وعظمته على وجه يباشر(١) حقيقتُه القلب ويجرى معناه في الجوارح حتى تجريَ على خُكُمِه من غير توقُّف ولا اختيار . والناس فيه متفاوتون مختلفون اختلافاً متبايناً ، وإن اتفقوا في أصل الحقيقة . قال في « عوارف المعارف » « و كل من وصل إلى صفو اليقين بطريق النوق والوجدان فهي رتبة في الوسول ، ثم يتفاونون ؛ فسنهم من يجد الله بطريق الأَفعال ، وهي رتبة في التجلِّي فيفني فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ، ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار ، وهذه رتبة في الوصول. ومنهم من هو يُقام في مقام الهيبة والأنس لما يكاشف به من مطالعة الجلال والجمال وهذا التجلِّي بطريق الصفات ، وهي رتبة في الوصول . ومنهم من يَرقي إِلَى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة ، فعمى في شهوده عن(٢) وجوده وهذا ضرب من تبجلًى الذات لخواص المقرّبين ، وهذه رتبة في الوصول . وفوق هذه رتبة حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا لُمح وهو سريان نور المشاهدة في كُلية العبد حتى يحظي بها روحه وقلبه حتى قالبه. وهذا من أعلا رئب الوصول ، فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه في أول المنزل فأين الوصول ٢ هيهات!! منازل الوصول لاتنقطع أبداً في عمر الآخرة الأَبدي، فكيف بالعمر القصير الدنيوى ؟! » انتهى وهي الغاية في بابه ، وكل ذلك لايوصّل إلى الله إلَّا بالله فقوله منضمتن أن حصول العلم بالله إذا كان بالله فهو الوصول وإلَّا فلا ، ثم ماذكر هو الجارى على مذهب أهل الحق ولايصح سواه ، كما نبّه عليه إذ قال :

وإلَّا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَعَمَّلُ بَشِّيءٌ أُويَتَصِيلُ بِهِ شَيٌّ .

قلت : يعنى وإن لم يكن الوصول ما ذكر فليس إلّا النسب والسافة والعلل والإضافة ، وهي من صفات المخلق التي لايصح إجراؤها على الحق تعالى ؛ لتنزهد عن سمات المحدثات ، فلذلك

⁽١) وفي نسخة الدار (على وحبه يتباشر الفاب به) .

⁽٧) وفي نسخة الدار (عشي في شهوده من وجوه) .

قال الجنيد رحمه الله : «متى يتصل من لاشبيه له ولا نظير بمن له شبيه ونظير ؟ هيهات!! هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لادرك ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان» انتهى . وقد أعرب به غاية الإعراب وأبان به عن وجه الحق والصواب ، ولما كان القرب من نسبة الوصول ومن حقائقه (حقائق نعوته) أتبعه به فقال :

قربك منه أن تكون شاهداً لقربه منك .

قلت : مشاهدةً تقتضى لك وجود المراقبة له حتى لايراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . ثم القرب على وجوه ثلاثة : أولها : قرب الكرامة ، وهو من الحق إلينا وأتمه (۱) مشاهدة قرب الحق منا وإحاطته بنا . الثانى : قرب الإحاطة بالعلم والقدرة والإرادة ، وهو قرب الحق من كل موجود حيث يقول (ونَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الوَرِيد) (۲) (ونَحنُ أَقْرَبُ إليه مِنْكُم) (۳) (ومُو مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم) (٤) . الثالث : قرب المسافات والنسب والمداناة وهو قرب الأجسام وسائر المحدثات ، فلا يليق بالحق سبحانه ولا يجوز عليه ، وإليه أشار المؤلف إذ قال :

وإِلَّا فمن أَين أَنت وَوجودُ قُربه .

قلت : يقُول إِن لَم يكن القرب ماذكرنا فلا وجه للقرب إِلَّا المداناة ، والمناسبة ، وهو محال في حقّه تعالى ؛ فقد سئل الجنيد رضى الله عنه عن معنى «مع » فقال : «مع » على معنيين : مع الأنبياء بالنصر والكلاَّة قال تعالى (إِنَّنِي مَعَكما أَسْمَعُ وَأَرَى)(٥) ، ومع العامة بالعلم والإحاطة قال تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَة إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم . . الآية) (١) .

وقال جعفر بن محمد الصادق ، رضى الله عنه ، فى قوله تعالى (ثم دنا فتدلى) : من ظن أنه بنفسه دنا جعل ثمَّ مسافةً ، إِنَّمَا التدانى أنه كلما قرب منه بعد عن أنواع المعارف ، إذ لا دُنو ولا بُعد ، اه .

وتقرير كلام المؤلف : قُربك منه على سبيل الكرامة أن تكون مُشاهداً لقُربِه منك على وجه الإِحاطة . وإن لم يكن هذا فلا وجه للقرب في حقه ، فافهم .

نم القرب والوصول محل جرى الحقائق على الواصل والمقرّب ولتلقيها وجه ذكره المؤلف. بأن قال :

⁽٢) آية ١٦ من سورة ق .

 ⁽٤) من آية ٤ من سورة الحديد .

⁽٦) من آية ٧ من سورة المجادلة .

⁽١) في نسخة : وآيته .

⁽٣) من آية ه ٨ من سورة الواقعة .

⁽٥) من سورة مله آية ٢٤ .

الحقائق تَرد في حال النجلِّي مجملةً .

قلت : الحقائق ما يجرى على لسان أهل الحقيقة والتحقق والتحقيق من الفوائد الجامعة والنكت الحكيمة ، وهى لاترد باستعمال ولا تتوقف على أسباب ، وإذا وردت على القلب ظهرت فيه نكتة مجموعته جامعة لما وقعت عليه ، فتكون مجملة لاتفصيل فيها ولا تأصيل من حيث صورتها ، وإن كانت محتوية على ذلك من حيث حقيقتُها إذ يبدو منها ذلك بعد حصولها وتحققها وتمكنها كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

وبعد الوعى يكون البيان.

قلت: وبعد حصولها واستقرارها يتبين معناها ويظهر مغزاها فتلوح منها المبابى و تلمح منها المعانى المعانى المعانى المعنى الواحد ألف كلمة المنبعرف كونها حقيقة بثلاثة أمور: أولها: كونها جارية بحكم التصريف من غير اختيار ولا رؤية ولا أسباب تفيدها وإن جرت معها . الثانى كونها في جريها مجملة مجموعة ناكتة فى القلب خارجة عنه خروج السهم من القوس لمحل الرى ، والثالث: ظهور معناها وبيان وجهها وتفصيلها بعد وعيها . قال الأستاذ أبو القامم القشيرى رضى الله عنه: « فأرباب الحقائق يجرى بحكم التصريف عليهم شي لا علم لهم به على التفصيل ، وعند فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوا بشواهد العلم أو تحقيق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت » انتهى .

ثم أشار إلى أن الأدب في تلقى ذلك مستفاد من الأدب في تلقى الوحى فذكر الآية الواقعة فيه فقال :

فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إنَّ علينا بيانه .

قلت : يقول فإذا قرأ جبريل . قال ابن عباس : فاستمع له وانصت ، شم إن علينا أن نقرأه فالمراد هنا : إذا جرت الحقائق فأنصت لها ولا تتلقّاها بمعتادك من التأويل والدليل والنظر في الوجه والتفصيل ، شم على الله بيانها ، لأن الذي تفضّل بالأول مَن بالثاني بفضله وكرمه . وإنما كان هذا كتلقي الوحي في آدابه ؛ لأن الكل مِنْ عَين المنّة في بساط الكرامة ، وإن كان الوحي أعلى وأجل . فللاقتداء (۱) أوجه وبالله التوفيق . شم الخارج بما قاله آداب ثلاثة : الانصات

⁽١) وفي التيمورية : وإن كان الوحي أعلى وأجل فلا مندوحة .

القبول . والتفهم أن بعد الحصول ، والامتحان بالوصول (٢) ، فقد قال الداراني رضى الله عنه : ﴿ إِنَّهَا لَتَقَعَ النَّكَتَةَ (مَن كَارَمُ القَومِ) في قلبي أَيامًا فأَقول لها : لاأَقبلك إلاَّ بشاهدي عال : الكتاب ، والسُّنَة ، انتهى .

شم ذكر المؤلف الحكمة في كونا تأتى مجملةً في حال المتجلى (٣) فقال:

متى وردت الواردات الإِلهية إليك هدمت العوائد عليك .

الواردات الآلهية : هي ما يتجلى للقلوب من المعارف التي تبرز عندها الحقائق ، فإذا وردت هذه الواردات على القلب لم يبق فيه منسع لغيرها فتأخذ بمجامعه ، وتستوى فى كُليّة العبد فينفث (٤) با طوعًا أو كُرهًا لخلوه عمّا سواها ، كما أشار إليه بالآية الكرعة حيث قال :

إِن الملوك إِذَا دخلوا قرية أَفْسدوها .

قلت : يعنى : غلبوا(٥) عوائدها بدليل قوله نعالى (وجعاوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعاون) فإذا دخل الرب القلب خرب مما سواه ، فلا يتأتّى له جرىء مع المعتاد ، ولا تصرف بالأسباب ولذلك قيل : « إذا عظم الرب في القلب صغر الخلق في العين » ، وقيل لبعضهم : « بِمَ يستعين العبد على حفظ بصره ؟ قال : بعلمه أن نظر الله سابق نظره لما يريد أن ينظر إليه » انتهى . وإنما كان الورد كذلك لعلّة ذكرها بأن قال :

الوارد يـأتى من حضرة قهَّار لأَجل ذلك لا يـصادمُهُ شيء إلا دمغَه .

قلت : يأتى من رب قاهر على بساط القهر فكل شيء يصادمه أى يقابله لا يمكنه ثبات معه ؟ إذا كل ما صدر من حضرة إنما يكون على حكمها ، فلا بقاء لآثار الخلق عند ظهور آثار الحق ، إذا قورن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبتى القديم . وقد قيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ قال : من عند الله . قال : أينزًله عليك من الساء ؟ قال : أو لم تكن الأرض له ؟ ! قالوا : أنتم قوم لا يقوم لكم أحد بحجة . قال : الحق لا يقوم له شيء » انتهى . ثم نزع بالآية ؟ للاستدلال على ما ذكر . فقال :

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

⁽١) وفي التيمورية والتفهيم .(٢) وفي ت (بالإصول) .

⁽٣) في ت (التجلي) .

^(؛) وفي التيمورية (فينبعث).

⁽٥) وفي ت (قلبوا) وكذلك في نسخة الدار .

قلت : يقول ندفع الحق على الباطل في محلّه فيصيبه في دماغه فيتلفه (١) فإذا هو زاهق أى ذاهب مضمحل ، وعلى معناه يجرى قولهم : « للحق جولة وللباطل صولة » فإذا جاء الحق من جولته (٢) ذهب الباطل بصولته ، وذلك لثلاثة أوجه ؛ : أولها : أن الحق من بساط القوة والظهور وهما وصفان لا يقوم لهما شيء . الثانى : أن الحق مويّد بالحقيقة الإيمانية معضدة بالحجج البرهانية (فأعطى ما للأصل الفرع) (٣) ، والباطل عكسه . الثالث : أن الحق برهانه في نفسه وسلطانه في ذاته فصاحبه غير محجوج ولا مغلوب ، قال : (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر) فتأمل ذلك وبالله التوفيق .

ثم من أعظم الباطل فهم الحجاب في وجوده تعالى وما نبّه عليه المؤْلف إذ قال : كيف يحتجب الحقُّ بشيءٍ والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر .

قلت : يقول : لا يصح احتجابه بشيء ؛ لأَن كلَّ شيءِ شاهد. بوجوده وقربه ، ولو قيل بذلك لكانت الحجة في عين ما يدّعَى أنه حجاب ، ويرحم الله أبا الحسن الششتري حيث يقول :

ما للحجاب وجود في وجودكم إلا بسر حروف انظر إلى العبل يعنى : لا حجاب إلا أن يصرف الحق وجه عبده لغيره فإذا صرف الوجه عنه كان العبد محجوبًا لا الرّب سبحانه ، ولما قال ذلك المريد لشيخه : هذا ابن الخطيب يستدل على وحدانية الله بألف دليل . قال : يابُني لو عرف الله ما استدل عليه ، فبلغ ذلك ابن الخطيب ، فقال : صدق ، هم ينظرون على المعاينة ونحن ننظر من وراء الستارة » . وإذا كان الحق تعالى حاضرا معك وقريبًا منك وجب أن تكون حاضرًا معه على أيّ وجه أمكنك ولو بالرجاء في رحمته ، كما قال :

لا تيـأس من قبول عمل لم تجد فيه وجُود الحضور .

قلت: لأن يأسك من قبوله سوء ظن بربتك واعتاد على عملك ، وذلك غيبة عن مولاك بذكر نفسك فى عدم حضورك ، بل إن لم يكن حضورك بالتعبد والعرفان فليكن حضورك بالطمع فى الإحسان ؛ لأن طمعك فى الله بلا عمل أفضل من طمعك فيه مع وجود العمل ، وإن كان العمل لابد منه فللعبودية ، لا للاستحقاق ، ومن العبودية الاستسلام عند جريان القضاء ، فاعمل وطالب نفسك بالكمال ولا تياس من الله بوجه ولا بحال ، فإن الأمر كما ذكره المؤلف إذ قال :

⁽۱) و في ت (فيبلغه) . (۲) بجولته.

⁽٣) ما بين القوسين ساقط في النسخة التيمورية .

⁽٤) الطمع في الله مع وجود الفهل مغناه مطالبة ببدل في مقابلة الفهل وهذا لا يليق بالفهودية الصادقة .

فرنا تُمبل من العمل ما لم تُدرك ثمرته عاجلا

قس : ربسا رُدْ مَا صَجَاتَ فَرِقَه مَ وَإِنْ كَانَ العَالَبُ عَلَى خلافَ ذلك ، فالعوائد لا تقتضى (١) على حكم الرب سبحانه . ومراده بالثمرة هنا : الحضور فيه ، وقد يريد الحضور به ، وهو أولى ، لما تقدّم عند قوله (من وجد نحرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول) .

تم تأن النفس أبدًا (٢) التألم بفقد الحضور وذلك من ثلاثة أمور : أحدها : اعهاد الأسباب في المرف الذرائل وهي على الفيحة . الثاني : استشعارها الكمال في هي به بدلاً من النقص اللاحق بفيات وهي أعظم العلل ؛ بفياء (الثالث : الأنس بالحلاوة والتألم بفراق اللّذة ، وهي أعظم العلل ؛ فلذلك قال لواسطي : « استحلاه الطاعات سموم قاتلة » قال في « لطائف المنن » : وصدق الواسطي ، وحد الله عن أنها والله المناه إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة أن تصير قائمًا فيها متطلبًا للحلاوة فيه منافل المناه المناه المناه وجلت من المحلاوة والمناق المناه المناه المناه وقائمًا لله وفي الباطن إنها قمت لحظ نفسك ، ويخشي عليك الحلاوة والمناعة جزاة تعجلته في الدنيا ، فتأتى يوم القيامة ولا جزاء لعملك» انتهى ، فالعمل عقصرد لذات ، وغملك » انتهى ، فالعمل عقصرد لذات ، وغملك » وخلك بخلاف شأن الواردات ، إنها هي بسط لئمراتها فللما عقصرد لذات ، وغمال :

لا تزكينَ واردًا لا تعلم غُرته فليس المراد من السحابة وجود الإمطار إنماالمراد منها وجود الإِمطار إنماالمراد منها وجود الإِمْار .

قلت : يقول لا تعظم الوارد ولا ترى أنه كرامة من الله حتى تعلم ثمرته في ذلك ؛ من العمل عوجيد والوقوف على حدة من علو الهمة وحسن الخدمة وحفظ الحرمة وشكر النعمة ؛ فإن كل معرفة لا تنبيد عملا لا عبرة با . وكل عمل لا يصحبه إخلاص لا كمال له ، وقد قالوا : « من أدركته حالة في السماح لم يجد بركتها غذا في عمله فإن سماعه لا حقيقة له » أو كلاما هذا معناه . ثم أشار لتمثيل الوارد عا ينشأ عنه فقال : (فليس المراد . . . الخ) قلت : فجعل الوارد كالسحاب والتأثر به كالمطر النازل من السحاب ، والعمل بما يقتضيه هو الشمرة ، فوارد بلا تأثير كالسحاب بلا مطر ، وتأثير بلا عمل كمطر بلا إثمار . فالمراد وجود الشمرة فما قبلها لو تجرد عنها لكان مضرا بلا منفعة (٤) ، وكذلك الحالة إن أثارت عملًا ، وإلّا فهي ضرر على صاحب بعب ، أو كبر ، أو دعاوى أو اغترار ، أو غير ذلك . فافهم .

⁽١) وفي التيمورية (لا تقضي) (٢) وفي ت (ابداء) . (٣) وفي التيمورية (في بصره) .

^(\$) وفى ت (لكان مطر أ بلا ثمر) .

ثم الوارد إِن عُرفت بركته وظهرت ثمرته فلا ينيغي التعلَّق به والوِقوف، منه بارادة بقائه لأَن ذلك حظ النفس كما أشار إليه المؤلف إِذ قال :

لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها .

قلت: شأن المريدين في بداياتهم ، بل عامّة المتوجّهين ، الأنسُ بالواردات : لا سيا أن بستت أنوارها في عوالم القلوب ، وأودعت أسرارها بكل أمر محبوب ، وذلك جهل ونقص ظاهر ؟ أما الجهل فأوقات الصّفاء لا تدوم ، ومن ظنّ دوامها فهو أحمق ومفرور ، وإنما تدوم أوقات الوفاء وعليه عمل الأكابر دون الأحوال والحركات . وأما النقص فالأنس بالواردات بعد عن الحق ، وذلك مرجوح بكل حال . ثم علامة بسط أنوارها ثلاثة : وجود الحلاوة ، وظهور العقيقة ، وعلامة إيداع أسرارها : تمكن الحقيقة من النفس ، وسريان معناها في كل وبسط الحقائق ، وعلامة إيداع أسرارها : تمكن الحقيقة من النفس ، وسريان معناها في كل شيء من العبد ، والغِنا بالله ، وهو الأصل الذي يدور عليه الفقدان والوجدان . كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

فلك في الله غِنَا عن كل شيء وليس يغنيك عنه شيُّ .

قلت : فإن اكتفيت به أغناك ، وإن تعلقت بغيره وكلك الله إليه وخلاك ، في الإشارة عن الله تعالى : لا تركنن إلى شيء دوننا ، فإنه وبال عليك ، وقاتل لك ، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن وثقت بالحال أوقفناك معه ، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم ، وإن اعتززت (١) بالمعرفة تركناها عليك ، فأي حيلة لك ، وأي قوة لك معنا ، فارضنا لك ربًا حتى نوضاك لنا عبدًا انتهى .

ثم علامات الاكتفاء بالله ثلاث : الرضا عن الله ، والاهمام بأمره ، وعدم الالتفات لغيره ؟ لأن العكس من الفقد والبعد ، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

تطلعك إلى بقاءِ غيره دليل على عدم وجدانك له ، واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وُصْلتك به .

قلت : لأنك لو وجدته هان عليك كل شيء سواه ، ولو وصلت إليه كان يكفيك الأنسُ به عن استحياش غيره ، بل يكون ذكر الغير عندك مصيبة ونقصًا ، ولذلك قيل « لا وحشة مع الله ولا راحة مع غير الله » وأنشدوا في معناه :

⁽١) وفى نسخة ؛ اغتزرت .

كانت لقلبى أهواء مُوزَّعة فاستجمعت مذرأتك العين أهوائى تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بحبّك يا دينى ودنيائى فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

قال في « التنوير » : واعلم أن البارىء سبحانه إنما يدخلك في الحالة لتنال منها ، لا لتأخذ منك ، وإنما جاءت لتحمل هدية التعريف من الله إليك فتوجَّة لها باسمه المبدى و فأبداها وأبقاها حتى و صلت إليك ما كان فيها ، فلما أدت الأمانة توجَّة إليها باسمه المعيد فأرجعها وتولأهافلا تطلبن بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ، ولا أمين بعد أداء أمانته ، وإنما يفتضح المدَّعون بزوال الأحوال وبعدهم (۱) عن مراتب الأنزال ، هناك يبدو العوار ، وتنهتك الأستار ؛ فكم من مدع الغنى بالله وإنما غناه بطاعته ونوره وفتحه ! ! وكم من مدّع العزِّ بالله وإنما اعتزازه عنزلته وصولته على الخلق معتمدا على ما تمت (۲) عندهم من معرفته ! ! فكن عبد الله لا عبد العلل ، وكما كان لك ربًا ولا علّة فكن له عبدًا ولا علّة ؛ لتكون له كما كان لك » ا ه وعليه مدار كلام المؤلف. انتهى

تنبيه : حلاوة الأَحوال وغيرها نعيم لا يتم إلا بشهود الحق ، وفقدان ذلك عذاب لا يتحقق إلا بالحجب عنه ، فاعتبر به لا بغيره .

⁽١) نى ت : وبىزلىم .



- * الحجاب ماصح العذاب ٠٠٠
- ولا يتم النعبيم الا برؤية المنعم ٠٠

قال رضى الله عنه : النعيم وإن تنوَّعت مظاهره إنما هو بشهوده واقترابه .

قلت: النعيم التذاذ يصحبه فرح وسرور بالملتد به . ومظاهره بما يتجل فيه وبه من الفوائد والعوائد وغيرهما مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين في هذه الدار وفي تلك الدار ، ولا كمال له ، بل ولا صحة إلا بوجود الهناء ، ولا هناء إلا بشهود منته نعالى وشكره على نعمته ، والنظر إلى وجهه الكريم في هذه الدار بالبصائر وفي تلك الدار بالأبصار لأن كل نعمة لاتشهد فيها المنة يكون صاحبها مفتونا بها من حيث وصلت له ، ومن حيث خوف زوالها ، ومن حيث الاشتغال بأسباب غيرها . وكل نعمة لايصحبها الشكر فهي إلى الزوال أقرب ، والعقوبة فيها وبها ومعها أظهر ، وكل نعيم غاب منه الحبيب فأي عبرة به ؟ أم أي فائدة فيه ، ثم لولا تجلّيه تعالى بإحسانه ما صحّ نعيم لمنعم أبدا . فافهم . ثم ذكر المؤلف ظهور الضد في النقيض وهذا العذاب في الحجاب ما فقال :

والعذاب وإن تنوعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه .

قلت : لأن مشاهدة المعذّب مع العلم بجلاله وكماله تُنسى ماهو فيه من التعذيب ؛ فقد روى أن رجلاً ضُرب تسعة وتسعين سوطاً ، فما صاح ، ولانأوه ولااستغاث ، فلما ضرب الواحدة التي بها تمام الماثة صاح واستغاث فقيل له في ذلك . فقال : العينُ التي ضربت من أجلها كانت تنظر إلى في التسعة والتسعين ، وفي الواحدة حجبت عَنّى » وشاهد ذلك قوله تعالى (فَلَمّا رَأَيْنَهُ

أَكْبَرْنَهُ .. الآية) قال في «التنوير»: «ولو أن الحق سبحانه تجلّى لأهل النار بجماله وكماله لغيَّبهم ذلك عن إدراك العذاب ، كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة ماطاب لهم النعيم ؛ فالعذاب إنما هو وجود الحجاب . وأنواع العذاب مظاهره . والنعيم إنما هو وجود الحجاب . وأنواع العذاب مظاهره . والنعيم إنما هو بظهور التجلّى . وأنواع النعيم

مظاهره . وهو عين ماذكر هنا وتممه بـأن قال :

فسبب العذاب وجود الحجاب ، وتمام النعيم بالنظر إلى وجه الكريم .

قلت : يقول : لولا الحجاب ماصح العذاب ، ولا يتم النعيم إِلَّا برؤية المنعم . وظاهر كلامه أن الحجاب شرط في حصول العذاب ، وأن رؤية المنعم شرط في عام الله علم النعيم لا في وجوده .

⁽١) في ت (في كمال النعيم) .

ولذلك فى بعض النسخ ، «لشهوده» باللّام «وبوجوده» بالباء ، ثم فى رؤية المنعم فى النعمة كرامات ثلاث : أولها : الراحة من كلفة مقابلة الخلق ، والالتفات إليهم ، والعتق من مِنتهم والنظر إليها . الثانى : سرور القلب وفرحه بالله وذلك مفتاح المعرفة ودرك الإنابة . الثالث : الخروج من عهدة التقصير بالقيام بواجب الشكر ولو معرفة منته (١) تعالى وفضله ، وفى عدم رؤيته ضد ذلك ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

ما تجده القلوب من الهموم والأُحزان فلأُجل ما مُنعت من وجود العيان .

قلت: الهموم ما يلحق القلب من الكُرب لِما يُتوقع. والأَحزان: ما يلحقه لأَجل ماوقع، فبساطهما توقَّع مكروه، أو فوت محبوب، وذلك لايكون إلَّا مع فقدان الحقيقة، وعدم النظر للأقدار؛ لأَن من عاين التوحيد حصل على التسليم والرضا؛ فلا يبقى له هم ولا غم أبداً. قال الله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبة في الأَرْضِ وَلا في أَنْفُسِكُمْ إلَّا في كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْر أَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسيرٌ، لِكَيْلا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلاَتَصْرَحُوا بِما آتَاكُم .. الآية)(٢) ولذلك قال الشبلي رضى الله عنه: «من عرف الله لايكون عليه غم أبدا» وقال سرى السقطى رضى الله عنه: «من عرف الله لايكون عليه غم أبدا» وقال سرى السقطى رضى الله عنه: «من عرف الله الله الله الله عنه والأحمق يغدو ويروح في لاش (٣) والعاقل عن عيوبه فتَاشُ» انتهى وهو عجيب. وإنما الهموم والأحزان غالباً لفقد الدنيا ووجودها. فكثيرها عيوبه فتَاشُ» انتهى وهو عجيب. وإنما الهموم والأحزان غالباً لفقد الدنيا ووجودها. فكثيرها عيوبه فتاش ، وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال:

من تمام النعمة عليك أن يرزقك مايكفيك ويمنعك مايطغيك.

قلت: يرزقك الكفاية فلايشوشك بالفقد، ويمنعك الزيادة لئلا يشغلك بالوُجْد، بل تكون سالاً من إقبالها وسالاً من إدبارها، فني الكفاف كرامات ثلاث: الراحة من التعب جلباً ودفعاً، والتفرغ للخدمة قالباً وقلباً، وتحصيلُ الشكر والصبر في حالة واحدة؛ ولذا قيل: «إنه أفضل من الغني مع الشكر ومن الفقر مع الصبر، حتى سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ولعباله وآله وكذا إبراهيم عليه السلام حيث قال: ربَّنا إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيتِي بِوَادِ غَيْرِ ذي زَرْع عِنْد بَيْتِكَ المحرَّم (٤) .. الآية) اختار لهم محل قلّة الدنيا ليقيموا الصلاة، وطلب لهم الأنس والشمرات لتحصيل الشكر على الكفاية. ومن مصائب اتساع الدنيا كثرةُ الأحزان كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

11

⁽١) وفي تــ (ولو لم يكن إلا بمعرفة منته سبحانه) (٢) آية ٢٢ من سورة الحديد .

⁽٣) لاشيء.

⁽٤) وتمام الآية : ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفتدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون ॥ .

لِيقلُ ما تَفْرِح به يقلُ ما تحزن عليه .

قلت : وليكثر ماتفرح به يكثر ماتحزن عليه ؛ لأن الحزن بالفقدان على قدر الفرح بالوجدان. وقد حكى أن بعض الملوك أهدى إليه قدح من فَيْروزَج مرصّع باللّر والياقوت ، فقال لبعض المحكماء عنده : ماتدرى هذا ؟ قال : أراهُ مصيبة وفقراً !! قال : وكيف؟ . قال : إن انكسر القدح كان مصيبة لاجبر لها ، وإن شرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يُحمل إليك في أمنٍ من المصيبة والفقر . . فاتّفق أن انكسر القدح في بعض الأيام فعظمت مصيبة الملك وقال : صدق الحكيم ، لبته لم يُحمل إلينا ، اه ومن أعظم ما يُفرح وجود الولاية وتحتها مصيبة العزل عنها أو عزلها عنك كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

إِن أَردت أَن لاتُعزل فلا تتولَ ولاية لاتلوم لك .

قلت : ولا يأت اللغيا كذلك ؛ لأنك منها بين إحدى ثلاث : إما أن تُعزل عنها بالحياة وهي أكبر المصائب ، أو تذهب عنها بالموت ، وهو أمر لايد منه ، أو تكون لك جارية على غير مرادك وهي مصيبة حاضرة والعاقل لا يعدل بالسلامة شيئاً . فوجب أن تعزل نفسك قبل أن تعزل بأن لاتدخلها بنفسك ولا لنفسك وتكون فيها غير منشبع بها . وعلامة ذلك ثلاث : ألا تقبلها إلا لأمر تخشاه ديناً أو دنيا بعد الفرار الصادق ، وأن تلازم فيها الحذر والإشفاق ، وأن يكون الخروج منها أشهى إليك من الإقامة فيها . وإنما يدعوك إليها ما ترغب فيه من فوائدها ، وهي آيلة لفند ما يوجد منها ، وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال :

إن رغَّبتك الهدايات زمَّدتك النهايات .

قلت : يتمول : إن رغبتك البدايات بحصول الفوائد زهدتك النهايات بوقوع النوائب ، أن رغبتك البدايات بتحصيل أ إن رغبتك البدايات بتحصيل ما تريد زهدتك النهايات بالوقوع فيا لاتريد . ثم قال :

إن دعاك إليها ظاهرٌ نهاكُ عنها باطن.

قلت : إن دعاك إليها ظاهر اغتراراً بصورته ينهاك عنها باطن اعتباراً بحقيقته ؛ لأن ظاهرها غِرَةً وباطنها عبرة ، والله در أبي موسى الثقني رحمه الله حيث يقول : أف للإشتغال بالدنيا : إذا

أقبلت ، وأف لحسرتها إذا أدبرت ، والعاقل لايركن لشيء إذا أدبر كان حسرة ، وإذا أقبل كان شغلا . وأنشدوا في ذلك :

وقائلة ما لى أراك مجانبا أموراً وفيها للتجارة مسربح ؟ فقلت لها : مالى بربحك حاجة فنحن أناس بالسلامة نفسرح

ثم ذكر المؤلف وجهاً من حكمة الله تعالى فى وسم الدنيا بالأُغيار والأُكدار فقال : إنما جعلها محلاً للأُغيار ومَعْدِناً لوجود الأُكدار تزهيداً لك فيها .

قلت : وذلك لما يبدو لك من نقصها وفسادها وعدم جدواها ، كما اتفق لبعضهم حسبا أخبر عن نفسه إذ قال : تركت الدنيا ؛ لكثرة عنائيها ، وقلّة غنائيها ، وخسّة شركائيها ، وسرعة فنائيها » انتهى . ومعرفة ذلك بالتجربة والذوق أتم من معرفته بالتعلّم والفهم ، وهذا مانبّه عليه إذ قال :

عَلِم أَنك لاتقبل النصح المجرَّد فذوَّقك من ذَواقها ما يُسهِّل به عليك وجودَ فِراقها .

قلت : فهو سبحانه زمّدك فيها بما هي عليه ، وأَكِد ذلك بِما يلابسك منها ، ويكني في ذلك ما قيل :

إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومُها

ففائدة الزهد فيها ثلاث: السلامة من نكدها، والراجة من تعبها(١)، وفراغ الوقت للعبودية (٢) ونحوها، واستفادته من تقلّباتها أتم لثلاثة أوجه، أحدها: أن النفس تتأثر بما عاسها أكثر من غيره فهو عون على تركها. الثانى: أن كثرة الجفاء تقطع أصول المحبة، والدفيا محبوبة بالطبع، فلا يزيل محبّتها إلّا كثرة جفاها. الثالث: أن الماسة في الجفاء أوجع للقلب وأقوى في الحجة وأوضح في المحجة. وقد قال أبو هاشم الزاهد رضى الله عنه: «إن الله وسم الدنيا بالوحشة؛ ليكون أنس المريد به دونها، وليقبل المطبعون إليه بالإعراض عنها، وأهل العرفة بالله من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة مشتاقون» ثم سهولة فراقها عما ذكر إنما هو بحصول العلم الماشر للقلب في شأنها، وهو العلم النافع كما ذكر المؤلف إذ قال:

⁽۱) وفي التيمورية « من كدها ي .

اعلم أن العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعُه ويكشف عن القلب قناعه .

قلت : يبسط في الصدر شعاعة فينبين له كل شيء على حكمه . ويكشف عن القلب قناعه

فيباشر فياعلم (١) الحقيقة قلبُه ، فيقع له الإقبال والإدبار على حكم (٢) ذلك . قال الشيخ أبوعبدالله محمد بن على الترمذي : إن (٣) النور إذا أشرق في الصدر تصورت الأمور حسنها وسيئها ووقع بذلك ظلُّ في الصدر فهو صورة الأمور فيأتي حسنها ويتجنب سيئها فذلك هو العلم النافع من نور القلب وخرجت تلك العلائم إلى الصدور ، وهي علامات الهدى . والعلم الذي قد تعلمه (١) فكذلك علم اللسان إنما هو شيءٌ قد استدعى الحفظ ، والشهوة غالبة عليه قد أذهبت بظلمتها صوقه التتهى وقد جعل الله سيحانه غاية علم من آثر الدنيا إيثارها إذ قال عزَّ من قائل : (فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوكَى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ بُرِدْ إِلَّا الحياة الدُّنيا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْم (٥) . الآية ») وجعل الخشية عنوان العلم ، أعنى الذي يفيد الخشية كما بينه المؤلفة إذا قال :

خير علم ماكانت الخشية معه .

قلت: لأنه مصحوب ععرفة الله، دال على العبودية لله، فهو شريف الأصل والفرع ، والأشياء تشرف بشرف مقاصدها ، ولذلك قيل: فضل العلم لفضل من عُلِم به والله تعالى أَجل معلوم ؛ فالمعرفة به أفضل العلوم ، وإذا كان الله هو غاية الغايات فالمعرفة به أجل العبادات . فعم ، وحقيقة الخشية مهابة يصحبها تعظم، وذلك يقضى لحسن الأدب والمراقبة . قال في «لطائف المنن » : «فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله تعالى وجود الخشية لله ، وشاهد الخشية موافقة الأمر ، أمّا عِلْم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملن لأرباما وصرف الهمة لاكتساما والجمع والادخار والمياهاة والاستكثار فما أبعد مِنْ هذا العلم علمه من أين يكون من ورثة الأنبياء ، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلى الوارث إلى بالصفة التي يكون ما عند الموروث عنه ، ثم قال : ومَثل مَن هذه

⁽١) وفي التيبورية (فيباشر ما علم الحقيقة علمه) . (٢) . في ت (على حكمه في ذلك) .

⁽٣) وزاد في التيمورية بعد قوله الرمذي (العام النافع هو الذي قد تمكن في الصدر ، وتصور ذلك أن النور إذا أشرق . . إلخ)

⁽٤) رَفِي التيمورية (فذلك علم اللسان) .

 ⁽٠) تكميل الآيات : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بمن أهندى ، النجم : ٢٩ . - ٣٠ .

الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة التي تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها ، جعل الله العالم (١) الذي علمه هذه الصفة حجة عليه وسبباً في تكثير العقوبات لديه ، انتهى .

ثم بيَّن وجه خيريته وذكر ضدَّه فقال :

العلم إن قاردته الخشية فلك وإلا فعليك .

قلت : فلك أجره وثوابه (وإلا فعليك إثمه وعقابه وإن شئت قلت فلك نفعه وفائدته وإلا فعليك ضره وآفته) وإن شئت قلت : فلك محجة ، وإلا فعليك حجّة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والقرآن حُجة لك أو عليك ، كل الناس يغلو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها (٢) ... الحديث) وإنما كان الأمر كذلك لثلاثة أوجه : أحدها : أن الخشية تحجز عن العصية والقبائح ، وتدعو للمحاسن والمصالح ، وفقدها ينفي ذلك ، لاسها مع وجود العلم المؤيد بالتأويل ، ولذلك قبل : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق . الثانى : أن الخشية توجب التحقيق في التحصيل ، والنصح في التوصيل ، والإنصاف في المذاكرة ، وفقدها ينفي ذلك لاسها مع غلبة الموى والشهوة على العقل ، والعلم والهيان (٢) ، الثالث أن الخشية تحمل على طلب الآخرة وإرادة وجه الله بالعلم في جميع وجوهه ، وفقدها ينفي ذلك وهو رأس الآفات والعلل ، وقد قال الفضيل رضى الله عنه : العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يُهرئ غيره ، انتهى .

ومن علامة الخشية قلَّة المبالاة بالخلق في إقبالهم وإدبارهم فلذلك قال :

مَى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو وجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك .

قلت : منى تألَّمَتْ نفسك بإدبار الخلق عنك وعدم إقبالهم فانظر لما ذبمت به أو فُرَّ عنك

⁽١) وفى ت : جعل الله سبحانه علم من هذا وصفه حجة عليه .

آ (٢) روى الإمام مسلم فى صحيحه ، عن أبى مالك الاشعرى قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ العلهور شطر الأيمان ، والحمد قه تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد قه تملأ الميزات والأرض ، والصلاة ثور ، والعبدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نقسه فيعتقها أو موبقها ، وفي شرح الكلمة الأخيرة يقول الإمام النووى : كل إنسان يسعى بنقسه ، فهم من يبيعها قد تعالى ، بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومهم من يبيعها الشيطان والهوى باتباعهما، وقويقها أي يهلكها . واقد أعلى .

⁽٣) وفى ت (مع غلبة الشهوة فائها تنطى العقل والعلم والبيان) .

من أجله ، فإن الله تعالى يعلم منك وجوده ، فارجع إليه بالتوبة والإنابة واللجوء والاستغفار نظراً لأن ألسنة الخلق أقلام الحق ، وأقلامه مسلّطون عليك عا وقع من الذنب ، وتنبّه في ذلك لستر الحق سبحانه وتعالى إذ يُجرى عليك مالا تعلمه من نفسك بسبب تلبسك عوازيه فلاتقف مع صورة عارميت ، بل انظر إلى ما يدور عليه كما إذا رميت مثلاً بالزنا وأنت برىء منه فانظر إلى الغيبة فإنها موازية له ، عقوبتها من نوعه ، فقد تكون عقوبتُها بذكره . وإن كان ما وقع لك لاتجده من نفسك فارجع إلى مولاك بالكفاية عن علم غيره ، وقل بلسان حالك ومقالك : أنت تعلم برائخ وكني بك وكيلاً كفيلاً ، وارجع إليه في الدفع عنك عبودية ونضرعاً ؛ لأنه المقصود بابتلائك، بذلك قال أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : لاتنشر عملك (١) ليصدقك الناس ، وانشر عملك ليصدقك الله . وإن كان الأمر لعلة موجودة فعلة تكون بينك وبين الله من حيث أمرك خير من علة تقطعك عن الله علم ذلك علم قال ذلك علم قال والعقاب ؛ إذ لا يُخاف ولا يُرجى إلا من أجل الله ، وكني بالله صادقاً ، وكني بالله عالما ومنى بالله هادياً ونصيراً ؛ هادياً بديك وجدى بك وجدى إليك ، ونولياً يواليك ، ويوالى بك ولايوالى عليك » انتهى ونصيراً يصرك وينصر على الاكتفاء بعلم الله والقناعة بعلمه وهو رأس الفضائل ، وللعكس العكس ، كما قال :

إن كان لايقنعك علمه فيك فمصيبتُك بعدم قذاعتك بعلمه أشدُّ من مصيبتك بوجود الأذى منهم .

قلت : يقول فإن لم نكتف بعلم الله وأردت أن بعلم الناس حقيقة ما أنت عليه أدركتك مصيبة الالتفات إلى الخلق فوكلت إليهم ، وذلك من أعظم المصائب وأكبر الآفات والنوائب، ومن أعظم مافيه رجوعك إلى الخلق بدلاً من الاكتفاء بالحق ، ويداخلك من ذلك ثلاثة : الرياء ، والتكلّف ، وعدم الاحترام للجانب الكريم ، فينقلب عزّك ذلاً وغناؤك فقراً ، ويظهر عليك من أسباب المقت مالا مزيد عليه ؛ إذ أشرت إلى الحق وتعلّقت بالخلق ، فقد قال الجنيد رضى الله عنه : «من أشار إلى الحق وتوجه للخلق أحوجه الله إليهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليه » انتهى .

⁽١) وفي التيمورية (علمك) . (٢) وفي ت (علقك) .

وعلامة الاكتفاء بعلم الله ثلاثة : التحقُّظُ من الوقيعة فيمن آذاك ، والقصد في العمل بأسباب الدفع حيث نوجَهت ، والقيام لله بالعبودية افتقاراً فيما أنت به ، ثم ذكر حكمة الله في تسليط الخلائق فقال :

إنا أجرى الأذى عليك منهم كيلا تكون ساكناً إليهم.

قلت : فإن ننبهت لذلك وعملت عليه فأنت مكروم ، وإن غفلت عنه وسكنت إليهم فأنت محروم ، وإن ذوجُّعت بوجوده مع عدم الترك فأنت مرحوم .

ثم من ووائد ذلك _ بعد ماذكر من عدم السكون إليهم _ ثلاث : التحرر من رقّ إحسابهم ، والسلامة من مؤنة القيام بحة وقهم ، والعافيةُ من الفتنة بحبّهم ؛ فقد قيل : السوط أنه من العدوّ سوط الله يردّ به القلوبَ إذا شردت عنه ، وإلّا رقد القلب في ظل العز والجاه وهو حجاب عن الله عظم ،

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : « أوصانى أستاذى فقال : إهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم ، فإن شرهم يصيبك فى بدنك ، وخيرهم يصيبك فى قلبك ، والناس أكثر مما تهرب من شرهم ، فإن شراب فى قلبك ، ولعدو ترجع به إلى الله خير للب من صديق يصدك عن الله ، قال فى « لطائف المنن » : « اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم يصدك عن الله ، قال فى « لطائف المنن » : « اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم أن سلط عليهم المخلق ليطهروا من البقايا ، ولتكمل فيهم المزايا كيلا يساكنوا هذا المخلق باعتاد ولا عبلوا إليهم باستناد . قال : ومن آذاك فقد اعتقك من رق إحسانه ، ومن أحسن إليك فقد استرقك بإحسانه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم (من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا له) كل ذلك ليتخلص القلب من رق احسان الخلق ، وليتعلق بالملك الحق » انتهى ثم ذكر حكمة ذلك بوجه آخر فقال :

أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه بشيء .

قلت : يقول : أراد أن يزعجك من كل شيء بما يجره لك من ذاك الشيء فترجع إليه في كل شيء : تارة باللجوء إليه في دفع بلواه ، وتارة بالفرار منه إلى الله تعالى كما قال الله تعالى

⁽١) دفى التيمورية ; (الصيحة) .

(وَمِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْن لَعَلَّكُم نَلَكَّرُون : فَفِرُوا إِلَى الله (١) فبعل ازدواج المخلق بساط الفرار للخالق . فافهم .

ثم وجه الانزعاج عن الدنيا بنلاث: ما فيها من الأّكدار ، وما فيها من الآثار ، وما تثول إليه من الزوال ، وعن الخلائق بثلاث: الفتنة في اقبالهم ، والأذى في إدبارهم ، والكلف والأهوال في ملابستهم ، وعن النفس بثلاث: اتّباع الهوى فيما يُريده (٢) ، والاعتراض فيما يُطلبه ، والحهل فيما بَختاره . فمن علم ذلك ممن ذكر فرّ منه ضرورة ، وكذا من الشيطان فإنه شرّ كلّه ، لكن للفرار من الكل وجوه أحسنها : الفرار بالعبودية في بساط التوحيد ، وقد ذكرها المولف فها دكر . وافتتح بذكر الخلق والدنيا ، كما نقدم ، ثم ذكر الشيطان فقال :

إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده .

قلت: وذلك بالدوام على ذكره ، واتباع أمره ونهيه ، والقيام بعبوديته وشكره ، ليكفيك إمره (٣) وسي لا تكون له حجة عليك ، بل لا يجد إليك طريقًا ولا محجة كما قال تعالى : (إنَّ عبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهُمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِكُ وَكِيلا) (آية ٦٥ : الإسراء) وقال عزَّ وعلا : (إنَّه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى اللّذِن آمنوا وَعَلَى رَبِهم يَتَوَكَّلُون) (آية ٩٩ من سورة النحل) وقال سبحانه وتعالى : (إنَّ الشيْطَانَ لَكُمْ عَدُو فاتَخِدُوهُ عَدُوا) (آية ٦ من سورة فاطر) وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : و فقوم فهموا من هذا(٤) الخطاب الأمر بعداوة الشيطان فشغلهم ذلك عن محبّة الحبيب فكفاهم من دونه (٥) ، قال مريد لأستأذه : بم تطردُ الشيطان إذا قصدك بالوسوسة ؟ . قال : إنَّا لا نعرف الشيطان ؛ نحن قوم رفعنا هممنا إلى الله فكفانا

 ⁽١) آية ٤٩ ، ٠ ه من سورة الذاريات .

⁽٢) رق التيمورية (فيها تريده . . وتطلبه . . و تختاره) .

⁽٣) أمر الشيطان.

⁽٤) وفى ت (فهموا من الله عز رجل فى هذا الأمر) .

⁽ه) وق التيمورية (. . . فشغلهم ذلك عن محية الحبيب وقوم فهموا وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمجية الحبيب فكفاهم من دونه) .

مَن دونه ، وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال إبليس لربّه عزَّ وجل : ، وعزَّتك وجلالك لا أزال ولاأبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم . قال له ربّه : بعزَّتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استخفرونى ، ثم ذكر وجهًا من حكمة خلق إبليس متعلقًا عرادة فقال :

جعله لك عدوًا ليحوشك به إليه .

قلت : معنى ليحوشك ليردك بالكلية إليه على وجه لا يمكنك الانفكاك عنه . وهذا أحد الأوجه الثلاثة التي ذكرت في خلق إبليس ؛ فإن من كان له حبيب ولا يخشى من اغتيال عدو دونه ليس كمن يخشى عدوه ويعلم قدرة حبيبه . اثانى : إنما على في هذه الدار منديلا للعار تمسح فيه أوساخ النسب (وما أنسانيه إلا الشيطان) من بعد أن نزغ الشيطان بيى وبين أخوتى وهذا من عمل الشيطان . إلى غير ذلك . الثالث : خلقه في مقابلة الرسل : هم يدعون إلى هدى ، وهو بدعو إلى ضلال فيتحيّز الخبيث من الطبّب بالتابع والمتبوع ، جعلنا الله من خير الفريقين بفضله . وقد قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : « إذا كان هو يراك من حيث لا تراه فالله تعالى يراه من حيث لا يرى الله ، فاستعن بالله تعالى عليه » .

وقال أَبو حامد الأَعرج ، رضى الله عنه : ومَن الشيطان حتى بهاب ؟ فلقد أُطيع فما نفع ، وعُصى فما ضرَّ .

وقال بعضهم : « إِنَّ عدوا يراك ولا نراه لشديدُ اللَّ من عصم الله » . انتهى .

ثم ذكر بيان النفس في حركاتها وفائدة ذلك فقال :

وحرَّك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه .

قلت : تحريك النفس بطلب هواها ، وإيثار دنياها ، وكثرة تطلبها ، وعدم الوفاء بعزمها ، وجموحها في جنوحها ، وإقبالك عليه في ذلك بثلاثة أشياء : الثقة فيها ترتجبه ، واللجوء إليه

فيا تتقيه ، والإدابة له فيا ترتضيه : تارة على بساط المضاهدة ، وتارة بوجه من المجاهدة ، وتارة بالرياضة والمنابذة فهى التى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها علما ، كما قاله الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ، وقال أيضاً رضى الله عنه : « أعظم القربات عند الله مفارقة النفس بقطع إرادتها ، وطلب الخلاص منها بترك ما تهوى لما يرجى من حياتها ، وإن من أشتى الناس من أحب أن يعامله الناس بكل ما يريد وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد ، انتهى وبانتهائه تم هذا الباب والله الموفق للصواب .

تنبيه : ومن أعظم آفات النفوس وجود الكبر ، وله وجوه .

په په من کانت بالله بدایته ۰۰ کانت الیه نهایته ۰۰



((لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار الا في غيب الملكوت • • كما لا تظهر أنوار السماء الا في شهادة الملك • •)

قَالَ رضى الله عنه : من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقًا ، إذ ليس التواضع إلاً عن رفعة فمتى أثبتً لنفسك تواضعًا فأنت المتكبّر .

قلت : لفظ التواضع يقتضى (١) منزلة صدر التنازل عنها ، وحقيقته تأبى ذلك ، فمن أثبت لنفسه تواضعًا على ما يقتضيه اللَّفظ فقد أثبت لنفسه رفعة وذلك مناف لحقيقته ، وقد ساق المولّف بعضه معللًا بعلَّته ، موصولاً بنتيجته ، ثم ذكر شأن المتواضع الحقيقي فيُعرَف منه حقيقة التواضع المقصود بالمعنى فقال :

ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع .

قلت : فالتواضع أن لا ترى لنفسك قدرًا وأنَّ كلَّ ما وضعتها فيه من أنواع الللَّة هى مستحقِّه لما دونه ؛ لما هى موسومة به من النقائص تأصيلاً وتفصيلاً ، وقد قال الشبلى رضى الله عنه : « من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب » وقال أبو سليان الدارانى رضى الله عنه : « لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه » . وقال أبو يزيد رضى الله عنه : ما دام العبد ينظر أن في المخلق من هو شرَّ منه فهو متكبِّر ، وقيل: فمتى يكون متواضعاً ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه حالًا ولا مقامًا » (٢) . انتهى .

فإذن التواضعُ من حيثُ اللفظ موضوع لشعور النفس بصفتها (٣) بغير زائد على ذلك . شم له سببان : نظر العبد لأوصاف نفسه ونقصِها ، ونظرهُ لأوصاف ربّه وكماله . والناشيء - الأَحير أَتَمُ من الأَول ، فلذلك رجَّحه (٤) المؤلف فقال :

التواضع الحقيقي ما كان ناشئًا عن شهود عظمته وتجلِّي صفته .

⁽١) وفي التيمورية (. . . يقتضي ثبوت منزلة صدر التنازل عنها) .

⁽٣) وفي ت (ولا مآلا). (٣) والأولى: بضمتها. وفي بعض النسخ يضعفها.

⁽١) رنى التيمودية (وجهه) .

قلت : وذلك بأن يرى كمال الحق تعالى ، وأن كل شيء دونه ناقص محتقر ، فيفنى الكل في جلاله وكبريائه وعظمته ، وقد قال دو النون المصرى ، رضى الله عنه ، : « من أراد التواضع فليوجه قلبه إلى عظمة الله تعالى فإنه يذوب ويصغر ، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه ؛ لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته ، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله نعالى ، فقال في « عوارف المعارف » : إعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه ، فعند ذلك تذوب النفس ، وفي دوبانها صفاوها عن غش الكبر والعجب فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها » انتهى .

فالناس ثلاث : رجل رأى قبح فعله ، فلم ير لنفسه قدرًا ، ورجل شهد قبيح وصفه فلم يشهد لنفسه نسبة ، وهذا أتم الوجوه وأحسنها ، كما أشار إليه الموَّلف إذ قال :

لا بخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف.

قلت: لا يخرجك عن الوصف الحقير النفساني إلا شهود الوصف العظيم الرباني ، ولا يخرجك عن الوصف المنسوب إليك إلا شهود الوصف الحاكم عليك ، لا يخرجك عن وصف نفسك إلا شهود وصفها بحقيقة ما هي عليه حتى لا يبتى لك خبر عنك ؛ فقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضى الله عنه : « من وجد ذوق ذُلّه في ذُلّه فهو متعزز وفيه بقية » وقال الجنيد ، رضى الله عنه : « التواضع عند أهل التوحيد تكبر » قال الإمام الغزالي رحمه الله ، « ولعل مراده : أن المتواضع يثبت لنفسه رفعة ثم يضعها ، والموحّد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئًا حتى يضعها أو يرفعها بالتواضع المتواضع عنها به ، ولها ، وبروية الحق خروج عنها به ، وهذا لا مكن رجوعُه بخلاف الأول ؛ فإنه يسرع انقلابة .

ولمًا كانالمؤمن الكامل مُشاهد جلال ربّه وجماله في جميع أَجواله وأوقاته لم يمكنه انفكاك عن جنابه ، وهذا ما ذكره المؤلف إذ قال :

المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرًا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون حظوظه ذاكرًا .

⁽۱) دن ت (أو يرفعها . . . انهي ، فالتواضع بروية . . .) .

قلت : أراد المونمن الكامل المحقّق بحقائق إيمانه يوجب له ما تحقق به من الإيمان أن برى كل فضل منه من مولاه فيما أسدى إليه من نظره لما وصل إليه وكماله به فلا يشكر نفسه ولا ينظر إليها ، فإذا أطلق الثناء أثنى على مولاه بما هو أهله فى الفقد والوجدان ، وتشغله حقوق الله الواجبة وغيرها من مقتضيات العبودية عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا ، فإن كان ملابسًا للحظوظ فلا يتناولها إلا لأمر الله إيّاه فيها ، وذلك كلّه من بساط حبه لمولاه ، وإيثاره على هواه إذْ يفعل لا لعلّة ولا سبب ، كما هو شأن كل محبّ ، وهذا ما ذكره المؤلف ونبّه عليه بأن قال :

ليس المحبُّ الذي يرجو من محبوبه عِوضاً أو يطلب منه غرضًا .

قلت : وذلك لأن حقيقة المحبة أَخْذُ جمال المحبوب بِحبَّهِ القلب حتى لا تبقى فيه بقية لغير المحبوب ، ويكون ذلك غاية مرغوبه ، بل المحبوب ، ويكون ذلك غاية مرغوبه ، بل يفنى عن نفسه وعن كلّ شيء حتى لا يكون له خَبرٌ عن غير الحبيب ، هذه امرأة العزيز أرادت أن تقول شد على قميصي إزارًا ، فقالت : شد على قميص يوسف ، وأنشدوا في معنى ذلك :

بُنى الحبُّ على الجوْر فلو سمح المحبوب يومًا لسمح^(۱) ليس يُستحسَنُ في حكم الهوى عاشق يطلب تأليف الحجج

ثم طلب الأعواض والأغراض شأن المحبوب لا شأن المحب كما قال :

فإن المحبُّ من يبذل لك ليس المحب من تَبْذُل لَه .

قلت : المحب : من يبذل الروح ويستقلها ، ليس المحب من يطلب الأعواض ، وإن عمل عملاً استقلّه ، ولله در أبي حفص عمر ابن الفارض ، حيث يقول :

مالی سوی روحی ، وباذلُ روحه فی حب من بهواه لیس بمسرف فائن رضیت بها فقد أسعفتنی یاخیبة المسعی إذا لم بُسعف

وقال بعضهم : أول ما يقول الله تعالى للعبد : أطلب العافية والجنة والأعمال . فإن قال ما أريد إلا أنت ، قال له : من دخل من هذا الباب معى فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع المحدوث (٢) و إثبات القدم ، وذلك يوجب لك العدم (٣) « وأنشدوا » في معى ذلك :

⁽١) ر في نسخة الدار (أفصف المحبوب فيه لسمح) .

⁽٢) وفى التيمورية ونسخة الدار (ورفع الحدث).

⁽٣) في نسخة الدار (وذلك يوجب لك ذلك).

اسمح لنفسك إن أردت لقاءنا واحلف بنا أن لا تحب سوانا فإذا قضيت حقوقنا يامدَّعى عاينتنا بين الأَنام عيانا وقيل : المحبَّة نار تحرق البقابا من العبد ، وتُصير حاله للرضا لا للخوف ، حتى لو كان رضا المحبوب في صرف الوجه عنه لكان المحبُّ مطلوبًا بالرضا به . فإن قال :

وأترك ما أهوى لما قد هويته وأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى قيل له : أنت معلول بعروض (١) السخط لنفسك فتُجيب بقول القائل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد في مقام المحبّة إلا حب ورضي ، كما قيل :

فكل ما يفعل المحبوب محبوب : فيقول حقيقة المحبة تدعو إلى طلب الوفاء ورضا المحبوب في غير ذلك فيقال الوصل حظك والرضى حقَّه ، وهو أولى بك منك ، فافهم .

ومن أحكام الحب طلب الوصلة ، والقرب برفع الأستار والحجب وذلك بالسلوك والسير . ومداره على قطع عقبات النفس من غير زائد ، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين .

قلت : ميادين النفوس مجالاتها التى تتردد فيها . ومدارها على ثلاثة أمور : طلبُ المحظوظ بالغفله ، واتباع الوهم من غير تحقيق ، وصريحُ الدعوى من غير حقيقة . فننى الغفلة بالتقوى ، ثم بالاستقامة ، وننى الأوهام (٢) بالتصبر والاتباع ، وننى الدعاوى بالمعرفة والتحقق ، ولكل منها سير يخصه ؛ فالسير فى الغفلة (٢) الأولى بالحذر والإشفاق ونتيجتها الورعُ والتحفيظ . والسير فى الثانية بالعلم والاستبصار ونتيجتها ننى الغلط بالتحقيق والتفحظ فى التوسيع والتضييق ، والسير فى الثالثة بالانحياش إلى الحق والفرار من الخلق ، ثم لا تُبالى فى أيها وقعت ما لم تُهمل والشير ى ؛ فإن كلّ واحدة منها تدعو لباقيها ، وإهمال واحدة خَلَلٌ فى التى تلبها . والله أعلم .

وإنما كان الأَمر على ما ذكر لأَن الحق سبحانه ليس ببعيد ولا محجوب كما نبَّه عليه بقوله : لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك .

⁽١) وفي نسخة الدار (يتمرض) .

⁽٢) في نسخة الدار (وقف الأوهام بالتبصر) . (٣) وفي ت (العقبة) وكذا في نسخة الدار .

قلت : لا مسافة حسية ولا معنوية ؛ لأن الحسية تقضى بالجهة ، ولأن المعنوية تقضى بالماثلة . والربّ تعالى منزّه عنهما بجلال قدسه . ولا قطيعة حسية ولا معنوية أيضا ؛ لانتفاء النسب والمشابهة في وصفه تعالى . وقد تقدم من كلام الجنيد رحمه الله . متى يتصَّل من لا شبيه له ولا نظير عن له شبيه ونظير ، ولله در الشيخ ألى الحسن النسترى حيث يقول : « أَيُّ وصول ثم أي وصال

أَيُّ وصول ثم أَيُّ وصال كما ليس ثُمَّ انفصال

ولمَّا تكلم الشيخ ابن عباد رحمه الله على هذا الموضع لم يزد أن قال : هما محلان (محالان) لعدم المثلية في الأول وعدم الضدّية في الثاني . شم قال : وهذه الألفاظ التي عبر بها المولف من السير وَالميادين والرحلة والوصلة ، وفي معناها : السير والسلوك، والذهاب والرجوع ، وهي عبارات استعملها الصوفيه في أمور معنوية تنجوزوا بها عن أمور حسية ، ومرجع ذلك إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير ، انتهى .

وهو محتاج إليه في بابه . ثم اعلم أن الطريق منحصر في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بجمع الحقيقة للشريعة ، إلا أن مسالكها مختلفة بحسب الوجوه والتوجهات ، وأعلى المسالك السلوك بالهمة . وقد ذكر شرف الروحانية ، فلتطلب أشرف متعلقاتها وهو فتح أبواب الغيوب ؛ لأن ما دونها راجع لأنواع المحسوسات ، كما ذكر المؤلف إذ قال :

جعلك في العالم المتوسط بين مُلكه ومَلكُونه ليُعلَّمك جلالة قدرك بين مخاوقاته وأنك جوهرة منطو عليها أصداف مكوناته(١) ، وسعك الكون من حيث جسمانينك ، ولم يسعك من حيث روحانيتك، الكائن في الكون ولم نفتح له ميادين الغيوب مسجون بحيطاته، ومحصور في هيكل داته

⁽۱) وزادت النسخة التيمورية بمد نوله (تنطوى عليك أصداف مكوناته .

أتول : وذلك يقضى لك برفع الحمة عن الدناءة والجنوح إلى معالى الأمور في جميع الحالات ، لأن من كان من أرفع العوالم لا يصبح له أن يبيع نفسه بأيخس منها نمناً ، فعلم العبد بجلالة قدره في أصل النشأة ينهض قواه لطلب الأمور العليه . وهو أول فدم للمريد الصادق . وبيان كونك في العالم المتوسط ، فمن طريق المني : أنك لست ملكياً محضاً ، ولا ملكوتياً صرفاً ، وإذا كنت كذلك فلك في كل نسبة ، وذلك هو الوسط حقيقة ، ومن طريق الحس فانك في وسط العالم : السموات تظلك والأرض تقا والجهات تكنفك ، والجمادات تدنع عنك ، وأنت جوهر في صدف مكنون ، فانهم .

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله ۽ قرأت ليلة والتين والزيتون ، فكشف لى عن اللوح المحفوظ ، فاذا علقنا الإنسان في أحسن تقويم روحاً وعقلا ، ثم رددقاء أسفل سافلين نفساً وهوى) ا هـ . وكشف هذا المعنى بمثيل له ؛ إذ قال اقد : الأنبياء عليهم السلام يطالعون بمقائق الأشياء، والأولياء بمثلها، والملك عالم الحس والشهادة . والملكوت: عالم النيب والمماذ

قلت : ميادين الغيوب : مجالاتها ومدارها على اسرار العبودية . وأنواع المعارف والعلوم الإلهامية التى من لم يفتح له بابها ولا ظهر له جنابها لم يزل فى الحضيض الأسفل وإن كان فى أرفع درجات العبادة والعلم ، وهى أمور لا تتناولها العبارة ولا تبين عنها الإشارة ، لكن تدرك من وراء الستارة ، من سُترت(١) فيه ظهر عليه سرها وهو سيماء العارفين ، أو بهجة المحبين ، ومن لم تحصل له فهو مسجون بمحيطاته الجسما نية من الأكل والشرب والجماع والإقبال والإدبار ، ومحصور فى هيكل ذاته النفسانية بطلب الأعراض واتباع الحظوظ والأغراض، وإذا فتحت الك ميادين الغيوب فَلْتَرق بممتك لأعلاها ، وهو معرفة الحق سبحانه ، والكون به وله ، لا الشيء دونه ، ولا لشيء سواه ؛ فإن كل شيء دون ذلك روحانيًا كان أو غيره نقص وبخس إذ لم يصل بالحقائق ولم يتحرر من رقً الخلائق ، كما أشار إليه المولف إذا قال :

أنت مع الأَكوان ما لم تشهد المكوِّن ، فإذا شهدته كانت الأُكوان معك .

قلت : فَرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك ، هو أنك في الأول تنظر إليها عند احتياجك وغيره ، وفي الثاني تعرض عنها بالإقبال على مولاك ، فمن احتاج لشيء فشغل سرّه به وجودًا أو عدمًا ، وتحصيلاً أو غيره فهو مع ذلك الشيء ؛ لأنه له . ومن احتاج اشيء فتوجه لمولاه في تحصيله أو نفيه ، أو نظر لتصرفه فيه ونحوه ، كان ذلك الشيء معه ؛ عمى أنه معين له على ما يريده من التوجه والإقبال على مولاه ، وما دعاه لذلك إلّا ما حصل له من الشهود بخلاف الأول ؛ فإنه في ظلمة الأسباب بالفقد والوجود ، فقد قال الشبلي ، رضى الله عنه الشهود بخلاف الأول ؛ فإنه في ظلمة الأسباب بالفقد والوجود ، فقد قال الشبلي ، رضى الله عنه الله عنه و لا يخطر الكون ببال من عَرَف المكون » . وسئل سهل رضى الله عنه عن القرت ، فقال :

⁼ والله أعلم. ثم إذا جنحت همة المريد المعانى تعين اله أن يتوجه لأعلاها فيطلب البعنة رما ى معناها ، فيقال اله : اطلب أعلا ما فيها، وهمى الأمور الروحانية ، لا الشهوات الجسانية ، لأن عالم الجسم فاقص بالنسبة إلى عالم الروح وهذا ما فيه عليه فقال : (وسعك الكون من حيث جسافيت حساً لأن هواه و ما ى معناه : الكون من حيث الجسافية حساً لأن هواه و ما ى معناه : فلك عيط بك ، وقوام الجسمانية متوقف عليه ؛ إذا لا بد لها من قوام ، و هو خارج منه لا عنه ، وغاية الذات الجسم مقصورة على الكون لا تتعداه ، و لم يسعك من حيث الروحانية لأنها عمل العلوم و المعارف و الأسر ار و نحوها باتساع النظر وغيره ، وهو اوسم من الكون ؛ إذا تتعلق العلوم و المعارف و و أماره و غير ذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فاطلب كمال ما وسعت به الكون ، لأنه اعلا ، لا ما وسعه الكون مثك نانه أدنى فأنت بالروح لا پا لجسم إنسان

ثم إذا عرفت شرف الروحانية فلتطلب اشرف متعلقاتها وهو فتح أبواب الغيوب ؛ لأن كل ما دونها راجع لأنواع المحسوسات كما ذكره فقال : الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته) . اقول : ميادين الغيوب . . . إلخ .

^{﴿ (}١) وَفَي يَعْضُ النَّسِخُ ﴿ مِنْ سُرِتُ فَيْهِ ﴾ .

هو الحى الذى لا بموت ، فقيل: إنما سألناك عن الغِذَاءِ !! قال الغذاء الذكرُ ، فقيل له: انما سألناك عن القُوام : فقال : القوام العِلم ، فقيل له : إنما سألناك عن طعمة المجسد قال : دع من تولّاه أولاً يتوله آخرًا (أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردّت لصانعها فهو العالم بإصلاحها) انتهى .

ثم هذا آخر المجاهدة في مراتب الوجود ، وهو أول مراتب الخصوصية التي هي المعرفةُ والمشاهدة ، وهو موقف يتوهّم فيه نفي البشرية وليس بصحيح . فلذلك تكلّم عليه بأن قال :

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية .

قلت : وإن صبح وجود سترها وتغطيتها لأن البشرية أمر ذاتى ، والذاتيات لا زوال لها ، والخصوصية أمر عارض ، والعارض لا يدنى الذاتى وإن ستره ، فقد تقدَّم من كلامه : (سبحان من سَتَر سر الخصوصية في عين البشرية) . ومن (١) تقريره : أن ظهور الخصوصية في عين البشرية وسترها مها ، فانظرها هناك .

ثم ذكر مثَالًا واضحًا في معنى الخصوصية والبشرية فقال :

إنما مثل الخصوصية كإشراق شمش النهار ظهرت في الأُفق وليست منه .

قلت : فالخصوصية ظهرت في عوالم الإنسان وليست منه ، فظهر للجاهل أنها أذهبت وجود البشرية ، كما يظن الغبي أن شمس النهار أذهبت ما في الأَفق من ظلمة الليل ونحوه ؛ لكنها سترته بضوئها كما سترت الخصوصية البشرية يظهورها كما قال :

تارة نشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبضها عنك فيردُّك إلى حدودك .

قلت : فإذا طلعت شمس الأوصاف عليك ظهر فيك من الغنى والعز والقدرة والقوة ما يقتضى أن العالم كله في قبضتك ، ولا قدرة لشيء على مقابلتك ، وإذا ردّك إلى حدودك ظهر عليك من الفقر والذل والعجز والضعف ما يوجب تلاشيك ؛ فإن كنت تام العبودية أعطيت كل محل حقّه كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو العارف الكامل ؛ إذ شدّ الحجر بطنه افتقاراً إلى الله تعالى ، وأطعم ألفًا من صاع إظهارًا للغنى بالله ، وإن كانت خصوصيتُه لا تزايله فالأحكام مأخوذة من حركانه صلى الله عليه وسلم ، وبالجملة : فالمدار ما خم به إذ قال :

فالنهار ليس منك إليك ولكنه واردٌ وَرَد عليك .

⁽۱) رق نسخة الدار ومر في تقريره .

قلت : فأعطى كُلًا حَقَّه : النهارُ بالحركة وضده بالسكون كما فعل الخواص رضى الله غنه ؟ وذلك أنه قام ليلة يصلَّى فجاءه الأسد فلم يحتفل به ، فلما كان من الغد سقطت عليه بقَّة فصاح منها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : البارحة كنت مأخوذًا عنى ، والليلة مردودٌ على . وكان بعضهم يشير إلى الحقيقة ، ثم رُبَّى عند باب لا يصلح وقوفه به لحاجة ، فأنشد :

إذا كنَّا به تبهنا دَلالا على كلِّ الحرائر والعبيد وإن كنَّا بنا عدنا إلينا فعطَّل ذلَّنا ذلُ اليهود

ثم للخصوصية بعد ثبوتها معارج تَتَرَقَّى فيها بحسب التجلِّيات ، وقد ذكرها الموُّلف على مراتب فقال :

دلُّ بوجود آثاره على وجود أسمائه .

قلت : فمن نظر اختلاف الآثار وتنوعها دلَّته على معانى الأَساء فحصل له من العرفان بدلك على قدر اتساع نظره ونور باطنه إذ يرى لكل اسم نسبة (١) ، ولكل نسبة وجوها ، ولكل وجه متوجّهات لا مهاية لها . ثم قال :

وبوجود أسائه على ثبوت أوصافه .

قلت : فإذا نظرت في الأساء من حيث المعنى الجامع والأثر الظاهر ظهر لك أنها راجعة لأوصاف الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام ؛ إذ لا يخرج عن ذلك اسم بمعناه وقصده ، فافهم ثم قال :

وبثبوت أوصافه على وجود ذاته ِ

قلت : فإذا نظرت الأوصاف دلَّتك على وجود اللهات ، لا لمعنى منها بل من حيث لزومها لوجودها كما بيَّنه إذ قال :

إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه .

قلت : يعنى أو عثله ؛ لأن المعنى لا يقوم بالمعنى ولا بذاته ، فمعرفة الذات من وراء معرفة الصفات ، ومعرفة الصفات من وراء معرفة الأسماء ومعرفة الأسماء من وراء معرفة الآثار ، هذا على شرقى ، وهو شأن النظار وأهل الإرادة عكس حال العارفين وأهل الجذب كما قال :

⁽۱) وفي التيمورية : إذ يرى لكل اسم نسية وجودها ، ولكل وجه متوجهات لا نهاية لها .

فأهل الجذب ، يكشف لهم عن كمال ذاته .

قلت : وذلك بمعنى أنه يظهر لقلوبهم من جلاله وعظمته وكبريائه ما تذهل فيه العقول والأُلباب ، ولا يدرك بالتعلَّم والاكتساب ، فيوجب لهم تعظيما وإجلالاً وهيبة وأنسا يغيب وجُودُهم به فيه بلا علَّة ولا علم يستشعر(١).

ثم يردهم إلى شهود صفاته .

قلت : وذلك بأن يشعروا بأن من لازم هذه العظمة الاتصاف بعلى الصفات ؛ فاتلتفت (٢) قلوبُهم إليها التفاتاً لا يحسون به حى يجرى معناه عليهم فيحصل فرق فى عين الجمع وهو موضع العلم والمعرفة التفصيلية :

تْم يرجعهم إلى التعلُّق بـأسمائه .

قلت : وذلك أن حقيقة المعرفة بالصفات تسرى بهم للتفصيل فى المعانى فيقواون مثلا : قادر على الانتقام والرحمة والنفع والضر مريد ذلك ، عليم به عظيم فى ذلك ، وفى حياته ورحمته وأسائه ، ثم كذلك فيخرج بهم تعريف الأسماء من الصفات :

ثم يردهم إلى شهود آثاره .

قلت : بأن يسرى لهم من كل اسم ظهور نسبته فى الوجود ، فينظرون آثار الرحمة متنوعة ، ووجوه الانتقام متعددة ، وكذا سائر الأسماء مع التداخل ، فينظرون الخلق عا أبدى عليهم الحق ، وحينئذ لا يُهملون حكمه ولا يُفردون حكمًا ويدخلون الشريعة من عين الحقيقة . هذا مع أنهم لم يفارقوها فى حال ، لكن بساط التوجه مختلف، يعرف ذلك من نازله ، ويفهمه من تحقق ، وربنك الفتاح العلم ، ثم قال :

والسالكون على عكس هذا _

قلت : يبدو لهم اختلاف النسب (٣) . ثم يظهر استناد كل نسبة لاسم من الأساء ، أو لعنى من معانيه ، ثم يبدو أن كلَّ الأسماء راجعة للصفات ، ثم يظهر لهم من الصفات عظمة الذات الكريمة وهي غاينهم كما قال :

⁽١) في ت (يغيب وجودهم به نيه ، بل علمه ، ولا علم يستشعر به) .

⁽٢) وفي نسخة الدار (فتلتفت) .

⁽٣) وفي نسخة الدار (قلت : يبدو لهم اختلا ف الآثار فيعلمون به امحتلا ف النسب) .

فبداية المجذوبين نهاية السالكين ، وبداية السالكين نهاية المجذوبين .

قلت: المجذوب: هو المأخوذ من نفسه إلى حضرة الحق لا بترتيب ولا تدريج. والسالك: هو الواصل لها بترتيب و دربية. وكل منهما له حظ مما لصاحبه ، وإنما اختلف البساط فقط فكل مجلوب سالك ، ولولا ذلك لكان زنديقًا ، وكل سالك مجذوب ؛ إذ لولا عناية الله له ما أخذ في السلوك ، وقد قال تعالى : (الله يَجْتَبِي إليه مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إليهِ مَنْ يُسِيبُ)(١) ثم هما وإن اختلفا في البداية والنهاية فقد اتفقا في معني التحقق. وهذا ما نبه عليه بأن قال:

لكن لا بمعنى واحد .

قلت : يقول أكن المعنى الذى دخل به المجذوب إلى الآثار ليس هو المعنى الذى خرج عنه السالك لأَجله ، بل خروج السالك عنه بربه لربه ودخول المجذوب فيها بربه ، وبحسب هذا فهما بين داخل وخارج أبدا ، وقد تقع لهما المواطأة فى موقف ما كما قال :

فربما التقيا في الطريق.

قلت: يعنى فى منزل من منازلها ، فيكون هذا مجذوباً فى مشاهدة الصفات نازلاً ، والسالك فى مشاهدتها صاعداً ، وكذلك فى مشاهدة الأسماء فيتفق علمهما ومعازلتهما ، ويختلف بساطهما وتوجههما ولا يمكن فى محل التحقيق إلا اختلافهما مع الاتفاق (٢) فى المقصد، وهو أمر يعرفه أرباب المنازلات ، فلا يدرك منه بالتعبير إلاً طرف يسير . والله أعلم . ثم قال :

هذا في تدلُّيه وهذا في ترقِّيه .

قلت : يعنى أنَّ التقاءِهما لايخرج أحداً منهما عن حكم طريقة ، بل يكون هذا فى تدليه من الحقيقة إلى الحكمة ، هذا فى نرقيه من الأَغيار إنى الحقيقة ، وكلُّ على كماله وبالله التوفيق . وعلامة التحقق فى هذه المنازل وإنما تظهر فى الإيمان باليوم الآخر فلذلك قال :

قلت : أنوار القلوب والأسرار : مايظهر فيها من المعارف والعلوم ونحوها . وغيب الملكوت : الحق إدراكه من حيث الأحكام العقلية ، كما أخير به الشارع صلى الله عليه وسلم من أمر الدنيا

⁽۱) آیه ۱۳ من سورة الشوری .

⁽٢) وفي نسخة الدار (و لا يمكن في محل التحقيق اختلافهما مع الاتفاق في المقصد . . . إلخ) .

والآخرة ؟ لأنه لايعرف نخققه إلا منه ، وبه تظهر قوة الإيمان ونور القاب ونحوهما ، فمن كان إيمانه بالغيب أكمل وأحكم كان نوره وإيمانه أتم ، ومن لافلاء فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحارثة حين قال «أصبحت مؤمناً حقاً» : لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال : كأنّى بعرش ربى قد نصب ، وكأنّى بأهل الجنّة في الجنّة يتنعمُون ، وبأهل النار في النار يتعاوون ، فقال له عليه السلام : (عرفت فالزم ، عبد نوّر الله قلبه . . الحديث) فجعل إيمانه بالآخرة حقيقة إيمانه ، وشهد له بالمعرفة والتنوير ، فافهم ، فأنوار الساء نجوم وأقمار وشموس . وأنوار القلوب علوم ومعارف فأفق هذه مواضع ظهورها وأفق تلك مواضع وجودها . ومما تظهر فيه أنوار القلوب وجود المعاملات وهي أيضاً أفق يبدو فيها من الثمرات ، وتمراتها أفق لما يرجى من قبولها ؛ قلذلك أتبع المسألة بأن قال :

وجدانُ ثمرات الطاعة عاجلا بشائر للعاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً .

قلت: وجدان ثمرات الطاعات: ما ينشأ عنها مما هو ملابس أو مفارق ، كالحياة الطببة وسقوط الخوف والحزن بالسكون إلى الله تعالى ، وظهور الجلالة (۱) بنفوذ الكلمة ، ونحو ذلك مما تقدّم ذكره ، ودليله عند قوله (من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول آجلاً). والبشارة نه الخبر الصادق ، وأكثر استعماله فى الخبر وفى الخبر : «بشروا ولا تنفروا» ، وهى تدل عليه ولاتوجهه ، وإنما كانت بشارة لأنها كرامة من الحق سبحانه والكريم إذا أعطى كمل وإذا خوّل نوّل . ثم مع هذا كلّه فالجزاء وإن كان موعوداً لاينهغى أن يكون بالعمل مقصوداً للااته ، لأن الوعد من بساط الكرم ، والقصد وجود مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا ، وهو إساقة أدب ، وهذا ماتوجه له بأن قال :

أم كيف تطلب العِوض على عمل هو متصدّق به عليك .

قلت : ولو لم يتصدّق به عليك كنت محتاجاً إليه مع عجزك عن تحصيله ، فهو قد دخل عليك من بساط افتقارك فلا يصح لك أن تستغيى به عمن أعطاك إيّاه ، فضلا عن أن نطلب العوض منه ، «بَلِ اللهُ يَمُنُ عَلَيْكُم أَنْ هَدَاكم للإيمانِ إِنْ كُنْتم صَادِقين» (٢).

^{َ (}١) وفي نسخة الدار (الحلافة) .

⁽٢) من سورة الحجرات آية ١٧ .

ثم طلب العوض يفتقر لسلامة المعوَّض من الآفات والعلل . وميزان أعمالك مايليق بأفعالك ، فإن صدقت في توجّهك فصدقك هدية منه لك ، و ذلك لايصح معه طلب الجزاء كما قال : أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مُهديه إليك .

قلت : والفرق بين الهدية والصدقة ثلاثة أمور : أحدها : أن الهدية لاتكون إلا بالشيء النفيس ، والصدقة تكون بكل شيء الثانى : أن الهدية للمحبوبين والصدقة للمحتاجين . الثالث : أن الهدية كرامة ، والصدقة مرحمة ، وجذا يظهر لك أن العمل آكد من الصدق والصدق أنفس من العمل ، وقد قال عليه السلام «إنما أنارحمة مهداة» فقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : الأنبياء لأمهم عطية ، ونبينا صلى الله عليه وسلم لنا هدية ، وفرق بين الهدية والعطيّة : «الهدية للمحبوبين والعطية للمحتاجين» ثم الناس في التوجّه بالذكر الذي هو روح العمل قسمان ذكرهما المؤلف بأن قال :

قلت: فالذى يسبق ذكره نوره هو الذى ذكر ليستنير قلبه ، وهو السالك الطالب ، والذى يسبق نوره ذكره هو اللخلوب الواصل . يسبق نوره ذكره هو الذى صار ذاكراً اضطراراً لقوة الوارد عنده ، وهو المجلوب الواصل في وقد ذكر هذا المعنى قبل هذا حيث قال : (اهتدى الراحلون له بأنوار التوجّه ، وألواصلون لهم أنوار المواجهة ، فالأولون للأنوار ، وهؤلاء لا أنوار لهم ، لأنهم لله لالشيء دونه) وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه ، : «قوم وصلوا إلى كرامة الله بطاعة الله وقوم وصلوا لطاعة الله بكرامة الله ». وقال شيخنا أبو العباس الحضرى، رضى الله عنه : «والتفرقة مع الجمع أقوى مقاماً من الجمع مع التفرقة » انتهى .

وفى هذا الكلام دلالة على أن المجلوب أفضل من السالك ، وللناس فيه كلام ذكره فى «لطائف المنن» ورُجِّح أنه أتم ، فانظره . وبالله التوفيق .

ثم ذكر أن كل مجلوب سالك ، وكل سالك مجلوب فقال :

ماكان ظاهوُ ﴿ كُرِ إِلَّا عَن بِاطْنِ شَهُودُ وَفَكُر ِ

قلت : فالذاكر ليستنير قلبه لولا تجلَّى الحقيقة لقلبه ما آثَر الذكر لاستنارته ، ولولا فكرته التى حصلت له ماتوجّه لذلك ، والذى قد استنار قلبه إنما هو من مشاهدة الحق به ، وماكان أ

ذاكراً إِلَّا لداعية الفكر الحاصلة له فلابدً لكلِ من شهود وفكر ، إِلَّا أَن الأَول فكره أصل ، وشهوده تابع ، وبالعكس الآخرُ . والله أعلم . ثم الذكر والفكر إنما هما جاريان عن الحقيقة المودعة فى أصل النشأة حيث الميثاق . وهذا ماذكره المؤلف بأن قال :

أشهدك من قبل أن استشهدك .

قلت : فشهو دك (١) موجود من قبل أن استشهدك على أنه ربك وذلك يوم الميثاق (٢) يوم ألست بربكم . لأن هذا خطاب مواجهة ومعاينة تقتضى الإشهاد والاستشهاد . فوقعت الإجابة إذذاك بقوله «بلى» أى : أنت ربنا كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

فنطقت بإلهيته الظواهر .

حيث قالت : «بلي» . قال ابن عباس رضى الله عنه ولو قالوا نعم ، لكفروا ؛ لأَنه جواب النفى المقتضى لإثباته ثم قال :

وتحققت بأحديته القلوب والسرائر .

قلت : لِما عاينت مِن جلاله وعظمته وكبريائه عند اشهاده فتمّت حجته تعالى على الجميع في الحال واستمرت بإثبات ذلك في وجودها إلى مالايزال ، وعليه وقع التقرير (٣) بقوله الكريم : (قالوا بلى شَهِدنا أَنْ تَقُولُوا يومَ القيامة إِنَّا كُنَّا عن هذا غافلين أو تقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاوُنا .. الآية) ولذلك لم يمكن أحد الشكّ في بارِئه ، ولم يُعذَر كافر بجحده على معنى أن العلم بوجوده مركوز في الجبلّة (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَن خَلَق السَّمواتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَّ الله) (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهم لَيَقُولُنَ الله) (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَق السَّمواتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَ الله) (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَق السَّمواتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَ الله) (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهم لَيَقُولُنَ الله) (أَفِي اللهِ شَكُ) (مامن مولود إلَّا ويُولد على الفطرة.) (١)

ثم فى حصول الاشهاد والاستشهاد والشهادة ظهر التكريم بِدَكُره على وجوه ثلاث ، ذكرها المؤلف يأن قال :

أكرمك بكرامات ثلاث ؛ جعلك ذاكراً له ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك.

⁽١) في التيمورية (قلت : أشهدك وجوده من قبل أن استشهدك على أنه ريك) .

⁽٢) هو الميثاق الربانى الذى أخده الله على الناس جميعاً ، وهم فى ظهر النيب ، وفى ظهور آبائهم فى اللحظات الأولى . . هنه بدء الخليقة ، و عند ظهور البشرية لتوسن بوجوده وتعترف بألوهيته عن ذلك يقولى القرآن : « وإذ أخذ وبلك من بنى آدم من ظهور هم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا » . آية رقم ١٧٧ من سورة الأعراف .

⁽٣) وفي نسخة : التقدير .

 ⁽٤) يشفر سياق المؤلف أنه يفسر الفطرة بأنيا الاعتراف بوجود الهالق .

قلت: الكرامات الثلاث كلَّها في ذِكره ؛ الأولى : ذكرك إبّاه ، وهو لايليق بلك من حيث أنت ، ولاتقدر على تحصيله لنفسك ، فحصوله منَّة منه وفضل ، ومَن أَنت حتى تكون محلاً للذكره أو موضعاً لتوفيقه لولا فضله وإحسانه ، وقد قال تعالى : (وَلَوْلاَ فَضْل اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُه مَا زَكَى مِنْكُم مِنْ أَحَد أَبَدًا) (١) وقال عزَّ وجل : (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُه لاتَّبَعْتُم الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً) (٢) وقال عزَّ من قائل : (وَلَوْلاً فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُه وأَنَّ الله تَوَّابُ عَكَم) (٢) عرف فقال : (وَلَوْلاً فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُه وأَنَّ الله تَوَّابُ عَكم) (٢) . إلى غير ذلك ثم ذكر القسم الثاني فقال :

وجعلك مذكوراً به إِذ حقق نسبته لديك .

قلت: وذلك أنك مذكور به ومنسوب إليه في مواقف ثلاث: موقف الخلق ، والاختراع ، والإيجاد ، والإبداع ، وبه يقال أنت عبد وهو ربَّ ومن أنت حتى يكون لك ذلك ، وموقف الستر والتجميل والإمداد ، وبه يقال هو مُعْطٍ وأنت مُعطَى ، وهو منعم وأنت منعَم عليك ، وموقف التوفيق والهداية وبه يقال أنت مُوفَّق (بفتح الفاء) وهو موفق (بكسرها) ، وهو هاد وأنت مهدِي ، ومن أين لك ذلك لولانسبة فعله بك في المواقف الثلاث ، فافهم . ثم ذكر القسم الثالث ، فقال :

وجعلك مذكوراً عنده فتمم نعمته عليك.

قلت : مذكوراً عنده بالتوفيق أُوَّلاً ثم بالثناءِ آخراً إذ قال تعالى : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (ومَن ذكرنى في ملإ ذكرته في ملإ خير منه» ، وأَى نعمة أعظم من ذكر الحق لعبده ، قال الله تعالى (ولذكر الله أكبر) قيل : ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد ربَّه ، وقيل : ذكر الله في العبلاة أكبر مِن ذكر الصلاة ، وقيل : ذكر الله بالتوفيق لها أكبر منهما .

وقد قال يحيى بن معاذ الرازى ، رضى الله عنه : ياجهول ، ياغفول ، لو سمعت صوير القلم يذكرك في اللوح لطبت طَرباً » انتهى .

ثم ذكر وجهاً يترجَّح به المجذوب على السالك ، ويظهر به أن البركة فى العمر خيرٌ من طوله، ولابركة إلَّا بذكر ومعاملة فقال :

رُبُّ عُمر اتسعت آماده ، وقلَّت أُمداده .

⁽١) آية ٢١ من سورة النور .

⁽٢) آية ٨٣ مَنْ سُوْرَة النساء.

⁽٣) آية ١٠ من سورة النور .

قلت : وذلك كأعمار بنى إسرائيل الطويلة ، تعبّدوا أو لم يتعبدوا ؟ لأن هذه الأمة تفضلهم المتعبد ، وغيره لغيره ، وكعمر السالك بالنسبة إلى عمر المجذوب إذا اتحد توجههما ، ثم قال :

وربُ عمر قليلةُ آماده كثيرة أمداده .

قلت : كأعمار هذه الأمة : متعبّدهم وخليهم في مقابلة من مضى من الأمم ، وكذلك المجذوب في مقابلة السالك إذا اتحد بساطهما ، وقد قال أحمد بن أبي الحوارى : دخلت على أبي سليان الداراني رضى الله عنه ، فقال لى : ما جئت به يا أحمد قلت : غبطت بني إسرائيل ، قال : عاذا ؟ قلت : بنانمائة عام حتى يصيروا كالأوتار والحنايا ، وكالشنان (١) الهالية من العهادة ، ققال : ما ظننتك قد جئت بشيء !! والله مايريد الله منا أن تَيْبس جلودنا على عظامنا ، ولا أن نصير كالأوتار وكالحنايا وكالشنان ، فلا يريد إلّا صدق النيّة ؛ هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ماناله ذاك في عمره الطويل » انتهى .

وهو عجيب ، فإذن : العبرة ببركة العمر لا العمر وهذا مانبه عليه إذ قال :

مَنْ بُورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن مِنْ مِنَن الله تعالى مالايدخل تحت دواثر العبارة ولاتلحقه الإشارة.

قلت: البركة: المخير المتدارِك. وبركة العمر بالأعمال والأحوال والعلوم والمعارف، وذلك لايحصل إلا عن جمع وتحقق وعلى نحو هذا قال شيخنا أبو العباس الحضوى رضى الله عنه : من كان (٢٦) يستمد ماشيء ماشيء عدم عدم عدم وجود وجود وجود، والله أعلم» انتهى.

وإنما لا تدخل تحت دواثر العبارة لرقته واتساعه ولاتلحقه الإشارة للطافته وخفائه ، وإذا كان ما عند الله بهذه المثابة فالقعُود عنه من الخذلان لاسيا مع التمكُّن والإمكان . وهذا ما توجُّه له إذ قال :

الخدلان كل الخدلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لاتتوجه إليه وتقل عوائقك ثم لاترحل إليه.

⁽¹⁾ الشق : الجلد اليالى والجمع شنان بكسر الشيق .

 ⁽۲) وفي التيمودية (من كان يستمد من محبرة الجمع فهو يكتب ما يكون وما لا يكون : طويل طويل طويل ، قصير قصير قصير بثيء بثيء بثيء بثيء به ما شيء ما شيء ما شيء عام عام عام عام عام وجود وجود و واقد أعلم .

قلت: الخذلان: صرف الإعانة في مواقف الرشد، والفراغ من الشواغل والشواغب التي هي العوائق أصل كبير في تحصيل الفوائد، فإذا حصل السبب ولم يوجد المسبب فذلك دليل على الحرمان؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ» (۱) يعنى: أن الصحيح ينبغي أن يكون مشغولاً بدين أو دنيا لتهيىء الأمر له، فإذا كان فارغاً فهو مغبون فيا عنده من الصحة إذْ ذهبت به في لاشيء، وهذا أحد التأويلين للحديث. وقد قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه: فراغ الوقت من الأشغال نعمة عظيمة فإذا كفر العبد هذه النعمة، بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجر في قياد الشهوات شوّش الله عليه نعمة قلبه وسلبه ماكان يجده من صفاء قلبه» انتهى.

وعليه يدور التأويل الآخر في الحديث. وإن كثيراً من الناس قد فقد الصحة والفراغ فمن وجدهما فليشكر الله بالعمل الصالح ، فإن لم يشكر فهو مخذول والعياذ بالله . ثم التوجه والرحيل إنما هو بالفكرة في أسباب الانزعاج ، ثم في وجه التوجّه ثم في عظمة المتوجّه إليه ، وذاك بالنظر في المخلوقات بحسب ماتعطيه القوة المودعة والوارد فلذلك قال :

الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار .

قلت: الفكرة هنا التفكّر. والمقصود استعمال الفكر في استخراج المعلومات فهي سيّر القلب أي: مشيّه وانتقاله بالنظر في ميدان أي مواقف. الأغيّار أي: المخلوقات، فالقلب يسير بفكره في الخلائق على حسب مراتبه ؛ فتارة يفكّر في وجودهم فيهديه لموجدهم. وتارة يفكّر في موجدهم فيهنيه لتركهم والإقبال عليه ، وتارة يفكّر في معاملتهم فينظر فيها على وجه يليق به وبهم ، وتارة يفكّر في موجدهم وما أجرى عليهم فيهديه ذلك لعظمته برؤية ماله فيهم ، وفي بعض النسخ «في ميادين الاعتبار» بالتاء الموحدة ، وهو ظاهر ، وكذلك في بعضها «سبر» (٢٠) بالباء الموحدة ويصلح مع الأول والثاني فتأمله. ومجارى الفكر أربعة ، قد تقدمت أول الكتاب ، وقد قال الحسن رضي الله عنه : الفكرة مرآة حسنة تُريك حَسنك من سيئك» وقال الجنيد ، وحمه الله : «أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد» افتهي .

ولعل هذه هي الفكرة التي ساعة منها تعدل عبادة سبعين سنة ، كما في الحديث . ثم قال :

⁽۱) رواه البخاري والترملي وغير هما عن ابن عباس وضي الله عهما .

⁽٢) أي : الفحص والاعتبار .

الفكرة سراج القلب.

قلت : مصباحه الذي عشى به في ظلمة الأغيار فيرى المنافع والمضار ، ويبصر الحقّ والحقيقة أتم إبصار ، بها يصل إلى الإيمان ، وبها ينتهى إلى العرفان ، وبها يترقى في درجات الإسلام والإيمان والإحسان ، ولذلك قال كعب الأحبار رضى الله عنه : «من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر التفكر». وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : «الطريق القصد إلى الله تعالى في أربعة أشياء ، مَنْ حازهن فهو من الصديقين المحقفين ، ومن حاز ثلاثا منهن ، فهو من أولياء الله تعالى المهربين ، ومن حاز واحدة منهن ، فهو من عبادالله الصالحين ، أولها : الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور . الثانى : الفكر ، وبساطه الصبر ، وثمرته المزيد منه (۱) . الرابع : الحب، الصبر ، وثمرته الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصلة بالمحبوب وهو جامع لأصول الخير وغاية التحقيق في شم ذكر ما يوجب فقد الفكرة فقال :

فإذا ذهبت فلا إضاءة له.

قلت: وإذا لم تكن له إضاءة صار شبه الأعمى تارة يخطى و و و و يصيب فيفوته السير وينتي عنه الخير فلا متدى سبيلا ولا يقيم دليلاً ، « و مَنْ لَمْ يَجْعل الله له نورا فما له مِنْ نور » (٢) ، و إنما كانت كذلك لوجوه ثلاثة: أحدها: أنها تبين عن الحق من وجهه ، وعن الباطل من وجهه فتدعو للإقبال على الحق والإدبار عن الباطل . الثانى : أنها تريك الحقيقة تبيانًا حتى كأنك ترى الحق عيانًا ، وفقدها لا يصح معه ذلك . الثالث : أنها تريك كما لك من نقصك ، وحبيبك من عدوك بشواهد ما يجرى عليك وعلى غيرك ، وإذا فقدتها كنت خليًا عن ذلك ، هذا مع أنه لا سلوك ولا سير ولا حقيقة ولا طريقة ولا علم ولا عمل ولا معرفة إلّا بها . ثم ، هي على قسمين ذكر هما المؤلف بأن قال :

الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان .

قلت : وكل من الفكرتين ينقسم إلى قسمين ؛ لأن إضافة كل منهما لما أُضيف له ، إ باعتبار أنه بساطه ، أو باعتبار أنه نتيجتُه ، أو باعتبارهما مْعًا . وهذا أوفى ، وإن كان كل

⁽١) يريد الافتقار إلى الله رهو الشمور الإيمانى بأن الله سبحانه هو وحده الناصر والمعين والموجد والرحيم والرازق . . . وهكذا يصبح الشمور بالاسهاء الإلهية حقيقة واقعة وتلك منزلة من أسمى المنازل الإيمانية . (٢) آية ٤٠ من سووة النوؤ .

محيحاً ، فهى إذن أربعة ، أوّلها : فكرة تفيد التصديق والإيمان وتجرى فى دلائل الصنع طلبا لبرهان الحق وبيان الوجه فيه . الثانية فكرة تجرى ع التصديق والإيمان ، وهى الفكرة فيا دل عليه من لوازمه بعد تحققه كالفكرة فى عظمة الله وشرف نبيه وما جاء من أمر الدنيا والآخرة مما كان ويكون ، الثالثة : فكرة تفضى إلى الشهود والعيان ، وهى الفكرة فيا بهدى لذلك من عظمة الله سبحانه ، ووجوه التصريف الجارى فى خلقه بحكمته وحكمه . الرابعة : فكرة ناشئة عن شهود الحقيقة ومعانيها ، ومرجعها لجولان القلب فى بساط التعظيم والإجلال ، ثم الشهود من إشهاد المشهود وكشف الوجود حيى يرى كلاً بحكمته على وجه لا تقدير فيه ولا قياس ، والعيان رتبة وراء الطمأنينة والبيان . مدارها على تحقق الأمر حتى كأنه رأى عين ، فلا يحتاج إلى دليل ولا برهان ، حتى لقد قال قائلهم فى ذلك مخبراً عن نفسه :

كَبر العيان على حتى أنه صاد اليقين من العيان توهما ثم لكل فريق طريق . ومدارهم فى ذلك على صادق أو صديق ، كما بيَّنه المؤلف إذ قال : فالأولى لأرياب الاعتبار .

قلت : من السالكين ، والمريدين ، والعاملين من المتوجهين والنظار العاملين على قوله تعالى (قُل انْظُروا مَاذَا (١٠ في السمواتِ والأَرْض) (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمواتِ والأَرْض) (٢٠) (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلى اللهِبِل كَيْفَ خُلقت) (٢٣) فيعتبرون بوجودها من حيث هي ، ثم يعتبرون عوجدها من حيث هي ، ثم يعتبرون عوجدها من حيث حُسنُ فعله فيهدهم ذلك لجمال وصفه ، ثم لم يزالوا كذلك حتى يهتدوا لمعرفته عنا أعطاهم من قوة النظر في ملكه ، ثم قال :

والثانية لأَرباب الشهود والاستبصار .

قلت : يعنى الذين شاهدوا الحق فعرفوه ، واستبصروا عن التحقيق فأبصروه ، فكانوا عشون في الخنق تارة بنور الحق ، وتارة بنور الحقيقة . قال شيخنا أبو العباس الحضرمي ، رضى الله عنه : وهولًاء هم أهل هذه المرتبة ، هم القائمون بالله في كل شيء ، وهم معدن أسرار الله في المخليقة ، وعلومهم ومعاملتهم قد ارتفعت عن حجب التقصير والأوراد ، هممهم قد خرقت المخليقة ، وعلومهم ومعاملتهم قد ارتفعت عن حجب التقصير والأوراد ، هممهم قد خرقت حجب أنوار التوحيد ، ونفذت بصائرهم بالنظر في حقائق تجريد التجريد (*) فأنوارهم قد

⁽٢) آية ١٨٥ من سورة الأعراف .

⁽⁴⁾ وفي التيمورية (في حقائق بحر التفريد)

⁽١) آية ١٠١ من سورة يونس.

⁽٢) آية ١٧ ،ن سورة الغاشية .

غلبت (۱) أنوار الوجود ، وسرهم قد ظهر منه شعاع لبعض خواص أهل الشهود ؛ فهم شاهدون مشهدون . وهو الغاية في بابه . وبالله التوفيق .

تنبيه :

هذا آخر أبواب الكتاب . ولم يبق بعده إلا أبواب « مكاتبات » تجرى مجرى الجامع للكتاب وآخرها « مناجاة » فتم الكتاب بأبوابه ، وما يُذكر بَعْدُ واحدًا وثلاثين بابًا ، وربَّما زاد بعض الناس أبوابًا وبعضهم تراجم ، ولا يصح شيء من ذلك . والله أعلم .

وقال رضى الله عنه ، مما كتب به لبعض إحوانه

قلت : وهذا كتاب متضمَّنه السَّير والسلوك إلى حضرة ملك الملوك ، فذكر فيه بداية البدايات ونهاية البدايات ، بعبارة فصيحه واشارة صحيحة أبدع فيها غاية الإبداع ، وأتى فيها بما يثلج الصدور ويبهج به الأساع ، وافتتحها بأن قال :

أما بعد ، فإن البدايات مَجْلاتُ النهايات .

قلت : المجّلات : بفتح الميم وسكون الجيم : ما يتجلّ فيه الشيء ، أى : يظهر فيه ظهور الصور في المرآه . وقد مر من كلام المولف « من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات من أشرقت بدايته أشرقت نهايته » وهو معنى ما هنا .

والمقصود: من كانت بدايته أجمل كانت بهاينه أكمل . . من كانت بدايته أصبح كانت نهايته أصبح كانت نهايته أوضح وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم . ثم قال :

وإن من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته .

قلت : وهذا إفصاح بعين المقصود ، وهو أن من دخل الأشياء بالله كانت نهايته فيها إلى الله تعالى فمن كانت بدايته بالتفويض إلى الله كانت نهايته بالرضا عن الله ، ومن كانت بدايته بالتوكل على الله ، كانت نهايته بالله ، ومن كانت بدايته بالاستعانة بالله كانت نهايته بحسن الظن بالله ومن كان الله له ، ومن كان في الله تلفه ، كان على الله حكفه ، ومن كان لغير الله كان ذلك الغير حظه من الله . كما في الصحيح من قوله عليه السلام : فمن كانت هجرته

⁽١) رَقْ ت (قد ملت) ,

إِنَى الله ورسول فيجرت إلى الله ورسوله (١٠) . . الحديث) ثم التوجه للشيء على قدر شغل القلب مه وهذا ما بيذ بأن قال :

والمشتغل بي عز الذي أحببته وسارعت إليه .

قلت : يتمول الله المسارعة والجوارح لا يشتغلان بشيء إلّا بعد حبّه وعلامة ذلك المسارعة إليه بغير توفّف ، عما قصر جسم عن (٢) همته ، فأول السلوك تمكّن محبة المولى من القلب حتى لا يلتفت بغيره فيكون العبد به وله ، وباختيار من نفسه ، ولذلك قال الشيخ أبو محمد عبد السلام للشيخ أبى الحسن رضى الله عنهما : عليك بورد واحد : إسقاط الهوى ، ومحبة المولى ، أبت المحبة أن نستعمل محبًا لغير محبوبه » انتهى .

ثم الإنصراف عن الشيء على قدر الاشتغال عنه عقابله (٣) ، وهذا ما نبه بذكره بأن قال : والمشتغل عنه هو المؤثر عليه .

قلت: الموتّر (عليه): بفتح الثاء هوالذي أثر عليه غيره، وليس إلّا ضده ونقيضه ، فإذا أردت اشتغال عوالمك عن شيء فآثر عليه مقابله لكي يكون لك خلف منه ، فتنساه ، فمن آثر الآخرة ترك الدنيا ، ومن آثر الله على حظوظه تركها . ومن آثر العبودية لله نسى حظوظ نفسه ؛ فالموّمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرًا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا ، وفيا أوحى الله إلى بعض أنبيائه عليهم السلام « إن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإنهما لا يجتمعان في قلب أبدًا » اه

وأولى ما شغل به القلب جناب المحق ، وبساط ذلك : العلمُ بأنه طالب تعبده ، كما قال : ومن أيْقن أن الله يطلبه صَدَقَ الطّلبَ إليه

قلت : على حسب ما أيقن به من طلبه ، فمن أيقن أن الله يطلبه لعبوديته صدق الطلب إليه في عبوديت ومن أيقن أن الله يطلبه في عبوديت ومن أيقن أن الله يطلبه لقربه صدق الطلب إليه في وجود قُربه ، ومن أيقن أن الله يطلبه لحقوقه صدق لجنّته صدق الطلب إليه بالعمل في تصديق كلمته ، ومن أيقن أن الله يطلبه لحقوقه صدق

⁽۱) هذه فقرة من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن عمر رضى الله عنه عقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما الأعدل بالنبات وإما كذا ادرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبه أو أمرأة ينكحها فحجرته إلى ما هاجر إليه .

⁽٢) ق ت (عن همه) وفي نسخة الدار (نما قصم جسم عن همته) .

⁽٣) وفي نسخة الدار (بما قبله)

الطلب إليه لتحصيل سلامته ، ومن أيقن أن الله يطلبه لكرامته صدق الطلب إليه في تحقيق كرامته .

وصِدقُ الطلب يكون بثلاث : حسنُ العمل ، ودوام اللجوء وصدق التوكل وهو أصلها رأصله العلم باتساع علمه وقدره نعالى ، كما نبَّه عليه المولِّف إذ قال :

ومن علم أن الأُمور بيد الله انجمع إليه بالتوكل عليه

قلت: ورجع بالتفويض إليه ، فالتفويض أصل التوكُل ، والتوحيد أصل التفويض ، وهو العلم المتمكِّن من الصدر بأن الأُمور كلَّها دقيقها وجليها بيده تعالى يعطى من يشاء ما يشاء ء وعنع من يريد مما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأَمره ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ههو المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى ، قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : « قف بهاب واحد - لا لتخضع لك الأبواب تُفتح لك الأبواب ، واخضع للك واحد - لا لتخضع لك الرقاب ، قال الله تعالى (وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه) ا ه فإذا اشتغلت عوالمك بالصدق ، والتوكل فأشغلها عن الدنيا وأهلها بذكر (۱) فناء ذلك وزواله وهذا ما نبه عليه الم ألف إذ قال :

وأنه لابد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه ، وأن تُسْلَب كرائِمهُ .

قلت: وهذا أمر محقق لابدً منه . والآتى قطعا كالموجود فى الحال ، لا سيا وأسبابه متصلة وآثاره ظاهرة ؛ فما من مخلوق إلّا وقد ظهرت فبه مخايل الفناء وما من جديد إلّا وقد حلّ به البلى ، وما من قوى إلا ويعتريه الضعف ثم كذلك ، ويكفى فى وجود (٢) الإنسان قول الله تعالى (الله اللّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضُعْف ثُمَّ جَعَل مِن بَعْد ضعْف قُوَّة ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد قُوَّة ضَعْفًا وَشَيْبَة) (٣) فلا بدّ لكل دعامة من انحلال ، ولابد لكل كريمة من زوال ، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ، وإذا كان كذلك فحق على كلَّ عاقل احتقار أمره ، وتعظيم بارثه ، وفرحه . مما عنده ، بدلاً مما بيده كما نبّه عليه إذ قال :

فالعاقل من كان بما هو أبني أفرح منه بما هو يفني .

⁽١) وفي نسخة الدار : تدر فناء ذلك .

⁽٢) وفي نسخة الدار (وما من قوى إلا ويعتبريه الصعف ويكني في وجوده في الإنسان)

 ⁽٣) آية \$ ه من سورة الروم .

قلت : العاقل : من قام به العقل ، وهو القوة المستعدة لإدراك الأشياء على ما هى عليه ، ومن ذلك أن الباقى خير من الفانى ، وأن الأبتى خير من الباقى ، وإذا أدرك ذلك فرح به ضرورة ، ومن ذلك أن الباقى خير من الفانى ، وأن الأبتى خير وأبتى وفرحه به يستدعى إيثاره بترك ما هو ضد له ، فالدنيا فانية حقيرة ، وما عند الله خير وأبتى للذين آمنوا وعلى ربعم يتوكلون ، فلذلك قال سهل بن عبد الله ، رضى الله عنه : « للعقل ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا » ا ه

ثم هذه الثلاث ، التي هي : الصدق ، والتوكل ، وترك الدنيا دليلَ على تنوير الباطن كما الله :

قد أشرق نوره وظهرت تباشيره

قلت : أشرق نوره : إذْ رأى كل شيء على حقيقة من الآخرة والدنيا ، وأن الأمر بيد الله ، وأنه يطلبه فظهرت تباشيره بأحكام البدايات ؛ إذ صدق الطلب لمولاه ، وأنجمع بالتوكل عليه ، قلم يعرف إلّا إيّاه ، وترك الدنيا لأهلها من غير التفات إليها ولا تعريج عليها ، كما ذكره المولف إذ قال :

فصدف عن هذه الدار مُغْضياً ، وأُعرض عنها موليًا

قلت : صدف : أعرض عن هذه الدار ، يعنى الدنيا وما فيها من أهل ومال وغيره مغضيًا : أى غاضًا طرفه أى مغمضًا له تأكيدًا فى الإعراض مع هروبه وتولِّيه عنها ؛ لما رأى من قيحها فانما هى كما قيل فى وصف الفتنة :

شمطاء حلقت شعرًا لها(١) وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

ولقد رأيت في عالم الخيال امرأة طويلة عليها ثياب حافلة ووجهها لناحية أخرى ، فقلت من هذه ؟ قيل : إنها لا تُرى وجهها لأحد ، فما براه أحد إلا أبغضها!!

وقد ذكر الناس في وصفها شيئًا لا يحصى ، فانظره _ إن شئت _

ومداره على إثارة الإعراض عنها ، وأن العاقل من أدبر عنها إدبارًا كلِّيًا ، من حيث المحقيقة حيث الصورة ، كما نبَّه عليه المولف ؛ إذ قال :

⁾ وفى النيمورية : شمطاء قد جعلت لها وتذكرت مكروهة للشم والتقبيل .

فلم يتخذها وطنًا ولا جعلها سكنًا .

قلت : يعنى أنه رفع همّته عنها فلم يطمئن لها ، ولا سكن إليها ، وإن كانت بيده فهو عمرا عنها لا يعتد عودها ولا يأسف على مفقودها ، ولا يحرص على محبوبها ، ولا يتشبع (١) عطلوبها بل يراها سجنًا ، ويرى نفسه فيها غريبًا ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : (الدنيا سجن المؤمن) وقال عليه الصلاة والسلام : (كن في الدنيا كأنّك غريب أو عاير سبيل (٢)) والغريب لا يتشبع (٣) بشيء ولا يعتد به ، بل عو فيا هو به من غربته وذلّته كما قيل :

ما للغريب وللتَّصابِي (٤) والهوى فكفاه ذُلاً أن يُقال غريب

ومن شأن الغريب أن يدور مع السلامة ، ويُعاملَ بالإنصاف ، ولا يُنازِع أحدًا في داره هذا وغربته في السجن ، وللسجون لا يرى في السجن ما يسرُه ، وينتظر أسباب الهلاك وإن كان يترقّب الفرج ،

ثم لا عِزَّ للغريب إلَّا بربِّ الموضع ، ولا راحة للمسجون إلا بخروجه ، ولا راحة للموَّمن دون لقاء ربِّه (مَنْ كَانَ يُريدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا) فافهم وإذا كان غريبًا فحقه العمل لدار قراره ، والأَّخذ في مرضاة رب المنزل وذلك شأن هذا المريد ، كما بينه بقوله :

بل أَنْهَضَ الهمَّةَ فيها إلى الله تعالى .

قلت : أى بالعمل بما أمره امتثالًا ، والرجوع إليه فيما يريده تفويضاً واتكالًا ؛ لأن حق الضيف أن لا يَعُولَ همّا مع رب^(٥) المنزل ، ويكون له حيث أنزله ، ويقوم معه بمراده ، لا بمراد نفسه ، وذلك هنا بامتثال أمره والاستسلام لقهره ، وملازمة ذكره وشكره وعدم الالتفات إلى غيره . فأصول المخير ثلاثة : حفظ الحرمة ، وحُسن المخدمة ، وشكر النعمة . وأصول الشر ثلاثة : خوف المخلق ، وهم الرزق ، والرضى عن النفس ؛ فالفرار من هذه أصل كل طهارة ،

⁽١) وفي نسخة الدار (ولا يتشعب بمطلوبها) ولعلها - في الأصح - ولا يتشبث .

 ⁽۲) حديث صحيح رواه الإمام البخارى في صحيحه عن ابن عمر رضى الله عهم ورواه الترمذي وزاد فيه : وعدم أهل القبور .

⁽٣) وفي نسخة الدار (والغريب لا ينشرح لشيء).

⁽ع) وفي نسخة الدار (ما للغريب وللتشوق) ـ

⁽a) وفي نسخة الدار (أن لا يعارض رب المنزل) وكذا في التيمورية .

والتحلُّى بتلك أساس كل كمال ، ثم إنهاض الهمَّة مستصحبة (١) للاستعانة ، وهي من صدق التوكل وقد نبَّه عليه بـأن قال :

وسار فيها مستعيناً به في القدوم عليه .

قلت : أَى في هذه الدار بالهمة والبصيرة والأَّفعال ، وفي تلك الدار بالمواجهة والعيان ، فهو مستعين به تعالى في أسباب كماله ونجاته في الدارين ؛ لعلمه أن الأُمور بيذه ، ومصدرها عن قضائه ، ولاعاصم من أمره إلا من رحم ، ولاسبب لذلك إلا الاعتصام به تعالى (ومَن يَعْتَصِمُ بِاللهِ فَقَدُ هُدِيَ إِلِي صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) (آية ١٠١ : آل عمران) فمعاملة العبد في مطالبه بثلاث : التفويض في التبوجِّه أُولاً ، والاستعانة في العمل بالأسباب ثانياً ، والتوكل في تحصيل المقصد آخِرًا ، فإذا تمت له هذه كان بربه لابنفسه ، وإذا كان بربه لم يفته شيءٌ من أمر ربه(٢) ولم يتوقَّفْ له بنيءٌ من طلبه . كما أشار إليه هنا بأن قال :

فمازالت مطيَّةً عزمه لايقرُّ قرارها ، دائماً تُسْيارُها .

قُلْت : العزم نتيجة الهمَّة ، فحيث توجهت كان تبعاً لها ، وهي هنا قد توجُّهت لمولاها بترك ماسواه فأمن عثارها بالدنيا وغيرها ، ودام تسيارها لحصول الأمن في طريقها بربّها . قيل لبعضهم : البيم تطرد الشيطان إذا قصدك بالوسوسة ؟ فقال : إنَّا لاتعرف الشيطان ، نحن قوم رفعنا هممنا إلى الله فكفانا من دونه، وذلك بمعنى أن الشيطان يصير له ملهماً (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تذَكَّرُو١)(٣) فهو لايعرف إلَّا مولاه في كل حركة وسكون ، كلَّما نابه شيء رجع إليه بالضراعة والتوجُّه ، وإذا كان كذلك فلا تزال همَّته في ترقُّ وترحال حتى يصل لموقف التنزيه المطلق كما قال:

إلى أَنْ أَنَاخَتْ بحضرة القدس وبساط الأنس .

قلت : أى أناخت ركاب النفس ومطايا القلوب والأبدان في دائرة التقديس المطلق ، تقديس العبد لمولاه حتى لايعصيه ، ثم حتى لايلتفت لغيره ، ثم حتى لايكون سواه ، ثم حتى لايرى واه ، ثم حتى يفنى عنه ، ثم حتى يفنى في فنائه وعن فناء فنائه ، فيعود عليه ذلك بتقديسه

⁽١) وفى ت (انهاض الهمة ومستنتجة الاستعانة) وفى نسخة الدار (ثم انهاض الهمة والاستعانة بالله من صدق التوكل) .

⁽٣) آية ١٠٢ من سورة الأعراف .

عن العبودية للغير ، والتنزيه عن مخالفة النهى والأمر ، وذلك هو بساط الأنس بالحق سبحانه وبما من جنابه حتى لايكاد يَصْبِر عن مولاه فى نَفس من الأَنفاس ، ويصير لحد للايرى سوى بقاء معروفه ، لالشيء من وجوده . كما قيل :

لوقيل لى : ما تتمنى ؟ والعبدُ يُعطى مناه لقلت مُنية قلبى فى أَن يطول لقاه ولايزال به التعظيم والتقديس إلى موقف العجز الذى لانهاية له ولاغاية ، وفى ذلك مراتب لاتُحصى وإن عرفت مواقفها فلكل موقف أسرار لاتتناهى . وقد ذكر المؤلف هذه المواقف فقال :

محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة .

قلت : ذكر ستة ألفاظ لستة معان متقاربة ، لأتكرك حقائقها والفرقُ بينها إلَّا بالذوق (١) ، ولكنا نذكر منها ما تتناوله العبارة ، لنستأنس به ، وينتنى الغلط فيها فنقول وبالله التوفيق : أمَّا المفاتحة ، فمعناها : المبادأة : مبادأة العبد بما هو فيه على بساط الضراعة وبث الشكوى والمناجاة فيباديه مولاه بمعانى أمائه وصفاته وعَظَمَة ذاته ؛ ليرتاح لذلك وينسى كل شيء به ، وأما المواجهة : فمعناها : المقابلة : مقابلة القلب علاحظة الرب دون التفات لغيره ، ولاغفلة عن ذكره ، فيواجهه مولاه بأنواره ويقابله بأسراره حي لا يمكنه أن يرى سواه ، ولا يشهد إلَّا إيَّاه .

وأما المجالسة ، فمعناها : الملازمة : ملازمة القلب للذكر بلا غفلة ، والخضوع بلا ذُهلة ، والأدب بلا مهلة ، فيكرم إكرام الجليس بالمودّة والتأنيس ، وإليه الإشارة بحديث «أنا جليس من ذكرنى» أى أكرمه إكرام الجليس . وأمّا المحادثة : فمنازلة الأسرار بذكره وإقباله عليها بما يلقيه ويبديه من سر وغيره ، فَيبْسط فيه أنواره ويلتي إليه أسراره ، وإليه الإشارة بحديث : «كان في الأمم السالفة محدثون فإن يكن في أمّتي فعُمرُ منهم » . وأما المشاهدة : فصورة الحقيقة لحدّ العيان ، بحيث لاتحتاج لبرهان ولابيان ، ومرجعها الكشف ، لايصحبها وهم ولايداخلها شك ، وقد قيل : الشهود من إشهاد المشهود وكشف الوجود . وأما المطالعة : فموافقة التوحيد في كل ورد وصدر ، والرجوع إلى الحقيقة المرّة بعد المرة ، بلا تأمّل ولانظر ، فيكون العالم على حكمه ، فلا يبدو شيءٌ إلّا طولع به سره لكمال سره والله أعلم .

هذا ما فهمته من معانى هذه الألفاظ ، والدر من وراء(٢) الصدف ، وليس التصوف بحديث

⁽١) (والفرق بينها باللوق)كما في نسخة الدار .

 ⁽۱) روسر عيه بحد الله عن الأنوار ، ولايد ، ولاين التصرف بحديث يكتنى فيه بالإخبار و لا يفتى بالعلم والعمل فيه عن الأنوار ، ولايد ،
 مثل هذا المنتسبين و المحبين و أهل البدايات) كما في نسخة الدار .

يكتنى فيه الاخبار ، ولا يُغْتَنَى بالعلم والعمل فيه عن الأنوار ، ولابد من مثل هذا(١) للمنتسبين في المحبيين وأهل البدايات ، وبالله التوفيق ، وإذا كانت هذه المواقف للقوم ، فهم بين يدى مولاهم أبداً كما بينه المؤلف إذ قال :

فصارت الحضرة مُعَشَّش قلوبهم ، إليها يأُوون وفيها يسكنون .

قلت: الحضرة: داثرة التقديس المتقدمة ، فالألف واللام هنا للعهد. والمعشش: محل التعشيش أى التوطين (٢) الذى يرجع إليه ، فهم إليها يأوون فى ليل المحن والفتن ، وفيها يسكنون فى نهار العافية ، إليها يأوون فى نهار الحضور وفيها يسكنون فى ليل الغيبة ، إليها يأوون بامتثال أمره وفيها يسكنون استسلاماً لقهره ، إليها يأوون شكراً لنعمته وفيها يسكنون لجوعا لمنته . والحاصل أنهم لايشغلهم عنه شاغل ولايلفتهم عنه ناقص ولا كامل . وهذا مانبه عليه المؤلف إذ قال.

أ فإن نزلوا إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين :

قلت : استعار السماء للحقوق لجلالها ، والأرض للحظوظ لدناءتها ، والنزول إليها إنما هو من عرش الحقيقة ، فالعارف مسكنه عرش الحقيقة ، ولابدً له من سماء الحقوق لحق العبودية وأرض الحظوظ للقيام بحق (٣) البشرية ، فإذا نزل لم ينزل على حكم منزلته منه إلّا بإذن ؛ لأنه بساط الكرامة . والإذن قوة يجدها الولى من نفسه لايشك في حقيقتها ولاشبهة في الوجود تتبعها حالية ولاشرعية . والتمكين شرعي عمني الإباحة ، وعادى بمعني التبسير . وقد يريد أن نزوله لايقد في كماله لكونه متمكناً فيه غير متلون . والله أعلم . والرسوخ في البقين الثبوت فيه ، بحيث لاتؤثّر فيه العوارض ولاتعتربهم الفوادح (٤) ، كما قيل :

لاتهندى نُوبُ الزمان إليهم ولهم على الخَطْب الشديد لجام

وقد قال أَبو على الدقَّاق رضى الله عنه : «من علامات التأييد حفظ التوحيد في أَوقات الحكم » انتهى .

فأولياء الله مع الخلق فيما هم فيه ، لكن لاعلى الوجه الذي عليه غيرهم . وهذا ما أشار إليه اذ قال :

⁽١) وفي التيمورية (ولابد من مثل المقتبسين والمحبين). (٢) وفي نسخة الدار : أي التوكيد .

⁽٣) وفى ت (. . . وأدض الخظوظ للقيام بأحكام الربوبية) .

⁽٤) وفى ت : (ولا تغيرهم القوادح)وفى نسخة الدار : (ولا تفتريه القوادح) .

فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة .

قلت : بل نزلوا للحقوق بالذكر والأدب ، وللحظوظ بالشكر والافتقار ؛ امتثالاً لما واجههم به مولاهم من الأمر في الأول ولما حكم عليهم به من القهر في الثاني ، مستشعرين بقهره وبره فيهما ، ومعتبرين بحكمته وحكمها الجارية(١) عليهما ، فالحقوق تزيدهم فائدة والحظوظ أكبر منفعة وعائدة ، ولولم يكن فيها إلا رجوع العبد لافتقاره وشعوره باضطراره.

واعتبر هذا بقول موسى عليه السلام : (ربّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) ، فطلبه المخير من بساط الافتقار لامن بساط الاحتياج . وإنَّ فَهْمَ هذا من حيث حقائق (٢) المنازلة فى أهل العصر لبعيدٌ ، وربُّك الفتاح العليم ، ثم ذكر المؤلف شأنهم فى ذلك كلّه فقال :

بل دخلوا فى ذلك كلِّه بالله ، ولله ، ومن الله وإلى الله .

قلت : الإشارة بذلك للحقوق والحظوظ ، وقوله : بالله ، يعنى مستعينين وقائمين بالله ، ولله حاملين ومتوجهين ، فالأول حقيقة ، والثانى شريعة . ومن الله رأوا دخولهم لامن نفوسهم ، وإلى الله توجَّهوا بذلك وراحوا به ومنه (٣) فهم به لابهم ولالهم ولامنهم ولا إليهم ، قد شهدوه في الكون ، وعنده ، وقبله ، وبعده على اختلاف مراتبهم . نفعنا الله بهم . ثم قال :

وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق .

قلت : وبذلك تحقق كونه بالله ولله ومن الله وإلى الله ؛ لأنه طلب ماهو المطلوب منه كما أمره مولاه بطلبه ، فهو داخل فيه بالله طالب الصدق لله ، والإدخال والإخراج من الله ، والتوجّه في ذلك كلّه لله ، قال في «التنوير» ، فالمدخل الصدق : أن تدخل لابنفسك ، والمخرج الصدق أيضاً كذلك . ثم قال :

هنا : ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني ، واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني

قلت : فأشهد منتك وبرك في دخولى ، وأشهد حكمك وقهرك في خروجي ؛ إذ متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك مُتَعرِّفٌ إليك ، ومُقْبل بوجود لطفه عليك ، وأن إلى ربِّك المنتهى ، وقد جاء في الحديث «الاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ؟ ولاقوة على طاعة الله إلا بإرادة الله شم قال :

⁽١) وفي نسخة الدار : (ومعتبر ون بحكمته وحكمها الجارىعليه م) . (٢) وفي نسخة الدار : (من حيث الحقائق النازلة فيأهل العصم

⁽٣) وفي لسخة الدار (ورجموا به ومنه فهم به لا بهم).

واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً.

قلت : معنى من لدنك : من عندك ، أى بلاسبب ، وإلّا فالكل منه تعالى . سلطاناً : حجةً ، نصيراً ، معيناً ، مقوِّياً ، ولهذا يشير قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : «اللهم أغننا بلاسبب واجعلنا سبب الغنى لأوليائك وبرزخاً بينهم وبين أعدائك» اه . ومن تتمة معناه في كلامه هنا قوله هنا :

ينصرني وينصر بي ولاينصر عليٌّ .

قلت : ينصرى فى نفسى على كل عدو متصل أو منفصل من نفس وخلق وشيطان وغيرهم لأنى محتاج إلى ذلك (١) وينصر بى من أراد نصرة من مريد أو طالب أو محب أو متسبب أو صديق أو صادق ؛ لأن ضيف الكرام يُضيف ، وليس الرجل من نُصر فى نفسه ، إنما الرجل من نصر به غيرُه ، ومن سأل الكريم فلايفتقر دون ما يحتاجه وإن لم يكن مضطراً إليه ولا يُعظم المسألة لأن الله لا يتعاظمه شيء ، ولا ينصر على أحداً من عوالمي ولاغيرها ، بل أكون فى حماه المنيع من المحن الدنيوية ، والفتن الدينية أبداً ، وهو أكرم الأكرمين.

ثم طلب المؤلفِ نصراً خاصًّا (٢) وهو أعظم أبواب النصر فقال :

ينصرني على شهود نفسي .

قلت : حتى أراها على حقيقة الأمر من كمالها ، فأرفع همنى عن المخلوقات ، وعلى حقيقة الأمر من نقصها فلا ادّعى شيئاً ولا أرى لها نسبة ولا قدراً فبذلك تزكو وترتفع . وبالله التوفيق . ثم قال :

ويُفْنِيني عن دائرة حسّى .

قلت : حتى الأمر ويحصل الكمال والله الموفق للصواب .

تنبيه : إنما نظهر الفوائد وغيرها في معاملة البخلق والنظر للحق عند توجه المنن والمحن. وهذا ماتوجه له في الكتاب بعد أن قال :

 ⁽١) وفى نسخة الدار (. . . إلى ذلك ، وقوله : ينصرب : أى من أراد نصره من مريد أو طالب أو محب أو منتسب أو صديق أو صادق لأن ضيف الكرام لا يضيق) .

⁽٢) وفي لسخة الدار (خالصاً) .

وقال رضي الله عنه فيما كتب به لبعض إِخوانه :

قلت : هذا كتاب ضمّنه اختلافُ النظر في المنَّة ، وأصل ذلك ، وفرعه ، ومادَّته الحالية والشرعية ، فأصل الأصل الذي هو المرجع في الجميع أولاً وذكره بأن قال :

إن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد في مننه، فالشريعة تقتضي أنه لابد من شكر خليقته.

قلت : عين القلب هي البصيرة ، ونظرها في هذا الأَّمر بالحقيقة المعقولة ، وهي من بساط المحكم، (١) والشريعةُ من بساط الحكمة، وكلاهما من رب واحد ، فوجب أن لايتعدى واحداً منهما ، فينظر إلى أن الله واحد في مننه فلاتنسب لغيره ، وهو الذي أجراها على أيدي الخلائق، وجعل شكرهم (٢) عليها عين عبوديته «فيشكروني بشكره كما يذكروني بذكره الأمر منهم، ولا لهم » . فافهم . ثم ذكر أقسام الناس في ذلك فقال :

وإن الناس في ذلك على أقسام ثلاثة :

قلت : يعنى : ناقص ، وكامل ، وواقف بين النقص والكمال فذكر الكامل آخراً والمتوسط وسطا والناقص أولاً فقال فيه :

غَافِلٌ منهمك في غفلته قويت دائرة حسَّه وانطمست حضرة قدسه ، فنظر الإحسان من المخلوقين وليم يشهده من رب العالمين .

قلت : معنى منهمك في غفلته مسترسل فيها ، قائم معها بلا توقُّف ، ودائرة حسه : عوالم جسمه ، فلم يعرف غير مايدور عليها من الأكل والشرب ونحوه من حيث هولامن حيث المنَّة به، وإن شهد شيئاً لم يتعد لغير من واجهه به . وانطمست : ذهبت وارتفعت دائرة تقديسه فكان في المحضيض الأَسفل؛ لبعده وجهله ودلُّ على ذلك وجود فعله في حاله (٢٦) إذ نظر الإِحسان ممن وصل على يديه الأعن أرسله إليه ؟ إذ ذاك من بُعد فهمه وقوة وهمه ، فهو بعيد عن الحق بنظره للخلق ، وذلك على وجهين كما قال :

إِمَّا اعتقاداً فشِركُ جَلَّى ، وإما استناداً فشرك حنى .

⁽١) وفى التيمورية (. . . ونظير ها في هذا الأمر بالحقيقة والمعقولية وهي . . . الخ)

⁽٢) وفى لسخة الدار (. . . وجعل شكره شكرهم عليها عين عبوديته فيشكرون بشكره كما يذكرون بذكره) .

⁽٣)، في ت (ودل على وجود حاله في قىله أن نظر

قلت : فشرك الاعتقاد قادح في الإيمان ، وشرك الاستناد قادح في الية ين ، والفرق بينهما اعتقاد التأثير في الأول وهو كفر ، واعتقاد الارتباط في الثاني بحكم سُنَّة الله مع اعتقاد أن الكل منه وإليه تعالى . وهذا حال أكثر العوام . نسأل الله العافية ، فالناس ثلاثة أقسام : قسم يعتقد التأثير لغير الله وهذا كافر ، وقسم يعتقد أن لامؤثر (١) في شيء سوى الله ولكنه يرى ارتباط الأسباب وهذا ناقص ، وقسم يعتقد أن لامؤثر إلا الله ولاسبب سواه فيرى الأسباب عدمية واعتبارها بحكمة الآلهية ، فلا هو يُحيل الأسباب ، ولا يعتمدها ، لكنه يختلف حاله في ذلك ، فتارة بعكب عليه مشاهدة الحقيقة ، وتارة مشاهدة الشريعة ، وتارة مجموعهما ، وعلى ذلك مدار القسمين المذكورين بَعْدُ ، وافتتح أولهما بأن قال :

وصاحب حقيقه ، غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفي عن الأسباب بشهود مُسبِّب الأَسباب بشهود مُسبِّب الأَسباب .

قلت : يعنى والقسم الثانى من الأقسام الثلاثة : رجل غلبت عليه الحقيقة فنظر إلى جانب الحق وأهمل جانب الخلق ؛ لرؤيته انفراد الحق في منّته ، وأنه لاشريك له في تصرّفه ، فلم ير في التقدير غير المقلّر ، ولا في التدبير غير الملبّر ، قد أعرض عن الكلّ بالواحد ، ولم ير في الإقبال والإدبار إلّا الواحد ، إذا قيل له : من أين هذا ؟ قال : من عند الله ت، وإذا قيل له : أشكر الوسائط . قال : لا أشكر إلّا الله ، ليس له عمّا سوى الحق إخبار ، ولامع أحد من الكون قرار ، ولولا أن الله أمره ماتعبد ولاقام لنفسه بشيء وحاله كما بيّنه المؤلف إذ قال :

فهذا عبد مواجَّهُ بالحقيقة ظاهرٌ عليه سناها سالك للطريقة قد استولى على مداها .

قلت: يعنى أن الحقيقة قدواجهت قلبه فلم عكنه انفكاك ولاخروج عنها بوجه ولابحال. وذلك ظاهر من حاله ؛ فسنا الحقيقة أى ضياؤها باد عليه . وملوك الطريقة والنفوذ فيها مشهود لليه ؛ لأن مقتضى الحقيقة نبى الاسباب . وغاية الطريقة رفض السّوى ، وكلاهما من حاله غير ختى ولا غائب . ومَدَاهَا غايتها ، نعم وهذا الذي وصفه وإن كان كاملاً فليس بأحمل ، أو كان جميلاً فليس بأجمل ، كما بيّنه المؤلف بأن قال :

غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكْرُه على صَحْوه وجمعُه على فَرْقه وفناؤه على بقائه وغناؤه على بقائه وغيبته على حضوره .

⁽١) وفي نسخة الدار : (وقسم يمتقد أن المؤثر في التي ، سوى الله) .]

قلت : يعنى أنه غريق في بحر الأنوار الذي هو معانى الأسهاء والصفات ، ولم يقف بساحله الآثار الذي هو موقف النجاة كما أشار أبويزيد بقوله : «خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله وهذا منه اعتراف بالنقص والتقصير ؛ لان خوض البحر من الجهل يهوله ، والوقوف بساحله من المرفة بقدره ، فالخائض يلتي بنفسه للهلكة ، والواقف قائم مع النجاة ، ويمكنه من استحراج حليته وطعامه مالا بمكن الخائض فافهم . والسكر : فلبة تمنع من التصرّف بالاختيار . والصحو : حالة تقتضى التصرّف بالاختيار . والمحمو خالة تقتضى التصرّف بالاختيار . والجمع شهود الخلق بالحق (١) . والغيبة : عدم الشعور بالخلق . والحضور : الشعور بوجودهم مع الحق . والمعتبر جريان ذلك في التصرّف ، فمن لم يقدر على ضبط حركاته مع وعيه فهو السكران ومن تصرّف باختياره على وفق حاله فهو الصّاحى . ومن شهد حركاته مع وعيه فهو السكران ومن تصرّف باختياره على وجودهم واجعاً إليه فهو الباقى في عين أفعال الخلق جارية عليهم بتصريف الحق فهو الماذي ، ومن رأى وجودهم واجعاً إليه فهو الباقى في عين فهو المقرق ، ومن لم يكن له شعور بشيء إلا بمولاه فهو الغائب ، ومن مشى في كل شيء بالتوحيد فهو فيو الماضر . ولكل من هذا تأويل وتنزيل وتقرير وتحقيق . وتحرير ، لاتعينها الأقوال ، ولاتقيسها العقول ، يعرفها أهل الأذواق ، ويشتهيها أهل الأشواق . وبالله التوفيق . ثم أخذ في ذكر القسم العقول ، يعرفها أهل الأذواق ، ويشتهيها أهل الأشواق . وبالله التوفيق . ثم أخذ في ذكر القسم الثائث ، فقال :

وأكمل منه : عبدٌ شرب فازداد صحواً ، وغاب فازداد حضوراً .

قلت : شرب من خمر الحقيقة فازداد صحواً عاء الشريعة ، وغاب عن الخلق فازداد حضوراً معهم بالحق ، فالحقيقة خمر من شربها خالية (٢) فسكر كان حدّه قَتلَه ، ومن تجوهر منها أو مزجها عاء الشريعة كان مزجُه حافظاً له عن حده كما قيل :

ومن فهم الإشارة فليصفها وإلّا سوف يُقتل بالسنان كحلّاج المحبّة إذْ تبدّت له شمس الحقيقة بالتدانى فقال : أنا هو الحق اللى لايغيّر ذاتَه مرّ الزمان

والذي بالوصف المذكور يعطِي كلُّ شيء حقَّه من غير إقلال (٢٣) شيء ولانقص منه ، كما قال :

 ⁽١) وزاد في التيمورية بعد قوله والجمع شهود الخلق بالحق (والفرق : شهود الحق والحلق .والفناء شهود الحق بلا خلق،والبقاء إروية الحلق الدار (والفرق: شهودا لحق والحلق أويقال شهود حق بلا خلق .والبقاء روية الحلق المحق والغيبة ..إلخ)
 (٣) وفي نسخة : خلية بتشديد اللام .

فلأُجَمعُه يحجبه عن فَرقه ، ولا فرقُهُ يحجبه عن جمعه ولا فناؤُه يصده عن بقائه ولابقاؤه يصرفه عن فَنَائه يُعطى كلَّ ذى حقَّ حقَّه ويُوفِى كل ذى قِسط قِسْطَه .

قلت : يعني أنه يعطى الحقيقة حقّها برؤية كل شيء منه تعالى وإليه ، فينظر إلى أنه تعالى واحد فى منّته ويُعطى الحكمة حقّها بالقيام بشكر خليقته ، وذلك لأنهم مظاهر المنّة ومحل توصيل النعمة ، فلهم مجاز الشكر كما أن لهم مجاز الإنعام ، وله تعالى حقيقة الشكر ؛ لأن له حقيقة الإنعام . ثم شكرهم فى الحقيقة شكر لله تعالى ؛ لأنه رشم مأمور به ، ولولا الأمرُ به ماصح لأحد عمل فيه ، فالكل إذن من عيْن واحدة ولكن الفهم يختلف . والله أعلم .

ثم أخذ المؤلف يستدل لما ذُكر من أرجحية المقام الأخير وكماله فقال :

وقد قال أبوبكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها لمَّا نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائشة اشكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : لاوالله ، لا أشكر إلَّا الله .

قلت : الذى فى الصحيح أن أُمَّها هى الى قالت لها حين شهد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : ياعائشة ، اشكرى الله ؛ فإنَّ الله قد برَّ أَكِ ، ثم تلاآية البراءة من الإفك ، قُومِى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأبو بكر حاضر ، فيحتمل أن يكون نُقِل ذلك بالمعنى ونُسب لأَى بكر لحضوره وموافقته عليه ، وهو بعيد .

وحديث الإِفك مشهور ، ذكره أهل الصحيح وغيرهم. فانظره إن شئت. ثم عين موقع الدلالة وبينه بأن قال : دلَّها أبوبكر على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار .

قلت: وإنما كان أكمل ؛ لأنه قيام بحق الحقيقة وقيام بحق الشريعة ، وعمل في عمارة الدارين . وقد قال في «التنوير» بعد ذكره الأسباب والكلام فيها مانصة : « والقول الفصل في ذلك أنه لابد من الأسباب وجوداً ومن الغيبة عنها شهودا ، فاثبتها من حيث أثبتها بحكمته ولاتستند إليها لعلمك بأحديثه «انتهى ، وهو كما قال . ومن أدلته آية «البرور» التي ذكرها بأن قال :

وقد قال تعالى أن اشكر لى ولوالديك .

قلت : فجعل شكرهما تابعاً لشكره بالاواسطة بينهما ، وذلك أنه سبحانه هو الموجد

والمُمِدُّ حقبقةً ، وللوالدين مجاز ذلك (١٦) الإيجادوالإمداد على أيديهم . والله أعلم . ثم أتى بدليل آخر من السنَّة فقال :

وقال صلوات الله وسلامه عليه لايشكر الله من لايشكر الناس.

قلت : يروى الحديث على الخبرية : أى من لايشكر الناس لايشكره الله . وعلى هذا فرهاء الجلالة مرفوع . ويروى على الشرطية ، أى : لايصح شكر الله ممن لايشكر الناس . وقد روى النعمان بن بشير رضى الله عنه ، عنه عليه الصلاة والسلام «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله وهذه الرواية صريحة فى الشرطية . والله أعلم .

ثم اعتلا عن جواب عائشة لأنى بكر وبيّن أنه ليس من نقصها وأنه كمال الوقت لها فقال ا وكانت هي في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلّا الواحد القهار

قلت : الاصطلام : الغيبة عن الشاهد بالمشهود لما يواجه القلبَ من عظمة المشهود حتى لايبتى فيه متَّسع لغيره ، وهذا التأويل ، وإن كان صحيحاً في نفسه ، فإنه يؤدى للنقص بوجه ما .

فأحسن منه قول ابن أبي جمرة : رجعت لأمره حيث قال اشكرى الله وهو أولى بها من شكره ولم يرجع غيرها لذلك ، استصحاباً للأصل إذ لم يُعلم منه صلى الله عليه وسلم ماتعلمه هي ، لكن قوة الكلام في ردّهم باليمين وسياقه يدل لوجود الاصطلام ، وهو كما لها في ذلك الوقت لافي عموم الأوقات والله أعلم .

تنبيه : من مواقف الجمع بين الحقيقة والشريعة ماوقع من قوله عليه السلام : «وجعلت قرة عيني في الصلاة» وفي اختصاصه بالنبي عليه السلام وجريانه في العموم تكلَّم المؤلف بعد هذا الكتاب بنص سؤال وجواب وقع له في الحديث الكريم فقال :

وقال رضى الله عنه : لما سُتُل عن قوله صلوات الله وسلامه عليه ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة، مل ذلك خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم أم لغيره منه شِربٌ ونصيب؟ .

قلت : هو سؤال متجه محتاج إليه . وقرة عين : أعظمُ مَفْروح به ؛ لأَنه إمامن القر بالفتح الذي هو الثبات ؛ فإن عين المحزون والخائف تدور وتتقلب ، وعين الفارح ثابتة ، أو من

⁽١) وفي نسخة الدار (هو الموجد والممد حقيقة إذ ذاك يجرى مجرى الإيجاد والإمداد على أيديهم) .

⁽٢) وفي نسخة الدار (والقرة : أعظم شيء مفروح به لأنه إما من القرا) .

القر بالضم الذى هو البرد فإن دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارّة . وغاية الفرح هو الذى تجرى معه الدمعة الباردة فمعنى أقر الله عينك : ثبّتها أو بردها . والله أعلم . والشرب بالكسر ، والنصيب عمى واحد . .

وأصل الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال : (حُبِّب إلى من الدنيا ثلاث : النساء ، وأصل الحديث) . والطّيب ، وجُعلت قرّة عيني في الصلاة (١) . الحديث) .

والذي تقدّم هو غاية السؤال ، ثم ذكر الجواب مجملاً مجموعاً فقال :

فأجاب أن قرَّة العين بالشهود على قدر المعرفة بالشهود ، والذي صلى الله عليه وسلم ليست

معرفةٌ كمعرفته وليست قرَّة عين كقرَّته :

قلت: وهذا الجواب كاف عما بعده من التفصيل ، لكن شرط العالم أن يأتى فى جوابه بالتفصيل بعد الإجمال ، أو بالإجمال بعد التفصيل ، فالإجمال للتحصيل ، والتفصيل للبيان. قال الشيخ أبو العباس بن العريف رحمة الله عليه: الطالب يسأل ليعلم فحقه أن يسأل عن المسألة مسألة أخرى والعامر يسأل ليعمل ، فحقه أن يذكر النازلة ، وعلى العالم أن يبين بياناً يصنع السائل من التأويل ، انتهى .

ثم فى هذا الجواب ثلاث دعاوى : الأولى : أن قرة العين فى الصلاة بالتجلّى الحاصل فيها . الثانية : أن ذلك على قدر المعرفة . الثالثة : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليست معرفة كمعرفته ، فليست قرّة عين كقرّته . وقد أجاب عن كل دعوى بما تحتاج إليه من وجه وإيراد فقال فى جواب الأول :

وإنما قلنا إن قرَّة عينه في الصلاة بشهوده جلال مشهوده ، لأنه عليه السلام أشار إلى ذلك بقوله «في الصلاة» ولم يقل بالصلاة .

قلت : وذلك أنه أتى بـ «ف» الظرفية ، فاقتضت أن الصلاة ظرف لقرة العين ، لا أنّها عينها ، ولو قال «بالصلاة» لاقتضى أنها عينها . لكن قد يقال إن «الباء» تقع بمعنى «ف» و «ف» تكون بمعنى الباء . وإذا قلنا بالظرفية فتعين كون المظروف مشاهدة الجلال وهي دعوى تحتاج لهرهان ذكره بأن قال :

إِذْ هُو صَلُواتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَاتَّقَرُّ عَيِنْهُ بِغَيْرِ رَبُّهُ .

⁽١) وَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنِّمَائِي وَالحَاكُمُ وَفَيْرُهُمْ عَنْ أَنْسَ رَضَى اللَّهُ عَنْهُ وَيْرِي

قلت : وهذه أيضاً دعوى تحتاج إلى دليل على إثباتها ، فيجاب بأنه معلوم من حال أقل العارفين فكيف بسيد المرسلين الذى يقول (أنا أعلمكم بالله ، وأتقاكم لله أنا) ومن ذلك ماذكره المؤلف إذ قال :

وكيف وهو يدل على هذا المقام ويأمر به مَن سواه بقوله «اعبد الله كأنك نراه».

قلت : يقول : وكيف لايكون ذلك ، بل وكيف يصح أن يغفل عن مولاه مع كماله الذى لا أكمل منه ، وهو يأمر بذلك غيره مع أنه لم يكن يأمر بخير إلا كان أول عامل به ، ولاينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وقوله «اعبد الله» . . الخ» لم يرد بذا اللفظ ، بل جواباً لنول جبريل عليه السلام : أخبرنى عن الاحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يعبد الله على المعاينة ، لانفياً لغير تراه فإنه يعبد الله على المعاينة ، لانفياً لغير ذلك . والمقصود نفى رؤية الغير فاحتاج إلى دليل آخر هو الذي ذكره بأن قال :

ومحالُ أن يراه ويشهد معه سواه .

قلت : وذلك ، لأنه إذا ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته ، ولانسبة للخلق عند ظهور آثار اللحق ، وإذا دخل الرب القلب خرب ممّا سواه ، ولذلك قال بعضهم : أبى العارفون أن يشهدوا شيئاً مع الحق لما حققهم به من معانى القيومية وإحاطة الديمومية ، وأنشدوا فى ذلك :

مذ عرفت الآله لم أر غيره وكذا الغيرُ عندنا ممنوع مذ تجمعت ما خشيت افتراقاً فأنا اليوم واصِلٌ مجموعُ

ثم ذكر المؤلف ما أورد عليه فقال:

قال له القائل قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين مِنَّة الله فكيف لايكفرح بها وكيف لاتكون قرةُ العين بها وقد قال تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فيذلك

فليفرحوا).

⁽١) روى البخارى قال : حدثنا إساعيل بن إبراهيم ، أخبرنا أبو حيان التميمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال ما الإعان . قال : الإيمان أن توثمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله و توثمن بالله عن الركاة المفروضة وتصوم ومضان . بالبهث . قال : ما الإحسان ؟ . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : متى الساعة ؟ . قال : ما المستول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله عمل الله عليه وسلم « إن الله عنده علم الساعة » الآية . ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . قال أبو عبد الله جمل ذلك كله من الإيمان .

قلت : وهذا سؤال متّجه واضح وارد بين ، لكنه لاينتظم إلا بتأويل «ف» بمعنى «الباء»؛ ويعضده حديث (أرحنا بها يابلال) ولكن يجاب : بأن الحقيقة أولى من التأويل بالحرف المذكور ، وأن الإراحة بها للاستراحة بما فيها ، لا بعينها ، وعند تطرق الاحتمال يسقط الاستدلال، فيحتاج إلى زيادة دليل أو جواب آخر وهو الذي توجّه إليه المؤلف واستخرجه من الآية المستدل بها على الفرح بالمنّة إذ قال :

فاعلم أن الآية قد أو مأت إلى الجواب لن تدبّر سر هذا الخطاب إذ قال فبذلك فليفرحوا وما قال بذلك فافرح.

قلت : أو مأت : أشارت . وسرّ الخطاب : هو صرفه للغير ، لكن قد يقال إن مراده به أو فيه ، فيحتاج إلى تحقيق انصرافه عنه بعد بيان مايقدّر فيه ، وهو الذي بيّنه بـأن قال :

قل لهم يامحمد ليفرحوا بالإحسان والتفضل ، وليكن فرحك أنت بالمتفضِّل.

قلت : هذا تقرير ما احتوى عليه الخطاب ، ولكنه غير مسلَّم يفتقرُ إلى دليل يثبته ، إذ لا ينتني به التوهم ، ولا يزال الإيراد ، فعضَّده بالآية الأُخرى إذ قال :

كما قال الله في الآية الأنحرى : (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون)(١).

قلت والاستدلال بهذه الآية على المعنى القصود لايتم إلا باقتطاعها عما قبلها . فاما إن فهمت جواباً لقوله تعالى (قل من أُنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاء بِه مُوسى) فلا يتم الدليل .

والخارج من هذا كلّه أن لكل عارف شربٌ ونصيب على قدره ، وسيدنا صلى الله عليه وسلم هو سيد العارفين ، فهو أوفرهم نصيباً ، وأن قرة العين لهما فى الصلاة لابالصلاة . وفى طى كلامه أن قرة العين لاتكون لِصاحب بداية ولا مجاهدة (٢) كما قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى ، رضى الله عنه . والله أعلم .

تنهيه : لما جرى ذكر الفرح عنَّة الله في هذا الجواب اتبعه بكتاب يتضمَّن مراتب الناس في الفرح بالمنن : ليكون أتمَّ في البيان والإعلام ، فقال :

وقال رضى الله عنه : (مما كتب به لبعض إخوانه) : الناس في ورود المنن عليهم على ثلاثة أقسام .

⁽١) آية ٩١ من سورة الأنعام .

قلت : يعنى باعتبار تلقّيها ، وقبولها ، والفرح بها ، والأقسام على مراتبها : ناقص غافل ، ومتية ظ عاقل ، وعارف كامل ، ولكل حقيقة ومادة وغاية ذكرها المؤلف بالإشارة والبيان ، فقال في أولها :

فَرحُ بِالمَننِ لا من حيث مهديها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين .

قلت : يعنى الذين غفلوا عن المنعم بالنعمة ونسوا الله تعالى بوجود المنّة ، فكانت هممهم مقصورة على ما يستلفونه من الأكل والشرب والجماع وغيره ، وربما أثار ذلك لهم خصالًا مذمومة كالحرص والطمع والتسويف والاسترسال فى العوائد وقلّة المبالاة فى الأخذ والتصرف وشدة الفرح بالموجود والحزن على المفقود وبه يقع الخسران والهلاك كما نبه عليه المولف بالآبة الكريمة إذ قال :

يصدق عليه قوله تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة » .

قلت : يعنى أنه مستدرج . والاستدراج : كمون النقمة فى عين النعمة ، وقد قال سهل ابن عبد الله رضى الله عنه فى قوله تعالى (سَنَلْسْتَدْرِجَهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعَلَمُونَ (١٠ :

كلَّما جددوا معصية جددنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية ، حتى إذا ركنوا إلى النعمة وغفلوا عن المنعم أُخذوا » انتهى .

ثم ذكر القسم الثاني فقال:

وَفَرِحُ بِالمَنْنِ مِن حَيْثُ إِنَّه شَهْدُهَا مِنَّةً مَمَنَ أُرسَلُهَا وَنَعْمَةً مَمَنَ أُوصَلَهَا .

قلت : فهذا من الموقنين القائمين بالشريعة في عين ملاحظة الحقيقة إذ رأى المنّة التي هي العطائ الأصلى الذي لا علّة له ولا سبب لله سبحانه ، وشاهد نسبة الخلق في ذلك من جريانه على أيديهم فكان شاكرًا لنعمة مولاه من غير إهمال للخلق ولا تعويل عليهم ، فهو في ذلك مكّرم بنظره إلى مولاه ، وقيامه بالحق فيما أولاه ، وبذلك استحق ما ذكره المولّف بأن قال :

يصدق عليه قوله تعالى : قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا .

قلت : يعنى إنه ممن يوجه على هذه الآية إذْ كان فَرِحًا بذكر مولاه أيده (٢) بنعمته وتوجع

⁽١) سورة الأعراف ، آية ١٨٢ .

⁽٢) في نسخة الدار (يعني أنه من عثر على هذه الآية إذ كان فرحاً بذكر مولاه أتاه بنمته وبوجهه له بمنته) .

له بمنَّته وهو لا يستحق شبئاً من ذلك من حيث ذاته ، بل بفضل الله ورحمته ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي : أمرت أن أقرأ عليك . قال : وكيف ، وقد أنزل عليك . قال : بذلك أمرت . قال أبي : رضى الله عنه : أو ذكرتُ هناك ، وبكى عشية وإجلالاً (١) . . . الحديث) ثم ذكر تمام الآية فقال :

هو خير مما يجمعون .

قلت : يعنى من كل شيء ، حتى من عباداتهم وأعمالهم ، كما قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه . وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « العاقل من غَرَّق شديد الزمان في الأَلطاف الجارية (عليه) ، وفرق إساءته في بحر إحسان الله إليه فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، انتهى .

ئم ذكر القسم الثالث ، وهو أرفعها فقال :

وفَرِحٌ بالله .

من حيث كمال ذاته وجلال صفاته وتقدس أساته ، وجمال أفعاله ، إن رأى نعمة ذكر منته ، وإن رأى بعمة ذكر منته ، وإن رأى بلية ذكر رحمته ، وإن جرى عليه شيء نظر إليه بلا علّة فهو مشغول به لابغيره كما قال ؛

ما شغله من النعم ظاهرُ متْعتها ولا باطنُ منَّتها .

قلت : يقول ليس من الغافلين (الذين شغلهم التمتع عن الانعام ، ولا الذاكرين) الذين شغلهم الإنعام عن المنعم ، وقد ضرب الناس للأقسام الثلاثة مثالا مداره على أن ملكا أعطى ثلاثة أفراس لثلاثة رجال ، فأما أحدهم فطار قلبه فرحًا بانتفاعه بالفرس وحصوله عليه لما يرجو به ، وهذا وزان الغافل ، وأما الثانى : فاستشعر ذكر الملك له بهذا الفرس فأخذ في الثناء عليه وشكر

⁽۱) هو أبي بن كعب الذي يقول فيه اللهبي في كتاب و سير أعلام النبلاء به : و سيد القراء . . . شهد العقبة ، و بدراً و جمع آن في حياة الذي صلى انته عليه وسلم ، وحفظ عنه علماً مباركاً ، وكان رأساً في العلم رضى اقد عنه . . . موروى اللهبي أن رسول الله صلى انته عليه وسلم قال : يا أبي المتلو و كنية أبي (إني أمرت أن أعرض قرآن . فقلت : بافة آمنت ، وعلى يدك أسلمت ، ومنك تعلمت . فرد القول . فقلت يارسول الله . أو ذكرت هناك ؟ . فعم ، باسمك و نسبك في الملأ الأهل ، قلمت : اقرأ إذن بارسول الله . وقد روى اللهبي في الموضوع ووياوت أخرى منها في مع زواية المؤلف في ألفاظها .

نعمته ، ورأى المنّة له فى ذكره إياه بما وجه له . وهذا وزان الشاكر . وأما الثالث : فاستشعر عظمة الملك وجلاله ، وأنه موصوف بالكرم والكمال من جميع جهاته . وهذا وزان الفرح بالله الذى لم يشغله عنه شاغل ، كما قال :

بِل شَغَله النظرُ إِلَى الله عمَّا سواه ، وانجمع عليه فلا يشهد إلَّا إيَّاه .

قلت : ولو كلَّف غير ذلكما أطاق؛ لاستجماع سره على مولاه ، واستغراقه في مشاهدة عظمته التي لا يبتى مع شهودها أثر لشيء : إن شكر الحق (١) فَشُكْره لمولاه ، وإن أعرض عنهم فلا معوَّل له إلاَّ إياه ، قد كان في الله تلفه فكان منه خلفه فهو كما قال :

يصدق عليه قوله تعالى : قل الله ثم ذرهم في حوضهم يلعبون .

قلت : وصادقیة ذلك بحسب ما تقدم قبل من التقریر فی الآیة . ووجه الاستدلال بها ، وهو راجع لعبی بیت « لبید » الذی كان یتمثل به رسول الله صلی الله علیه وسلم حیث یقول : ألا كل شيء ما خلا الله باطل (۲)

وقد مر الكلام في هذا المعنى كثيرًا . ثم عضَّده الموَّلف بما ذكر إذ قال :

وقد أُوحى الله إلى داوود عليه السلام : ياداوود قل للصّديقين : بى فليفرحوا ، وبذكرى فليتمتعوا .

قلت: الصديق: من صدق الله بكلِّ شيء منه علماً ، وعملا ، وحالا ، وقولا ، وفعلا ، وبالغ في ذلك حتى لا يبتى منه جزء إلا داخله الصدق. ومعنى لا بن فليفرحوا ، ليكن فرحهم بوجودى وكمالى لا بشيء برجع إليهم كما قال تعالى : (وَقُلِ الْحمدُ للهِ الذِي لَمْ يَتَخِذْ وَلَدًا ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَه وَلَيَّ مِنَ الذَّلِّ وكَبِرهُ تَكْبِيرًا (٣)) وقد قال على بن أَلى عالى في بعض مناجاته : كفاني عزَّا أَن تكون لي ربًا ، وكفاني شرفًا أن أكون لك عبدًا ، وأنت لي كما أحب ، فاجعلى لك كما تُحب » انتهى . وبقوله لا وبذكرى » يحتمل بذكرهم إياى ،

⁽١) هكذا ، ولعلها ؛ الخلق.

⁽۲) وتكملة البيت : وكل نعيم لا محالة زائل، ولبيد، هو لبيد بن ربيعة ابن مالك ، أبو عقيل العامرى : أحد الشعراء العرسان الأشراف في الجاهلية أدرك الإسلام وترك الشعر، وسكن الكوفة وعاش عمراً طويلا. وهو أحد أصحاب المعلقات السبع المشهورة. جمع بعض شعره في ديوان صغير ترجم إلى الألمائية. توفى سنة ٤١ه – ١٦٦١م.

⁽٣) آية ١١١ من سورة الإسراء.

ويحتمل بذكرى إياهم ، وهو أولى ، ويحتمل بالذكرين ، والكل صحيح ؛ لأن الكل منه وإليه سبحانه وتعالى .

ثم ذكر المولف دعاة مناسبًا لما ذكر في الكتاب فقال :

والله يجعل فرحناً وإياك به وبالرضا منه ويجعلنا من أهل الفهم عنه .

قلت : يعنى فإن الفرح بذلك هو الفرح الكامل ؛ إذ الفرح به تعالى حال أهل الكمال ، والفرح بالرضى منه فرحُ أهل المقامات والأحوال ، وهو المأمور به ، كما تقدم أول الكتاب (لا تفرح للطاعة ؛ لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك) . ثم قال :

وأَن لا يجعلنا من الغافلين .

قلت : يعنى الذين وقفوا مع المتعة فى النعمة ، وتوجَّهوا للطاعة بالتقصير وسوءِ الأَّدب ، فكانوا مطرودين بما أُوتوا ، مبعدين بما آثروا ، خاسرين بما تركوا ، حتى إذا أُوتوا أَخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ثم قال :

وأَن يَسْلَك بنا مسالك المتقين .

قلت : يعنى : الذين اتَّقوا الالتفاتَ لغيره ، فقاموا بتوحيده وتمجيده وشكره ، على بساط معرفته وذكره وامتثال أمره والاستسلام لقهره ثم قال :

بِمنَّه وكرمه .

قلت : يعنى أنه طلب ذلك لا بسبب علَّة من نفسه لأن ما عند الله لا ينال بالعلل والأسباب كما قيل :

بلا عمل منى إليه اكتسبته سوى محض فضل لا بشيءٍ يُعَلَّلُ بل كما قال بعضهم ، رحمة الله عليه: ما هناك إلاَّ فضله ، ولا نَعيش إلاَّ في ستره ، ولو كشف الخطاء لكشف عن أمر عظيم » انتهى وبانتهائه ثم الكتاب، ولم يبتى إلاَّ « المناجاة » في بابين ،

وهما مفاتيحُ الخير وخاتمته ؛ لأن الأول تعرض لنفحات الرحمة ، وتعريض بالقاصد، والثاني تصريح بشأّديب وتوحيد ، وقد أثنى عليها سيدى أبو عبد الله بن عباد رحمه الله في آخر الرجز ، فقال :

لم تبق إلا ما به المناجاة سياقه حقت له المراعاة . لكونه يهلب الأسرارا ويجلب الأضواء والأنوارا ونظمه نطيل هذا المقصدا الدالً على أسلوبه فليُوردا والله يا أخى ويا صفيى إن انتهجت نهج ذا الولى وسقته مساقه الجميلا منكسراً وخاضعاً ذليلاً رأيت في باطنك الزيادة والخير واستبشرت بالسعادة

وإذا كان الأَمر كما ذكرت فلنأت بها ممزوجةً بما يتعلَّق بها من الكلام ، ليكون أَدعى للتحصيل ، وأَوقع في النفس ، وآثر للنبات ، فنقول وبالله التوفيق .

الفصل الأول

المناجاة

الفصل الأول

وقال رضي الله عنه :

في مناجاة مولاه ، وتضرعه بين يديه عا أولاه :

الهي أنا الفقير في غناي .

إذ ليس وجوده منّى ، ولا دوامه لى ، ولا بقاود بى ، ولا تحقّفه من عندى ، مع توقّفه على الأسباب فى وجوده واستمداده وبقائه ، والكلّ منك وإليك ، فاغننى بك عنى وعن كل شيء باكريم.

فكيفلا أكون فقيرا في فقرى .

الذي يشهد حالة عدى ، وعليه مبنى وجودى ، وهو أصلى وفصلى ، وعليه جرى نعتى ووصلى ، إذ لم أكن شيئا مذكورًا ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين.

إلهي أنا الجهول في علمي .

. إذ لا علم لى إلاَّ بتعلم ، فهو متوقَّف على التعلَّم والتعليم ووجود المعلومات مع عدم الإحاطة وإمكان التفلُّت والانقلاب والتلبس (١).

فكدف لا أكون جهولافي جهلي:

اللدى هو نني محض ، وعدم صرف ملازم لى فى جميع أحوالى ، حتى لقد أحب الشيء وهو شر لى ، وأكره الشيء وهو خير لى ، فاجعل لى نورًا يستمد منه علمى ، وينتنى به جهلى بفصلك شر لى ، وأكره الشيء وهو خير لى ، فاجعل لى نورًا يستمد منه علمى ، وينتنى به جهلى بفصلك إنك على كل شيء قدير .

الهي إن اختلاف تدبيرك:

فى الكائنات حتى جرت على ما تريد كما تريد من غير حجر ولا نوقف ولا تقييد .

وسرعة حلول مقاديرك :

⁽١) رقي نسخة ; التلفت ، والانفلات ، والتلبيس .

في المخلوقات حتى جرى ما قدرت على ما أردت وعلمت بلا مهلة ولا أسباب موجبة ، هما اللذان . مُنعا عبادك العارفين بك .

من حيث جلالك وعظمتك وكمال أوصافك وتأثيرها في عبادك عن السكون إلى عطاءٍ.

إذ ليس لهم تصرف في بقائه ولا أحواله ، ولا لهم حكم في إمداده وإبقائه ، وفي علمك ما لا يقضى عليه شيء من خلقك

والبأس منك فى بلاء .

لأَنك الذي ترمى بالشدة وتدارك بالعافية (١) فلا ييأس منك إلا مخذول ، ولا يأمن مكرك إلا جهول .

الَّهِي منَّى ما يليق بلوُّمى .

من الإساءة والإِجرام .

ومنك ما يليق بكرمك .

من الإحسان والإنعام ، فاجعلني مُشَاهِدًا لِلُوْمِي حتى أَذكرك ، وذاكرا لكرمك حتى أَشكرك ، متبرئاً من نفسي ومستندًا إليك ياكريم .

الَّهِي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعني .

إذ سميت نفسك لطيفًا رمُوفًا في أزلك واتصفت بذلك وأنت القديم .

أفتمنعني منهما بعد وجود ضعني .

وأُنت الحليم الكريم ، حاشا فضلك وكرمك ياعظيم .

الَّهِي إِنْ ظهرت المحاسن منَّى فبفضلك .

الذي لا علَّة له ، لأَنِّي محل تقصير وآفة وعصيان وإساءَة ، من حيث وجودي .

ولك المنَّةُ عليَّ .

فيا أظهرت على من ذلك ، لأنى محتاج له ومفتقر إليه مع عدم قدرتى على تحصيله ، فلك الحمد فيا أسديت ، ولك الشكر فيا أوليت .

⁽١) وفى نسخة الدار (لأنك الذى تنزل الشدة و تزال بالعافية) .

وإن ظهرت المساوىءُ منِّى فَبِعدلك .

الذي لا يلحقه نقص ولا يجوز عليه ظلم ؛ لأَنك أنت الملك المالك الذي لا يُمْلَك ولا مُلك لغيره ، لك الحجة على خلقك (قُلْ فَلله الحُجَّة البَالغَة).

ولك الحجة عليٌّ :

فيها ظهر عليٌّ من المساوىءِ أو حقوق عبوديتك لازمة والإساءة منِّي ظاهرة قائمة ، فإن تردُّني بخير فمن إفضالك ، وإن تجزني مما أنا عليه فمن عدلك بعد إمهالك .

الَّهِي كيف تكلِّي وقد توكَّلت بي .

إذ سمت نفسك وكيلًا في أزلك ، وأظهرت ذلك بإيصال المنافع ودفع المضار عي حيث لا قدرة لي عليه ، ولا كانت وأبديت ذلك في عوالي بكل حال يا كريم .

وكيف أضام : أى أنقص من حقًى اللى جعلت لى بكرمك .

وأنت النصير لى:

على كلِّ عدو وغيره من أمرى ؛ إذا سميت نفسك « نصيراً » قبل كونى .

أم كيف أخيب:

فيها آمله وأطلبه من أمر الدنيا والآخرة .

وأنت الحبي بي .

أى الرفيق اللطيف الرفيق لى على علم بخي الخي من أمرى ، القادر على توصيل ذلك بألطف وجه وأَرفقه على ، فاجعلني ممن شهد وكالتك فاكتنى بك عن كل شيءٍ ، ولم يدبر أمرًا معك ، ومن نظر لنصرتك فلم يعرج على طلب النصرة من غيرك وممن عاين سابق لطفك فعلَّق أمله في كل أمرٍ بك ؛ فإن المكروم من رجع إليك بكل حال ، والمحروم من رجع لغيرك بحال من الأحوال .

ها أَنَا أَتُوسِل إِليك بفقرى إِليك .

توسل من يعلم أنه لا غنى له عنك أبدًا ، ولا يغنى عن فقره منك (١) شيئًا ، وإنما توسل بـأنه داله عليك وموصله لما لديك .

⁽١) في ت (توسل من يعلم أنه لا غنى عند فقره منك شيئاً . وإنما أتوسلبه لأنه دلالة عليك ووصلة لما لديك) . وؤ الدار (. . . لا غنى له عنك أبدأ ولا يغني عنك فقره منك شيئاً وإنما توسل به لأنه دال عليك وموصل ال لديك) .

وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك

لا يصح ذلك ولا يمكن . لكنْ رجوعُ العبد

إلى حده ، ونفقة الفقير مما يخرج من عنده ، كما قيل.

مالى سوى فقرى إليك وسيلة فبالافتقار إليك ربى أضرع ورجوع العبد لأوصافه من تحققه (١) بأوصافه تعالى .

أم كيف أشكو إليك حالى وهي لا تخبي عليك

وكيف نخنى عليك وأنت مبدؤها منشؤها ، والمقدّر لها والمدبّر ، وسعت كل شيء رحمة وعلمًا فاجعلنا ممن شهد ذلك ابدًا فاكتنى بعلمك ورحمتك عن شكواه إليك .

أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك

لأَنك المبدىء له والمعيد ، ومن كان مبدأ كل شيءٍ منه ومرجعُه إليه كيف يحتاج إلى ترجمة عنه « ألاَ يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟

أم كيف نخُّيب آمالى وهي قد وفدت إليك .

عيا آمله من أمر الدنيا والدين وأنت الذى تكرم الوافدين ، ولا تخيب القاصدين ، كَلاً وعزَّتِك لا يكون ذلك أبدا .

أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك .

قامت بك لما أشهدتها من الحقيقة وإليها (٢) قيامًا بحق الشريعة ، وإن كان في قيامها ضعف ونقص ، فبساط الكرم ممدود للفقراء والمساكين ، وهدية العبد على قدره ، فالفضل أن يقبلها السيد ، قيل أَرْجى آية في كتاب الله (قلْ كُلْ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ (٣) فالرب يليق به الفضل والكرم ، والعبد يليق به الفقر والعدم .

الَّهِي مَا أَلطَفَكُ بِي مِع عَظْيِم جَهْلِي .

إذ جهلت قدرى وجهلت أمرى ، ولم أعلم خيره في سرّى ولا جهرى ، فأنت ترشدني لما فيه صلاح ديني ودنياى ، ولاتتركني في جهلي ولا بلواى .

⁽١) في ت (من تحققه باتصافة) وكذا في نسخة الدارا أ.

⁽٢) ى ت (وإليك مهداه قياماً بحق الشريعة) .

⁽٣) آبة ٨٤ من سورة الإسراء.

وما أرحمك بي مع قسيح فعلي .

أعصيك فترحمي وتنحلم عنى ، وأقصر في حقوقك فتكرمني وترحمي فلاتعاجلني بالعقوبة ، ولا تقطع عنى مداد التوبة (١) ، بل تعد بالمغفرة والفضل وتعامل بالجميل في كل حال ، فلك الحمد ولك النعمة ولك الفضل ولك الثناء الحسن الجميل .

الهي ما أقربك مي .

بعلمك وقدرتك وإرادتك وإحاطتك التي لاتكيّف ولاتُوصف بالتمثيل والجهة والحد والحين؛ إذ أنت المتصرّف في كل شيء من المصرّف أبدأ أقرب إلى المصرف من وجود التصريف ونحن أقرب إلى المصرف من حبل الوريد ، فما أقربك مني يامولاي .

وما أبعدني عنك .

إذ لانسبة بين عبد ورب ، لا من سبب ولامن غيره ، بل كما قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : يا قريب أنت القريب وأنا البعيد ، قربك مى أياسى من غيرك ، وبعدى عنك ردنى للطلب منك (٢) ، فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبي بطلبك يا عزيز ياقريب .

ما أر أفك بي فما الذي بحجني عنك

و كل مظاهر رأفتك دليل عليك وليس فى الكون إلَّا مظاهر رأفتك ورحمتك يارتوف بارحم .

الهي قد علمتُ ماختلاف الآثار وتنقلات الأَطوا أن مرادك منى أن تتعرَّف إلى فى كل شى و الله المن الطاهرة فى اثار كل على اختلافه ، الواضحة فى ننقلات أطواره حى كان ساجداً ومُسَبحاً بلسان حاله أو فعله أو مقاله .

حتى لا أجهلك في شيء

لارنباط تعریفك لى بكلِّ شيء في حركاته وسكناته وسائر وجوده في تقلباته وفي سو سائر أحواله وأطواره .

الَّهِي كُلُمَا أُخْرِسَنِي لَوْمِي أَنْطَقَنِي كُرِمْكُ .

قَإِذَا نَظْرَتَ لأَوْصَافَى صَمَتُ فَلَم أُعَبَر ولَم أُخبِر عَن كَرَمَكُ ، وإِنْ نَظْرَتُ لإحسانَكُ تكلمت فعبَرت وأخبرت ، لأَن الكرم لايفنقر إلى شرط ولايتوقف على سبب ، وأفعال العباد تحتاج (1) وفي نسخة : مدد المثوية ، (٢) في ت (من غيرك). إلى التخليص والإخلاص كما قال قبل هذا «ومَن عَبَّر من بساط إحسانه أَصْمَتَتْهُ الإساءة مع ربه ، ومَن عبر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء ».

وكلما أياًستني أو صافى أطمعتني مِننُك .

الجارية لى فى عموم الحالات والأوقات ؛ لأن أوصافى لاتقضى على أوصافك ، وأفعالى لاتردُّ شيئاً من أفعالك ، فإذا نظرت إليك فلا خوف ولا رجاء ، وإذا نظرت إلى أفعالى فالكل مردود وموجب لطردى لما فيه من العلل والآفات :

الهي من كانت محاسنه مساوى،

لِما يدخلها من الآفات والعلل

فكيف لاتكون مساوئه مساوىء

التي هي عين النقص والعيوب والزلل

ومن كانت حقائقه دعاوى

لكونها ليست منه ولاله ولابارزة عنه ؛ لثبوت افتقاره

فكيف لاتكون دعاويه دّعَاوى

ومن كان كذلك فهو فى عاية الفقر سواءً كان له شيءً ؛ أولا شيء له ، إذلا شيء له فى الفرع ولا فى الأصل ، المعدومُ معدومُ والموجود معلول (١) والمتشبّع عا لم يُعط كلابس ثوبى زُورٍ ، وأنا ذلك الرجل ، فارحمى بفضلك وقابلني بإحسانك ياكريم .

الَّهِي : حكمك الذافذ ، ومشبئتك القاهرة لم يتركا للى مقال مقالاً .

فترحم به عن محاسنه ومساوثه

ولالبذي حال حالاً

فيدعى به مايريده من حقائق وغيرها

آلمي : كم من طاعة بَنَيْتُها

حتى قام فى نظرى وجودها وظهر لى تحصيلها

⁽۱) وفي نسخة ۽ معلوم .

وحالة شيّدتُها

حنى ظهر لى أنَّى أحكمتها وحَصَّنتها

هَدَمَ اعتادى عليها عدلُك

حين نظرت إليها فيه فرأيت أنك إن قابلتني به فيها لم يبق لي حالاً ولاعملاً.

بل أقالني منها فضلك.

حين نظرت إليه فيها وفي غيرها فلم يبق بيدي سواه ؛ لأنك أنت الذي متنت بالكل وتفضلت بالحميع يا أكرم الأكرمين .

الهي : إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة مي فعلاً جَزَّمًا

في عموم الأوقات والحالات بأن تعتريني العثرات والتقصير والغفلات.

فقد دامت محبة و زماً.

فى سائر الأزمان والأوقات ؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان كما قال تعالى : (ولكنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُم الاعانُ وَزَيَّنَهُ فى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِليكم الكفرَ والفسُوقَ والعصْيَان)(١).

الَّهِي: كيف أعزم وأنت القاهر.

الذي لايم مع قهره أمر إذا أراد نقصه حي عرفه العباد بنقض العزائم ونبديل الأوقات والحالات.

وكيف أعزه أنت الأمر

الذي لابد من امتال امره، والتزم على طاعته وبره.

الهي درددي إليك في الآثار .

بالرد والبول والنظر والاستدلال وعير ذلك من الأحوال.

يُوجب بُعد المزار .

عن حصرتك ودائرة ولايتك ، لما فيها من الشغل بغيرَك وإن كان ذلك لالغيرك.

فإجمعي عليك بخدمة نوصلني إليك.

لأَن أولى مارجع إلى الله ما جاء ناعَن الله ، وخيرما استعمل في طلب رضاه ماعُرفِ قطعاً أَنْه يوضِاه ، (وإنْ نشكروا يَرْضُهُ لَكمُ).

⁽١) من سورة الحبوات.

إلهى كبف مستدل عليك عا هو في وجدده مفتقر إليك .

من الأسباب العدمية والآثار الوهمية والخلائق الملهية التي لولا الله ما وجدت ، ولولا فضله ما استمدّ لها وجود ، وهو محل الافتقار أبدا .

أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المُظهِر لك.

بل أنت الظاهر ومظهر المظاهر الذي لايفتقر في ظهوره إلى دليل يدل عليه ، ولا في قربه إلى شيء يُوصّل إليه ، فالمستدل بالغير محجوب به والمتوسّل به مصروف عنك.

مَى غبت حَمَى تحداج إلى دليل بدل عليك، ومَنَى بعدتُ حَمَى تكون الآثار هي التي توصُّل إليك

فإنك ولينها رنبة الدلالة فدلت ، وأعطينها مكان التوصيل فوصلت، فما دل عليك سوى ربوبينك ، وما وصّل إليك سوى آلهينتك ، كما قيل :

عجبت لن يبغى عليك شهادة وأنت الذى أشهدتُه كلَّ شاهد

الَّهِي عميتُ عَبْنِ لاتراكِ عليها قريباً رقيباً.

وحُقَّ لها العمى إذ لم تراقب من هو أقرب إليها من وجودها ، ولم تشاهد تصرُّفه فيها وقيامه عليها .

وخسرت صفقة عبد لر تحعل له من حبَّك نصيباً

إذ لاينفعه شيء ، ولا يتوصل لحير أبدأ سواء قلنا من حبّك إيّاه ، أو من حبّه إياك ، لأن من لم يحبّه مولاه وكله لنفسه فَهَلك ، ومن أحبّه كفاه كل شيء فملك ، ومن لم يحبّ مولاه لم يتوجه له ، ومن لم يتوجه له كان مطروداً عنه . ثم يحتمل قوله «عجبت وخسرت» أن يكون خبراً أو دعاء ، وكل صحيح فتأمله .

الهي أمرت بالرجوع إلى الآثار .

عبودية ونأذباً ، وقياماً بحق الحكمة ، وإقراراً بعجز البشرية ورجوعاً لشهود النقص والافتقار. فأرجعني إليها مكسوة الأنوار.

الإعانية والعرفانية الني لايخني معها شيء

وهداية الاستبصار

العلمية حتى أكون على نور وبصيرة أبقى وأرد (١) فيها فأدعو إليك على بصيرة أنا ومن اتّبعنى ، كما أمرت به نبيك صلى الله عليه وسلم فى كتابك العزيز بقولك المحق (قُلْ هَذِه سَبِيلِي أَدْعُو إلى الله عَلَى بَصِيرَة أَنَا وَمَنْ اتّبَعَنِي . . الآية (١) يقول وإنما طلبي لكسوة الأنوار وهداية الاستبصار لأمر هو .

حتى ارجع إليك منها

بالتوجه مها . والغنى عنها ؛ لأَن الكشف يقتضى ذلك من شأَمها وهو الذى يفيده النور . والحداية تدعو إلى ذلك لأَمها خروج عن الكل بالحق للحق من حيث يرضي .

كما دخلت إليك منها

بالمعاملة فيها وبها والغني عنها بالتحقيق بغيرها ، وإذا رجعت إليك منها من لازم ذلك أن أكون.

مَصُون السرّ عن النظر إليها

في إقبال ولا إدبار ، ولانفع ولا إضرار ، أولاً وآخراً .

ومرفوع الهمَّة عن الاعتماد عليها

باعمادى عليك واستنادى إليك ظاهراً وباطنا ، كما فى تلك الحكاية «أحسن من ذلك تيه الفقراءعلى الأغنياء ثقة بالله » وأكبر من ذلك همة العارفين تتلاشى فيها جميع المقلورات فغملاً عن المخلوقات فامنن علينا بذلك وحققنا به يامن بيدك ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه .

إنك على كل شيءٍ قدير .

وبالإجابة جدير يا نعم المولى ، ويانعم النصير ، فأنت حسبنا ونعم الوكيل . وقال رضى الله عنه :

⁽١) رق نسخة الدار (فيما أبني وأذر) .

الفصل الثاني المناجاة

وهو مرتب على الذي قبله بزيادات لن تأمّله . وهذا أوله :

الهي هذا ذلى ظاهر بين يديك.

ظاهراً وباطنا ؛ إذ ليس لى شيءٌ اعتدُّ به ؛ لأنِّي فقير في غناى فضلاً عن فقرى ، وجاهل في علمي فضلاً عن جهلي .

وهذا حالى لايخفي عليك

وإِنى الأَملك نفعاً والا دفعا والا عطاء والامنعا ، والأأثن بشيء من ذلك في وجود والاعدم ، مع أنى متصف بما بليق بي من لؤمي متمرض لكرمك .

منك أطلب الوصول إليك

طلباً لفضلك اللاحق حسب ما أطعمي فيك إحسانك السابق منك مايليق بكرمك .

وبك أستدل عليك الله

إذ واجهتني بأسباب ذلك من اللطف والرحمة المتوجهيْن الضعني ، الذي لولاهما ماكنت ولا دمت . والأصل أبداً دليل على الأثر .

فاهدنى بنورك إليك

حتى تظهر المحاسن منى عنتك التي أجرت على نورك فأبصر به الخير فآتيه واأشرَ فأتَّقيه.

وأقمى بصدق العبودية بين يديك

حيى تزيل عنى المساوى، وتذهب عنى الدعاوى فيظهر على من فضلك مالابطهر معه في أثر عدالك ، وإن كان الكل في طي الكل فللنسب اختصاص واعتبار .

إلهي علمني من علمك المخزون

الذي علمته أولياءك حتى وثقوا بكفالتك ، واستندوا لوكالتك ،

وصُنّى بسرّ اسمك المصون

الذى صنته بجملة أسمائك ، وخصصت به خواص أوليائك ، فصانهم عن ضيم الأعداء والسكون إلى الأولياء فَحصَل لهم النصر المبين : بوجود الفتح والتمكين.

إلهى حققني بحقائق أهل القُرْب

الذين شهدوا أوصافك ، فاكتفوا بك ، فتوكُّلوا عليك ، فلم تكلهم إلى غيرك ولم يلحقهم ضيم بنصرك ، ولم يخب لهم أمل بفضلك.

واسلُك بى مسالك أه**ل الج**ذْب .

الذين وقفوا بين يديك موقف الافتقار على يساط الاضطرار فتوسّلوا بك إليك من بساط فقرهم لكمال معرفتهم .

إلهى اغنى بتدبيرك عن تدبيرى

حى لاأشكو بحال ولا أترجم بمقال ولا أتعلّق بمال ولاآمال ، اكتفاء بعلمك ورحمتك وتدبيرك الجارى على أتم وجه وأحسن حال ، إقتداء بخليلك ابراهيم إذ قال (حسبى من سؤالى علمه بحالى) واختيارك لى عن اختيارى .

حنى أرجع فى كل شيء لاختيارك ، ولا أنظر فى شيءٍ باختيارى ، فأكون بك وإليك راجعاً لحسن اختيارك ، فبذلك تحسن أحوالى وتزكو علومى وأعمالى .

وأوقفني على مراكز اضطرارى .

فأشهد لطفك مع عظيم جهلي ، ورحمتَك مع قبيح فعلى ؛ لأَنى فى كل أمرى وبكل حال مفتقر إليك وأُنت اللطيف الخبير .

إلهى أخرجني من ذلِّ نفسي .

بشهود قربك المقتضى لمراقبتك حتى تُطاع فلاتُعصى وتُذكر فلاتُنسى ، ويكون العبد بك وإليك قائماً بالعبودية والتذلل الذي هو هَين عزِّه بين يديك .

وطهرنی من شکّی وشرکی

المُقتَضِيين لبُعدى وحجى بشهود رأفتك التي لاتُبتى لى شكاً ولا شِركاً بظهورها فى عوالم القلب وغيره، واجعل ذلك

قبل خُلول رمسي

أى : تراب قبرى ؛ لأن ما بعد حلول رمسى غير نافع لى لانقطاع التكليف والاستفادة عنه ؛ إذ هو محل كشف الحقائق وثواب العمل.

بك أستنصر

على ما أخشاه من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار فانصرنى على كل شيء من ذلك ما علمته يصلح لنصرتى وإن كان استنصارى ناقصاً فأنت الرحيم .

وعليك أتوكل

فيها آمُله من الآثار والأطوار في تنقُلها وتقلُّبها وغير ذلك

فلا تکلی (۱)

لشيء سواك من نفس ولاخلق ولا دنيا ولا غيرها من الآثار والأطوار فأنت الوكيل.

ولجنابك أنتسب

لمعرفتي أن اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار إنّما تجرى بإجرائك ، فالمكروم من أكرمته والمحروم من أخرمته .

فلاتبعدني عنك

بالاشتغال بالآثار والأطوار ، ردًا وقبولاً ، وحبًّا وبغضاً وغير ذلك .

وبهابك أقف

وقوف مفتقر قد دفعته العوالم باختلاف آثارها وتنقلات أطوارها إليك فلم أجد ملجاً سواك .

فلا نطردني .

عن بابك وإن كنت مسنحقاً للطرد باختلاف أعمالي وتقلُّبات أحوالي .

وإياك أسأل .

في كل حال من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار قلت وجَلْتَ

⁽١) و شروح الحكم يأتى بعد « فلا تكلى » وإياك اسأل فلا نخيبي ، وق فضلك أرغب فلا تحرسي ، والجنابك . . . اللخ .

فلا تخيبي .

لأَنى إِنمَا أَسأَلك من بساط كرمك لا من بساط فعلى ؛ إذ كلما أخرسني لومى أنطقني كرمك وكلما أياً ستني أوصافي أطعمتني منتك وجناب كرمك لا يفتقر إلى شرط ، يا أكرم الأكرمين(١)

أنت الغنيُّ بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ؛

لأَنك أَنت الغنيُّ على الإِطلاق ، القدير بلا قيد ، فلا يتوقف كرمك على شيء ولا يتقير بسبب كجميع أَفعالك .

فكيف لا تكون غنيًا عني .

وأنا الفقير بكل حال ؛ إذْ محاسني مساوىءُ وحقائني دعاوى ، وأنا محل المساوى، والدعاوى : لأتصافى بالنقص على كل حال ، وأنت الكامل ذاتًا ووصفًا ، واسمًا ، وفعلًا ياكريم .

إلهي إن القضاء والقدر غلبني .

فلم يشركا لى مقالًا ادعو به ولم يَدَعا لى حالًا أنظر إليه .

وإن الهوى بوثاق الشهوة أسرني .

فنقص أعمالي وأفسد أحوالي وذلك عدل في عين الحكمة .

فكن أنت النصير لي .

فى كل أمر أريده ويصدر منى من شهوة وغيرها ، بأن أشاهد عدلك فى المنع ، وقضلك و العطاء وأجر لى ذلك على أكمل وجه .

حى تنصرنى فى نفسى .

باليقين واتباع الحق والفهم عنك فى كل شيء .

وتنصرني .

ممن انتكمى إلى من صادق وصديق ، وحبيب ومنتسب بأن يكون لهم شرب مما تنيلى كما يليق بهم من فضلك .

⁽١) أنت الني بذاتك تذكر شروح الحكم قبل هذا قول بن عطاء الله و إلمي تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكهف تكون له علة مني ، وأنتِ الني بذا تلك يه ,

واغنني بجودك .

عن كل شيء حتى لا أعتمد على أعمالي ولا على شيء من دوام عزى وغيره

حتى أستغنى بك عن طلبي .

فيكون توجهى لك من بساط العبودية إنك أنت القاهر والآمر الذى لا تدخل الأسباب فيا عنده ، ولا بد من مراعاة حكمته واتباع أمره ، فيكون العمل له لا لشيء والطلب منه لا لشيء ، بل لا طلب ؛ إذ لا نسبة للخلق عند ظهور آثار الحق .

أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك .

حتى عرفوك ووحدوك فانجمعوا عليك بخدمة موصلة إليك ، فلم يلتفتوا إلى الآثار ولا وقفوا مع التقلُّبات والأطوار .

وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك .

حتى نظروا إليك ببصائر الإيمان والإيقان ، فأغناهم ذلك عن الدليل والبرهان ، وصاروا يستداون بك على الحق فلم يشاهدوا شيئًا سوى الملك الحق .

أنت الونس لهم .

بجميل أوصافك وعظيم جلالك إذ شهدود .

حيث أوحشتهم العوالم .

عا هي عليه من فقرها وذلها وعجزها فشهدوا ظلمة العوالم ، وأنها لا تهدى إلى شيء ولا توصل إليه ، بل الظاهر مُظهر المظاهر ؛ لأنه واجب الوجود ، وما سواه جائز .

وأنت الذى هديتهم حيث استبانت لهم المعالم .

هداهم للتوفيق اما ظهرت لهم المعالم أَى أَدلَّةِ التحقيق فرأُوا كُل شيءِ به ؛ إِذْ كُل شيءٍ له ؛ وأنه الحاضر بلا غيبة والقريب بلا بُعد.

ماذاً وَجِدَ مَنْ فقدك .

وإن وجد محير الدارين فهو فاقد ؛ التلاشي ما أُونيه في جنب ما فاته وأيضا فلا يتم إلاً به بل لا يصح بغيره .

وما الذي فقد مَنْ وجَلَاك .

وإن فقد كلَّ شيء في الوجود حتى نفسه فليس بفاقد ؛ إذْ من كان في الله تلفه كان على الله خلفه كان على الله خلفه ، وسواءٌ وَجد بطريق الجلال وهو الذي يقتضى المراقبة أو بطريق الجمال وهو الذي يقتضى المحبة .

لقد خاب من رضي دونك بدلا .

وما ذلك إِلاَّ لأَنه لا براك عليه رقيباً ولم يشهدك منه قريبًا ؛ إذ لو كان ذلك ما التفت لغيرك فضلًا عن أن يرضى به .

ولقد خسر من بغي عنك مُتَحوَّلًا .

وما ذلك إلا لأنه مطرود عن محبتك ، لانك لو أحببته لم تصرف وجهه لغيرك، ولو أحبك ما أمكنه أن ينظر غيرك.

إلهي كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان .

بل جعلته متجددًا متعددًا مع الآثار والأطوار ، حتى أن من رجع إليها بنورك لم يشاهد فيها غيرك .

وكيف يُطْلَبُ من غيرك وأنت ما بدئلت عادة الامتنان

بل أجريتها مع الحالات والأوقات وكرررتها على ممر الأنفاس والتقلبات فلم يصح لذى بصيرة احتاد على غيرك ولا رجوع لسواك

يامن أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه مُتَمَلِّقين .

قيام العبيد بين يدى الملك المجيد إذ وجدوا منه نفحة القرب ، ونسمات الرحمة ، فناجوه في بساط العبودية على وجه الافتقار والتذلل ، فأعطاهُم في الحال مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأعد لهم مثل ذلك في الدار الآخرة .

ويامَن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزَّته مستعزِّين

رفعًا للهمة عن الخلائق ، ووقوفًا مع الحق بشهود الحقائق ، فهم تحت جلاله حَامِدون ، وبوجهه الكريم متعززون ، لا تستعبدهم الأغيار ، ولا تطرقهم الأكدار ؛ لأنهم في كنفه وعزه . أنت الذاكر من قبل ذِكْر الذَّاكرين .

الت الله كر من فيل دِ قر الله قرين

إذ لو لم تذكرهم بالتوفيق ما ذكروك بالفعل والقول والتصديق وأنت الباديء بالإحسان من قبل توجُّه العابدين .

إذ لو لم تحسن إليهم ما عبدوك فبتوفيقك توجَّهوا للعبادة وبعافيتك ورزقك استعانوا على طاعتك .

وأنت الجوَّاد بالعطايا من قبل طلب الطالبين .

إذ لو لم تجد عليهم قبل طلبهم بايجاب ما طلبوه (١) وإيجاده وبتحريكهم ما طلبوك ، بل كما قيار :

لو لم تُرد نيل ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما علَّمتني الطَّلبا وأَنت الوِهَّاب .

لنا إذ كل شيءٍ من عطائك بلا علَّة ولا سبب سابق .

ثم أَنت لما وهبتنا من المُسْتَقْرِضين .

تكملة للمنَّة بظهور النسبة (٢) ؛ إذ لست بمحتاج إليهم ولا هم أغنياء ولا مستقلين بما لديهم الميهم المأبني برحمتك حتى أصل إليك .

إذ لا وصول إليك إلا بفصلك ورحمتك وكرمك .

الم واجلبني بمنَّتك حتى أُقبل عليك .

إذ لا إِقبال عليك إلا مِنك (٣) ، ولا وصول إليك إلاَّ بك ، وإن كانت الأَسباب معروضةً فالحقائق ملحوظة ، كما أَشار إليه الصحابة رضي الله عنهم حيث قالوا :

والله ، لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلَّينا

الَّهِي إن رجائي لا بنقطع وإن عَصَبتك

لعلمي بانك أنت الغفور الرحيم الذي لا يتعاظمه فنب يغفره .

كما أن خوف لا يزايلني وإن أطعتك .

لعلمى بأنك أنت الفعال لما تريد بلا حجر ولا توقّف لا سيا وقد ورد فيا يُوحَى (٤) (يا داود! قل لعبادى الصديقين لا يغتروا فإنى إن أقم عليهم عدلى وقسطى أُعذّبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا ييأسوا فإنى لا يتعاظمنى ذنب أغفره لهم).

⁽١) وفي نسخة الدار : بايجاب ما يطلبون إيجاده وتحريكهم ما طلبوك) . (٢) في نسخة الدار : بظهور السنة .

⁽٣) وفي نسخة الدار : إلا بمثك) . (٤) وفي نسخة الدار « فيما أو حتى الله: ياداود) .

إلهي قد دفعتني العوالم إليك .

إذ لم أجد فيها نصرة ولا إعانة ؛ لفقرها وذلِّها وعجزها وضعفها .

وأَوْقَفَنَى علمي بكر مك عليٌّ .

فلم ممكنى غير ملازمتى بابك ، والاستناد إلى جنابك ، إذ أنت الغنى العزيز القدير الكريم ، بدأت بالنوال قبل السوأل ، ولم تزل تجرى علينا الإحسان والأفضال .

كيف أخبب وأنت أملى .

فيها أريده جلبًا ودفعًا وخفضًا ورفعًا ، وضرًا ونفعًا ، والله لا يكون ذلك وأنت الكريمُ المحسن أولاً وآخرًا .

أم كيف أهان وعليك مدَّكَالي .

فى جميع أمرى ، ومن توكّل عليك كَفَيته ومن تعلّق بك هديته (ومن يتوكل على الله فيهو حسبه) فأسألك صدق التوكّل عليك وحُسن الإنابة إليك حتى ألقاك يا أكرم الأكرمين :

إلهي · كيف أستِعزُ وفي الذلَّة أَرْكَزُنني

إد خلقتى من نراب وغدينى من نراب وتردنى للتراب ، أولى : نُطفةٌ مذرة(١) ، وآخرتى جيفة قدرة ، وأنا فيما بين ذلك كما نعلم من النقص ظاهرا وباطنًا ولى ذلُّ فوق هذا أو دونه .

كيف لا أستعز وإليك نسبتي .

إذْ خلقتى ورزقتى ، وألهمتنى وعلَّمتنى ، وأرشدتنى وهديتنى فأقول مولاى ولا أبالى ، وأَى عزَّ فوق هذا وأَى شرف أكبر منه الهي .

الهي كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني .

إد جعلتني محتاجًا لكل شيء من أمرى الدنيا والآخرة ، وأقمته على أيدى الخلائق وهذا غاية الفقر .

أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتني

إذ جعلت كل شيء بيدك ، ففتحت باب الغني عن الكل بالتوجه إليك ، وباب الفقر

⁽١) مذرة ؛ قدرة .

بالاحتياج لما يتوقف عليه وجودى ، فأسألك غناك (١) حتى لا ألتفت لغيرك ، وفقرى إليك حتى لا أحس باستغناء عنك مع العافية ياكريم .

أنت الذي لا إله غيرك .

فيُعْبِذُ ولا معبود سواك فيقصد .

تعرفت لكل شيء.

ما يجرى عليه وعلى غيره من أختلاف الآثار وتنقلات الأُطوار

فما جهلك شيءً .

لارنباط العلم بك من ضرورياته بتقلباته وغير تقلباته.

وتعرُّفتَ إِنَّى في كلِّ شيءٍ .

ما يجرى على ذلك الشيء من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار .

فرأيتك ظاهرًا في كل شيء .

بما نجرى عليه من وجوه التعريف ، لا من حيث الحلول والتكليف.

فأنت الظاهر لكل شيء .

ظهور دلالة وتعريف ، لا ظهور معاينة وتكييف ، تعالى ربنا جل وعلا .

یامن استوی برحمانینه علی عرشه .

معى : أظهر في العرش وما فيه وجود رحمته حتى لم يوجد فيه سوى الرحّمة ، لثبوت غنائه تعالى وافتقار الكلّ إليه كما أشار إليه القرآن المجيد بقوله (إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم) قيل : للرحمة ، ، وقيل للاختلاف ، وقيل لهما . مع أن الاختلاف هو عين الرحمة ، ثم الرحمانية متعلّقها الإيجاد ؛ فلذلك لم تختص . والرحيمية متعلقها الامداد ، وإمداد الكافر نقمة عليه ، يخلاف (٢) وجوده ؛ إذا لا يترنب عليه عقاب ، فلذلك اختصت الرحيمية بالمؤمنين .

فصار العرش غيباً في رحمانيتك.

⁽١) وفي نسخة الدار ، ـ فأسألك غي بك حتى لا التفت إلى غير ك وفقرأ إليك حتى لا أحس باستغناف عنك ـ .

⁽٢) وفي نسخة الدار بدل فوله بخلاف وجوده ـ بلا خلاف ـ .

إذ لولا هي لكان عدماً محضاً ، ونفياً صرفا ، فوجوده فيها غيب ، نعم ، هو فيها كَلَرُة من النّرات ، لولا تعظيم الرب إياه واعتناوه به .

كما صارت العوالم غيبًا في عرشه .

فكما أن العرش محنو على جميع العوالم حِسًا فالرحمة محيطة. به معنى ، فالعوالم غيب فيه وهو غيب فيها ، فسبحان ربى العظيم وبحمده .

محقت الآثار بالآثار:

إِذ غَيَّبت العوالم في العرش حتى كأنَّها حلقة ملقاة في فَلاة .

ومُحَوتَ الأَغيار .

التي هي العرش وما فيه من العوالم .

بمحيطات أفلاك الأنوار

التي هي آثار الأسهاء والصفات من القدرة والإرادة والعلم ؛ لأنه لا نسبة للأغيار سعها كما تقدم . لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته .

يامن احتجب في سرادقات عزِّه عن أن تدركه الأبصار .

في هذه الدار ، وفي تلك الدار ، في هذه الدار مطلقاً ، وفي تلك الدار (١) إحاطةً ، إذ يراه المؤمنون كما صرح به صادق الوعد ، والسرادقات : الحجب . استعارها للعز المانع من روية الله تعالى ، ولله المثل الأعلى .

يامن تجلَّى بكمال مهائه .

في جلاله وجماله الذي لا يُكيف ولا يُداني بشيء ولايقاس به

فتحققت عظمته الأسرار .

التي تجلى بأن زال الحجاب عنها فتمكّنت الحقيقة منها تمكّنا سرى في كل وجود صاحبها فأكسبه هيبة ، وإجلالًا ، وتعظيما .

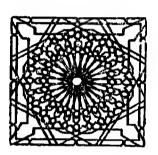
كيف تخلى وأنت الظاهر .

الذي لا يصح خفاؤه ولا يتوقف ظهوره على سبب ولا أمر .

أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر .

⁻١- - إدراك إحاطة ـ كما في نسخة الدار .

الذى لا تصح غببته أبدا كما قال تعالى (أو لم يكف بربات أنه على كل شيء شهيد ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط) وقد مضى من كلام المولف كيف يحتجب الحتى بشيء والذي يحجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر . والله سبحانه الموفق للعمل بهذا الكتاب والمجرى على ما فيه من حق وصواب ، وبه استعين على ذلك وغيره وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والاخرين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين وتابعيهم باحسان إلى يوم الدين - والحمد الله رب العالمين .



فهرس كتأب حكم بن عطاء الله

								-		
فحة	0									الموضوع
۳	633	433	400		****		576	::::		يه دي دد: معادة
. 10	536	221	535	***	200	***	:::	***	:::	مقدمة الكتاب به: به:
	•									الباب الأول :
74	er:	***	555	***	cee	***	552	:::	777	من علامات الاعتاد على العمل
										الباب الثاني :
٤V	925	555	C-04		con	500		724	200	التفويض في المراد جبر ببير
• •	• • •	•••		•••	***	•••	•••	•••	•••	الباب الثاث:
	-	2				•				• •
70	ee:	:::	cee	. ***	fif	:::	*:	177	***	تشوفك إلى ما بطئ فيك من العيوب
			•							الباب الرابع :
٧٥	:::	• • • • •	:::	\$ 7.2	::5	***	***		. 200	الكريم لا تتخطاه الآمال 🙃 : : :
				• •	•					الباب الحامس
۸۳	777	7.77	227	***	:::	**:	***	:::	::.	لا تصحب من لا يمضك حاله
					•					الباب السادس
11	::.			:::	:::	?? :	:::		***	من علامات موت القلب جب
		-			•					الباب السابع:
1.1		.77	.::	:::	503	***	***	777	111	· · · · · · · · · · · · · · · · · · ·
	•									الياب الثامن :
115	77.	m 25	595	# 7 *	528	£00	14.5	202	:::	سبب المنازل على قدر مراتب النازل المنازل على قدر مراتب النازل
				•••	•••	,	•••	•••	•••	_
171				_						الباب التاسع:
111	7.7	777	****	:::	***	:::	***	îŧî	***	مطلب العارفين من الله ٢٠٠٠
***										الباب العاشر ؛
170	***	***	;; ;	ee.	***	***	:::	***	***	الدعاء وأبواب الرحمة هيم ٢٠٠
										الهاب الحادي عشر :
150	***	***	***	363	****	ees.	***	***	777	كثرة الصلاة بالأيل جهم مهم

												الثانى عشر :	باپ
101	•••	222	::.	:::	:::	***	177	:::	**	:22	223	قام الشكر	•
								(₁ ,	21.5	: : :		الثالث عشر ال	ہاپ
171	:::	:::	:::	252	:::	228	:::	:::		.::		فضل التوحيد	
												الرابع عقر:	باب
177	202	077	553	cee	777	:::	277	***	***	***	cee	ور اليقين جن	
						-	•					الحامس عشمر :	
177				# <u> </u>	000	 man	023	20.5	200	222	.	از هدوالز هاد ۲ ۲ ۰	
1 7 7	:•••	•••	•••	•••	•••	***	•••	•••	•••	•••	•••		
	1.								· · · .			السادس عشر:	•
IVL	•	555	:::	:::	****	223	•••	• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •	***	237		عرفة الأولياء ج ر. 	
	ī,				. •	. ,	. ~	÷				السابع عشر :	
119	***	***		222	***	:::	:::	***	***	***	223	لصدق مع الله ٢٥٠	i
					i			-				الثامن عشر :	ہاہ
111	771			???	:::	***	:7:	ت	لكر اما	ساط ا	وال و ب	لثواب والآمال والأح	j
	•											التاسع عشر :	باپ
7.0	777	• •	:::	:	:::	•		***	.,	223	***	محقيق العبو دية جهج	5
•	•											العشرون :	ماټ
717			3 · ·	ا چچچ			022 022			222	 600A	نوار الحكمة والحكما	
	-											الحادي والعشرون :	
	· · ·	· .·			•			•				_	
477	. **** · * /	777	***	223	555	557	:55	323	622	222	222	جنات المطيع مهمه	
	-	1.										الثاني والعشرون :	•
	ុះរះ	771	:::	:::	***	***	:::	400				طلب الجنة :::	
				. :								الثالث وللعشرون بر	باب
727	:::	***	277	777	273	:::	177	***	***	:::		الثالث وللعشرونه : علامات الاكتفاء بالله	
												الرابع والعشرون :	بان
704	a	***	:::	***	:::	600	***	900	655	, .	223	عرفة الله ووه ووو	•
:	' 1											الحامس والعشرون:	بات
Y 7 V	601	 		 660	 202	. j 600	7.7. 555	222	.:	 داه	ً نات. ا، السم	الحامس والعشرون : نوار القلوپ : : وأنو	֓֞֞֜֞֜֞֞֜֞֞֞֜֞֞֜֞֞֜֞֜֞֜֞֜֞֜֞֜֞֞֜֞֜֞֜֞֜֞
711	200	ere. Geo	500	560	coe	600				686	ال است.	لوار اسوپ را ر لناحاة وه وه	.1
. 1] .	1.	., . [170	***	- 666	****	ু কুকু • • ;		ଟଟଟ . : •	***	لناجاة هده دده	